الثوري الروماني
النظاماءة

دار المعارف الجامعية
الدكتور عبد الحليم نفيض

الدار المصرية الحكامية
المهندس محمد عبد الحليم

1978

المؤلف
الدكتور محمد عابدين
الإمبراطورية الرومانية
الإمبراطورية الرومانية
النظام الإمبراطوري ومصر الرومانية

تأليف
الدكتور مصطفى الباياني
الشناز التاريخ الحاكم
مكتبة الإسكندرية، وبيروت، لبنان

الهيئة العامة للكتاب الإسكندري
رقم التصنيف: 387
رقم التسجيل: 387

1999
إهـداء

أقدم هذا العمل التوافع إلى ذكرى أستاذي.

هيوجو جونز

الذي أُعْتِرَ مع روسنتزف أعظم من اهتم بدراسة الإمبراطورية الرومانية في القرن العشرين ولقد كان له شرف العمل معه في حقل الإمبراطورية الرومانية على مدى عدة سنوات، فأفادت منه علماً ومنهجاً. وإن في دأبي على العمل في الميدان الذي أحبه ووهج له حياته، لنوع من الوفاء لذكراه ومواصلة للسير على الدرج.

مصطفى العبادي
الباب الأول
النظام الإمبراطوري
شكر

تم إنجاز هذا العمل في ظروف بيروتية وعثرانية، ولولا مساعدتي زوجتي في كتابة مخطوطات الكتاب، وإشراف تلميذتي وزميلي، الدكتور نبيل، حسن محمد، على تصوير الفروقات، لما خرج الكتاب في الوقت المقدر له.
وإلا في هذه المسورة فلها مني خالص الشكر وصادق التقدير.

كما أتوجه بالشكر إلى كثيرين من أقارني في هذا العمل وخصوصا المشرفين على مكتبة جامعة بيروت العربية، وأخيرا وليس آخرها، كل من أشرف على النشر والطباعة الذين لم يدخروا وقتا أو جهدًا في إتمام العمل بسرعة وكفاءة عالية وروح صمحة كبيرة.

المؤلف
مقَدَّمَة

ينقسم تاريخ روما القديم إلى ثلاثة عصور تقليدية: العصر الملكي ويشمل الفترة الأولى (منذ تأسيس المدينة، وفترات له عرف عام ٧٣٣ ق.م. حتى عام ٥٠٩ ق.م.)، حين بدأ العصر الجمهوري نتيجة لثورة وطنية. وتستمر الجمهورية الرومانية نحوًا من خمسة قرون، إنها سلسلة من الصراعات الحزبية والحروب الأهلية، حتى وضع أوكتافيانوس لها حدا في عام ٢٧ ق.م. وذلك باستخدام نظام دستوري وسياسي جديد عُرف بالنظام الرئاسي. ورغم أن أوكتافيان حافظ على هيكل النظام الجمهوري في جميع مظاهره من حيث استمرار الامتحادات لجميع مناصب الحكم، وبناء المجالس التشريعية، إلا أنه اتخذ لنفسه منصبا جديدا خارج ذلك هيكل الجمهوري، وهو منصب المواطن الأول، أو بعبارة أخرى رئيس الدولة ورئيساً، اصطلح على تسمية النظام الجديد الذي أقامه أوكتافيان باسم (Principe) أو فترة الحكم الرئاسي (Principate). وفي واقع الأمر أصبح أوكتافيانوس، أو أغسطس، الفعلي والمتصرف في جميع شؤون الدولة، فجمع في يديه كل سلطة سياسية وقضائية وعسكرية. ونظرًا لأن سلطة القيادة العسكرية المطلقة
، أصبحت أخطر صفة ملازمة لشخصية رئيس الدولة، imperator الجديد، فقد غلب على المؤرخين أن يطلقوا على العصر الذي بدأه أغسطس اسم الامبراطورية الرومانية، وبدأ الامبراطورية على هذا الأساس مع تأسيس النظام الرئاسي الجديد عام 70 ق.م. على يدي أغسطس وستمر في الضرب حتى سقوط روما سنة 410 ميلادية. ورغم سقوط مدينة روما في القرن الخامس الميلادي أمام غزوات القبائل المغيرة في الغرب، استمرت الامبراطورية الرومانية في الشرق في مدينة القسطنطينية. ولكن سلطان القسطنطينية يتقاس عن معظم أماكنها في الشرق مع قيام الدولة العربية الإسلامية في القرن السابع الميلادي. أما القسطنطينية ذاتها وتملكاتها الأخرى في آسيا الصغرى وشرق أوروبا فتستمر عدة قرون بعد ذلك في اصطلح على تسميته بالامبراطورية البيزنطية، التي تسقط نهائياً في يدي محمد الفاتح سنة 1453 ميلادية.

لكن الامبراطورية الرومانية لم تبق محافظة على النظام الاغسطسي طيلة تاريخها القديم، ولكن طرأت عليها تعدلات جوهرية في النظام والذين غيرت من شخصيتها تغييراً بعيداً. ولذلك اتفق المؤرخون على تقسيم الامبراطورية الرومانية إلى مرحلتين متميزيتين: المرحلة الأولى تشتمل القرون الثلاثة الأولى، أي من 27 ق.م. إلى 284 ميلادية، وهي بداية حكم الامبراطور دقلديانوس، الذي أعاد تنظيم الامبراطورية، ولذلك يعتبر مؤسس الفترة الثانية من الامبراطورية. ولكن هناك من المؤرخين من يستر اعتبار عام 284 ميلادية، وهي بداية حكم الامبراطور قسطنطين الذي أعلن المسيحية ديناً رسمياً للدولة، بداية أيضاً للحالة الثانية من الامبراطورية، على أساس أن أهم ما يفرق بين الفترة هو اختلاف الدين، ففي الفترة الأولى كانت الديانة الوثنية هي السائدة، وفي الفترة الثانية سادت المسيحية.

وكما انقسمت الدولة إلى فترتين متميزيتين من حيث أوضاعها الاجتماعية.
والاقتصادية والإدارية والدينية، كذلك اختلفت مصادر كل من الفترتين، كما سيتضح فيما بعد. ونحن في دراستنا للإمبراطورية الرومانية سنقسمها إلى موضوعين رئيسين: الأول يتناول النظام الإمبراطوري كما أقامه أغسطس في روما، وأخير له الإمبراطورية، والثاني دراسة تطبيقية على إحدى الولايات وهي مصر في العصر الروماني.
النصل الأول

المصادر التاريخية

الإمبراطورية الرومانية مصادرها التي يعتمد عليها الباحث الحديث، للفارس على نظمها السياسية وأوضاعها الاجتماعية والاقتصادية والإدارية... وسوف نحاول أن نعرض لأهم هذه المصادر بأنواعها المختلفة حسب الحقب التاريخية، مبتدئين بعصر الإمبراطور أغسطس الأول. ورغم أننا عادة نبدأ عرض المصادر بتقديم أعمال المؤرخين (أو ما أصلح على تسميته بالمصادر الأدبية) الأول، إلا أننا سنقدم لعصر أغسطس بالنفس الذي قام هو بكتابة نفسه في نهاية حياته، ليكتب على ضريحه. وهو سجل Res Gestae Divi Augusti بأعماله يسمى: أعمال أغسطس المقدس.

ونظراً لأهمية هذا النص، كتب من عدة نسخ ونشر على الباحث العامة في عدد من البلدان. وظل هذا السجل بأعماله أو منجزات أغسطس مجهولاً، حتى اكتشفت نسخة مهشمة منه في مدينة أنقره، استكملت بإجازة عثر عليها في انطاكية وأماكن أخرى. ومنذ اكتشاف نسخ أنقرة في نهاية القرن الماضي، أصبح يطلق عليه اسمًا دائرًا وأثر أنقرة Monumumentum Anycranum؛ وتتوفر علية دراسة وبحث نظراً لأنه صدر عن الإمبراطور أغسطس نفسه ليشرن على الناس، وليظل بينهم شاهداً على ما قدم للدولة والبشرية من خدمات. وفي الواقع يعتبر أثر أو
لقد وصلتنا من عصر أغسطس بعض كتابات المعاصرين له، منها\(\text{Velleius Paterculus}\) الذي تولى منصب البريتور - وهو في سن الثلاثين - عندما توفي أغسطس سنة 14 ق.م. أي أنه ولد ونشأ في حكم أغسطس، وقام بكتابة عميقة للتاريخ روما. ويعتبر كتابة باتيركولوس شدة حاسة للإمبراطور، مما يدل على مدى شعبية أغسطس ونجاح أساليبه الداعية حتى بين أفراد طبقة النبلاء في المجتمع الإيطالي الذي كان ينتمي إليه هذا المؤرخ. ويكفي للدلالة على مدى إعجاب باتيركولوس بأعمال أغسطس بعد عودته متصرفا إلى روما سنة 29 ق.م. قوله: "لم يعد هناك حاجة لصلاة أو دعاء، إذ لم يبق شيء يرجوه البشر من الآلهة أو تستطيع الآلهة أن تمنحه للبشر".


نُقش أنقهر من أهم ما نتلقى من الوثائق التاريخية على الإطلاق، ليس فقط بسبب أهمية كابته وهو أغسطس، ولكن بسبب أهمية ما اشتمل عليه من المعلومات. فهو مكتوب على طريقة كشف الحساب الخلاني، عن حكم أغسطس في كل أوجه النشاط التي شارك فيها، وما أكثرها: في المال والأدوار والسياسة والمنظمات والحرب والمنظمات العامة، وغيرها. وهو شديد الاهتمام بالشئون المالية، وخاصة ما أنشئه على الدولة من مالاً الخاص، وتعمد ذكر الأرقام والتوفيقيات، ونظراً لأن الإيجاز هو الطلب الغالب على لغته وتعبيراته، فقد قام العديد من كبار العلماء بالتوفر على دراسته وشرحه، وتأتي على رأسهم العالم الألماني الكبير تيدور موسمت. الذي يعتبر أهم من ساهم في نشر النقوش اللاتينية في العالم، وقد أفاد منها كثيراً في دراسته المشهورة عن الدولة الرومانية. ويمكننا أن نضيف في هذا المجال مجموعة الوثائق التي تم تجميعها عن عصر أغسطس واعتى بنشرها العالمان جونز وإهرنبرغ.

V. Ehremberg / A.H. M. Jones

باتيركولوس

وقد وصلتنا من عصر أغسطس بعض كتابات المعاصرين له، منها خمسة وثلاثون فصلاً كتبها فيليوس باتيركولوس (Velleius Paterculus) الذي تولى منصب البريتور - وهو في سن الثلاثين - عندما توفي أغسطس سنة 14 ق.م. أي أنه ولد ونشأ في حكم أغسطس، وقام بكتابة غزيرة للتاريخ روما. ويعتبر كتابة باتيركولوس شدة حاسة للإمبراطور، مما يدل على مدى شعبية أغسطس ونجاح أساليبه الداعية حتى بين أفراد طبقة النبلاء في المجتمع الإيطالي الذي كان ينتمي إليه هذا المؤرخ. ويكفي للدلالة على مدى إعجاب باتيركولوس بأعمال أغسطس بعد عودته متصرفا إلى روما سنة 29 ق.م. قوله: "لم يعد هناك حاجة لصلاة أو دعاء، إذ لم يبق شيء يرجوه البشر من الآلهة أو تستطيع الآلهة أن تمنحه للبشر".
وقد منحها أغسطس للدولة والعالم أجمع بعد عودته إلى المدينة. ورغم ما تكفله هذه العبارة من الإعجاب الشديد والجناح إلى المبالغة المفرطة في وصف أعمال أغسطس، إلا أن باتيركولوس يتمتع بصفة المعاصرة، فهو يصف أعمالا وإنجازات شاهدة أو كان قريبا منها، ولذلك أهمية بالغة بالنسبة للدروس الحديث.

استرابون:

هناك مصدر معاصر آخر وهو كتاب استرابون الجغرافي. فقد عاش استرابون في فترة حكم أغسطس وتيبريوس من بعد وتوافى حوالي سنة 26 م. ورغم أنه كتب كتابا في وصف العالم جغرافيا، ويقسم إلى سبعة عشر جزء ووزع عليها أقاليم العالم، إلا أن كتابه هى من نوع الجغرافيا التاريخية، فهي تهم بوصف المكان بقدر ما تهم بوصف الإنسان الذي يعيش فيه. ونظرا لأنه أمضى معظم حياته فيها بين سقوط الجمهورية وقيام الامبراطورية (274 ق.م.-211 م.)، يعتبر كتابه من أهم السجلات المعاصرة لتلك الحقبة المخطيئة. ونظرًا لثقافته الواسعة، وخبرته الكبيرة، في أرجاء الامبراطورية الرومانية التي زار كثيرا من أقاليمها، فإنه كان مليا بالأحوال والنظم التي سادت في نهاية الجمهورية ومدرا لها كثير من التغيرات التي استحدثت مع قيام الامبراطورية. وإذا علمنا أن استرابون كان من أنواع المدرسة الرواقية في الفلسفة والأخلاق، وهي مدرسة توصى بدرجة عالية من ضبط النفس وميل إلى الزهد وإتباع بوحدة الجنس البشري، لذلك لم يكن غريبا إن وجدنا كتابة استرابون تتميز بالوضوعية وأحيانا بدرجة عالية من الصدق والبعد عن العاطفة. وكل هذا يزيد من قيمة كتابه في نظر المؤرخ الحديث. ويكفي أن نذكر بين لغته ولهجة باتيركولوس في وصف أعمال أغسطس فيها عرف بتسوية 27 ق.م. يقول استرابون: "كانت الولائيات قد قسمت بطرق مختلفة، أما الآن، فهي كما نظمها قصر أغسطس. فعندما عهد إليه وطنه بقيادة..."
الإمبراطورية، ومنح السلطة في الحرب والسلام مدى الحياة، قسم أملاك الرومان إلى قسمين، قسم لنفسه، والآخر للشعب، لنفسه أخذ كل الولايات التي تقتضي حامية عسكرية ... ومنح القسم الآخر للشعب وهو القسم الأمن، سهل الحكم، وظل بغير ثقة عسكرية ... هذه لغة تختلف كل الاختلاف عن أسلوب معاصره باتريكولوس ... ونحن نجد عند استرابون مادة تاريخية حقيقية وليس فقط مجرد أوصاف وعموميات مرسومة.

ومن الطريقة أن استرابون زار، كذكراً، معظم ولايات العالم الروماني ووصفها وأحيانا شارك في بعض أحداثها، فمن ذلك أنه حضر إلى مصر في سنة 24 ق. م. وأقام بها أربع سنوات، ويعتبر وصفه لمصر والمدينة الاسكندرية بالذات من أهم مصادر معلوماتنا عن الأوضاع فيها في تلك الفترة ... ولاحف ولي مصر آنذاك هيليوس جالوس في حملة ضد الجزيرة العربية ... وأورد وصفا للحملة في كتابه ... ويعتبر هذا الفصل أقدم وصفا نثلاً عن بعض أطوار الجزيرة العربية، كتبه شاهد عيان بنفسه ... وهو يورد كثيراً من أساطير المدن والقبائل كما يصف معلم البلاد ... ومن هذه الأفكار القليلة نرى أهمية كتاب استرابون كمصدر تاريخي للقرن الأول من قيام الإمبراطورية الرومانية، فقد كان مجارياً بأحوال مدينة روما وشياح الحكم فيها، وهي التي يفترض بأنه زارها عدة مرات، كما كان لديه دراسة مباشرة ببعض ولاياتها نتيجة لرحلاته المتعددة إليها.

شعراء العصر الأغسطسي:

ويتم الدارس لعصر أغسطس بنوع آخر من المصادار. ونجد به أعمال الشعراء الذين عاشوا تحت حكم يئس لخص Augustine، عند استخدام الشعر والشعراء لأغراض الدعاية لعهد الجديد، حيث أصبح هنالك ما اصطنعل على تسميته "الأغسطسية"... 

88
الحكم الجديدة والتي حاول بعض الشعراء أن يشروا بها وأن يتدحرجوها، طمعاً في الفوز برضاء الإمبراطور عنهم أو تجنبًا لسخطهم عليهم. وتأتي على قمة هؤلاء الشعراء فييجيروس، صاحب أشهر ملحمة Vergilius، رومانية وهي "الإنياد"، Aeneid، التي كتبها بتكليف من أغسطس نفسه. ورغم أن موضوع الملحمة هو تأسيس روما القائم على أسطورة قديمة، ولكن التصور الفني لها هو أنه إذا كان "رومولوس" قد أسس مدينة روما في القرن الثامن قبل الميلاد، فإن أغسطس هو الذي ردّ لها الحياة بعد أو أشعلت الحروب الأهلية أن تغلى عليها. ونجد شخصية روما وشخصية أغسطس مالتين في الملحمة بوضوح كامل وتعتبر الإنياد مثلاً من أمثلة الإلتزام السياسي في ذلك العصر.

ويعبّر شاعر آخر "هراتيوس" Horatius سياسياً مثل فييجيروس، ولكنه كان شاعراً ملتزماً على أي حال. ويظهر ولاء للعهد الجديد في عدد من قصائده وخاصة فيها يعرف بالاناشيد (Odes) التي شهرت باسم "القصائد الرومانية"، والتي يمجد فيها الفضائل الرومانية القديمة التي كان يدعو ويشرب بها الإمبراطور أغسطس. ورأى هذه الفضائل هي الاعتدال والشجاعة والوطنية وبساطة المعيشة والعدل والتقوى. وإن دعوة هراتيوس لهذه الفضائل باعتبارها المنتدبة الوحيد لرومًا، فإنه يكون قد سبق وتعيد لسياسة أغسطس في الإصلاح الاجتماعي بخمس سنوات على الأقل.

هذة نماذج من الحياة الأدبية في العصر الأغسطسي وهي تساعد المؤرخ على الإحساس بشاعر العصر واساليبه. فرغم انها لا تقدم معلومات تاريخية عن أحداث أو تشريعات أو انجازات ولكن المؤرخ يجد فيها إصداء لما يحدث في المجتمع، وكثير منها يفيد في فهم الأوضاع الاجتماعية والأقتصادية، فحين نجد فييجيروس أو هراتيوس يتحدثان عن حياة الريف، فهنا يتتحدثان عن تجربة حقيقية ويعتبر هما طبقة ملاك الأرض ولو أنها كان أصحاب ملكية محدودة منحها لها
أUGUSTUS. وكذلك حين نلمح في كتابات هوراتيوس إشارات إلى بعض المعاصرين وعلى رأسهم الوزير مايكليناس، نستطيع أن نتعرف على الطبقة الحاكمة وأصحاب النفوذ في ذلك العصر، ومن هنا كانت أهمية الأعمال الأدبية في نظر المؤرخ.

تاكتيوس:

Tacitus أولاً مؤرخ عظيم في العصر الإمبراطوري هو تاكتيوس (55 - 117م) في النصف الثاني من القرن الأول وبداية القرن الثاني الميلادي الذي ينتمي إلى دورات السنتوس وكتب في عصر الإمبراطور تراجان. وبحكم انتظامه لدورات السنتوس ودورات فقد كان شديد الحساسية للمشوهات السياسية كما كان على علم بأعمال ووثائق هذه الهيئة السياسية الخطرة. ومن أهم المصادر التي اعتمدت عليها، مجموعة وثائق السنتوس المعرفة اصطلاحاً باسم Acta Senatus، وهي متابعة محاضر جلساته، وتتضمن المناقشات وخطب الأعضاء والأباطرة، وكذلك النشرة اليومية التي كانت تصدر عن الإدارة الحكومية متضمنة أحداث أحداث اليوم وجميع القرارات والبيانات الرسمية. كما أطلق على جميع أعمال المؤرخين السابقين. من هذا نجد ان تاكتيوس قد اتبتث له فرصة الالام باكر بسج من المعلومات عن الإمبراطورية الرومانية خلال القرن الأول. فذا اضفنا إلى هذا مشاركته الشخصية في الحياة العامة، وقبوته بزيارة بعض الولايات مثل بريطانيا وجرمانيا، سواء بحكم صلاته العائلية، أو صفته الرسمية، فنجد أن تاكتيوس، جمع بين الخبرة الشخصية حاكم Agricola والدراسة، وقد كتب عدة كتب من أهمها ب britannica وبرطانيا الرومانية والبرطانيا الرومانية وكان تاكتيوس قد تزوج ابنته. وكتابه الثاني عن جرمانيا التي ذهب إليها مرافقا لأحدى الحملات وعامت يوصف سكاجها اعتماداً أخذاً على أن أهم كتبه في التاريخ من غير شك حملات Amtales وكتاب «التاريخ» ويتناول كتاب الجوليات تاريخ روما نينا Historiae.
بين حكم تيبيريوس وفسباسيان أو ما بين 14، 66 ميلادية، مع بعض الثغرات فيها بينها. أما كتاب التأريخ فهو يهدف إلى أن يتناول الفترة من 29 إلى 96 ميلادية أي من فسباسيان إلى تراجان. ولكن لسوء الحظ، فقد معظم أجزاءه ولم يصلنا سوى الجزء الخاص لسنة 69-70 ومفي السنة المعروفة باسم "الأباطرة الأربعة" وقد اوردها في شيء كبير من التفاصيل. ورغم ما يتمتع به تاكتيوس. من منزلة رفيعة بين مؤرخي الامبراطورية لنظراته الناقدة وتحليلاته الذكية ومعلوماته الدقيقة. واحساسه المشرف بشؤون السياسة الرومانية وضوابطها، إلا أنه مؤرخ سياسي قبل كل شيء. ومؤرخ حزبي بالدرجة الأولى. فالألوان السياسية هي أوضح إجراه في كتاباته وخاصة فيما يتعلق بالأساليب السياسية التي كان يتبعها الأباطرة والحكام. وفي ثناها كتاباته تتعرف على كثير من مراكز القوى وأصحاب النفوذ. ولكن يجيب كتابة تاكتيوس إنه ملحم في تاريخه بسبب الحزب الذي يتبناه وهو حزب السناتوس. وتكشف كتاباته والفاظته عن كراهية شديدة للأباطرة وخاصة للأسرة الحاكمة التي اوجدها أغسطس والتي تعرف باسم اسيرة يوليوس وفرانسيس. وتصل كتابته في "الحلولات" حد الأسفاك والمهارة حين يكتب عن الامبراطور نيون. فليخلق قلبه وخياله العنان لتصوير الفساد والانحراف داخل قصر هذا الامبراطور وحياته الشخصية. وما يزيد في خطورة كتابات تاكتيوس هو مهارته الشديدة في الكتابة والتحليل، هذا الى استخدامه لأسلوب لاتيني رفيع يعتبر من أرقى الأساليب الأدبية في اللغة اللاتينية. ولكنه احتراماً يبلغ بالغموص وتحمل ذلك في "الحلولات" حين يعد إلى التلازم في التهجم والتليل من بعض الشخصيات، وتوصف هذه العبارات بلفظ "التياري والتلميح". وفي الواقع أن تاكتيوس يمل انتهاج سائداً بين بعض المؤرخين الرومان الذين يملكون سياسة السناتوس، ويتطلعون إلى احلام غامضة في عرفة النظام الجمهوري.
سوئيتيوس:

عاش سويتيوس فيا بين 69 - 150 م وعمل في القصر الإمبراطوري سكترانا للإمبراطور. وقد عالج الكتابة التاريخية على طريقة كتابة البيت، وقد وصلنا من أعماله سير الإمبراطور الإثني عشر باللغة اللاتينية، ويتناول فيه سير الأباطرة ابتداء من يوليوس قيصر (Divus Julius) حتى دوميتانيوس، أي أنه ينتمي في سنة 96 ميلادية. وكتابته ذات طابع قصصي ووعي بالبراءة الأخبارية، وتصويره لشخصيات الأباطرة، يغلب عليها طابع الإثارة فهو يجعل يوليوس قيصر مثلًا، يتفاخر بأنه ينحدر من نسل الألهة الخالدة. وفي عرضه لسير أباطرة أسرة يوليوس كلوديوس، يفرق في وصف الانحرافات والقصص ذات الإثارة الجنسية إلى جانب أعمال العنف والقسوة. ورغم ذلك بحكم موقعه في القصر الإمبراطوري فقد استطاع أن يستمد معلومات كثيرة قيمة من دار حفظ الوثائق الرسمية. ونحو هذا مبنية على هؤلاء المؤرخين من أمثال تاكيتوس وسوئيتيوس لم يهجموا الأباطرة الذين عاشوا في ظلهم، وكانوا يطلقون لأقلاهم العنان في مهاجرة الأباطرة السابقين وخاصة أولئك الذين ينتمون إلى أسرة انقرست من الحكم.

بليوتاريخ:

وهو من كتاب القرن الثاني الميلادي واشتهر كتابه الخالد عن سير عظيم اليونان والروم، ورغم أنه لم يكتب عن الأباطرة إلا أن السيرتين اللتين أوردهما عن يوليوس قيصر وماركوس انتونيوس تفيدا كثيرا في فهم ظروف نهاية الجمهورية وقيام الامبراطورية، خاصة وأن حياة انتونيوس السياسية تصل اتصالا مباشرًا بحياة أغسطس، وما يزيد من أهمية هاتين السيرتين أنه اعتمد اعتمادا كبيرا على ما كتبه كاتب معاصر له هو أسنيوس يوليوس Asinius Pollio الذي عاش وكتب أحداث الحرب.
الأهلية فيها بين ۴۲ ق.م وقد فقد الآن تاريخ يوليو عن الحرب الأهلية الرومانية، لا يعرف إلا عن طريق هاتين السيرتين لبلوتارخ وما كتبه Appianus، مؤرخ آخر من القرن الثاني الميلادي أيضاً وهو Ebianus، الذي استخدم اللغة اليونانية (مثل بلوتارخ) في كتابه عن الحرب الأهلية.

كتاب سير الأباطرة:

ويعرف اصطلاحاً باسم Historia Augusta، وهو عبارة عن مجموعة سير لأباطرة القرنين الثاني والثالث فيها بين هادريان ودقلديانوس وقد كتبها مؤلفون مختلفون ويزعم جامعها أنها وضعت في عصر دقلديانوس وقسطنطين، ولكن من المحتمل أنها كتبت بعد ذلك. ورغم أنها من تاريخ متأخر إلا أنها ذات قيمة، لاعتمادها على مصادر جديدة بالنسبة لأباطرة القرن الثاني وبداية القرن الثالث، أي حتى عصر كراكلا (۲۳۸ ميلادية)، أما بعد ذلك فقد سير الأباطرة حتى دقلديانوس أي قيمة تقريباً. ومن الواضح أن كتاب هذه السير المتأخرة (لحافة ۲۳۸-۲۸۴) لم يكن لديهم مصادر معاصرة يستندون لها مادتهم التاريخية؛ ولذلك أطلقوا عليها الاسم لملاء الفجوات في معلوماتهم. وهكذا مختلف قيمة هذه المجموعة من السير حسب اختلاف كتابتها وزمان الأباطرة؛ ولذلك يجب أن يتعامل معها الدارس الحديث بحذر شديد.

بلنيوس الكبير:

من كتاب القرن الأول الميلادي. ولم يكن مؤرخاً Plinyus، بلنيوس ولكن تصدى لكتابة موضوعة علمية أسماها التاريخ الطبيعي، وهي عبارة عن مزيج من المعلومات المختلفة ذات الطابع العلمي احياناً، مثل الدراسات المستفيدة التي يقدمها عن النباتات والحيوانات، أو ذات طابع إقتصادي مثل ما يورده من خبر

۲۷
الصناعة والتجارة، هذا إلى معلومات كثيرة في وصف البلاد والشعوب.

ورغم أنه لا يتحدث عن التاريخ والنظام أو عن السياسة والإدارة، إلا أن حرصه الشديد على إضافة معلومات جديدة بها كلهه ذلك من استطلاع وخروج عن الموضوع، جعل كتابه العظيم مصدرًا مفيدًا لمؤرخ الجوانب الاجتماعية والاقتصادية من التاريخ، خاصة بالنسبة للفترة التي عاشها.

وهي القرن الأول من الجمهورية.

بليبوس الصغير:

وهو ابن أخت الكاتب السابق، وعاش في عصر الامبراطور تراجان (98-117م) وكان على صلة وثيقة به وتعبر الرسائل التي تبادلها بليبوس الصغير مع هذا الامبراطور من المصادر التي تلقى ضوءًا على جانب العلاقات الشخصية بينهما. ورغم أن بليبوس الصغير يقابل صداقه الامبراطور بولاية وتأييد، تصل إلى حد المنج والاطر، إلا أن بعض رسائله تفيد مؤرخ الحياة الاجتماعية عن طريق الأشخاص الذين يرد ذكرهم في الخطابات مثل أحد رسائله إلى الامبراطور يطلب إليه أن يمنح طبيبا مصريا عالجه من مرض عضال، المواطنة الرومانية. فرد الامبراطور بأنه لا يملك ذلك، لأن الطبيب من طبقة المصريين الذين يلزم أن يمنحوا مواطنة الإسكندرية أولًا حتى يمكن أن يمنحوا المواطنة الرومانية بعد ذلك.

فمثل هذه الرسالة تدلنا على مدى الانقسام الطبقي الذي نظمه القانون في بعض الولايات الرومانية مثل مصر. وفي خطاب آخر نجد بليبوس يرجو الامبراطور أن يمنح شابًا من طبقة الفرسان عضوية السناتوس، ولا يذكر في خطابه مبررا لهذه التزكية سوى ما بينها من علاقة حيمة قديمة ترجع إلى زمن الصبا ويعتبر صفته هامة أخرى هو أنه على جانب كبير من التراث أُضحى نعرف في أحوال أخرى أن شاب الفرسان الذين يقدمون للدولة خدمات كبرى، أو يقومون بأدوار هامة في الحرب أو الإدارة، يكافؤون بمنحهم عضوية السناتوس، ولكننا نرى من خطاب بليبوس أن ذلك
الشاب لم يكن له مثل هذه المؤهلات، وإذا عن طريق صقله بعض بارز
في السنتوس وباستخدام وساطته، كان من الممكن أن ينال شرف عضوية
السنتوس. هذه نافذة ما يمكن أن يستمد المؤرخ من معلومات من هذه
الرسائل الشخصية التي خلفها لنا يوسيوس الصغير.

يوسيوس:

أما في مجال الكتابة التاريخية التقليدية، فهناك المؤرخ اليهودي
يوسيوس، الذي كتب في النصف الثاني من القرن الأول وبداية القرن
الثاني، وتلكه قصر اهتمامه على اليهود وتراثهم. وتعد الأجزاء الأخيرة من
كتابه «تراث اليهود» وكتاب «حرب اليهود» من المصادر التي تلقى ضوءًا
على العلاقة بين اليهود والروم وظروف فلسطين في العصر الإمبراطوري
الأول.

ديون كاسيوس:

وهو من مؤرخين القرن الثالث الميلادي، واستطاع أن يترقى في
مناصب الإدارة الرومانية، حتى ولى منصب القنصل مرتين وقد كتب
باللغة اليونانية، نظرا لأنه كان مواطنًا من مدينة نيقيا، في شمال غرب
آسيا الصغرى. وكان مؤرخًا أمنًا، أمضى عشر سنوات في القراءة،
واويني عشر سنة في كتابة تاريخه، الذي امتد من تأسيس روما، حتى عام
229 ميلادية. وقد اعتمد على جميع المؤرخين السابقين والنصوص،
والوثائق الرسمية، كما أن أعماله الإدارية، والمناصب التي تولاه،
ساعدته كثيرًا على أن يصل إلى هذه المعلومات مماثلة في نصوص المعاهدات
أو القوانين أو البيانات التي تصدر عن الأباطرة والحكام. ويكسب تاريخه
أهمية خاصة، كليا اقترب تاريخه من الفترة التي عاشها، وهي نهاية القرن
الثاني وبداية القرن الثالث، فكتابته عن هذه الحقبة، تدل على معرفة
جيدة بالنظام في الإمبراطورية. ورغم بعده عن العصور الأولى من
الإمبراطورية، فإن كتابه تعتبر من أهم ما غلبت وآثرا، كما أننا حاول
أن يستمد معلوماته من مصادر معاصرة، وأرائنا استخدام تقارير أو
بيانات كتبها أفراد شاركوا في الأحداث ذاتها، ويكتشف عن هذه الحقيقة
ما بلدته عن الإمبراطور أغسطس حينها واجه مجلس السنوات سنة
274 ق م بتنزلة عن جميع سلطاته، وردود فعال أعضاء السنوات لهذا
الاعلان. فكل من يقرأ هذا الجزء من تاريخه، يشعر أن نقله عن أحد
أعضاء السنوات الذي شهد هذا الاجتماع. فهو ينفع بالحيوية ويسج
سير الجلسة خطوة خطوة، وانقسام العواطف بين الأعضاء وما شعروا به من
خوف أو أمل. من هذا المثال تضح قدرة دول كاسپيوس على تقد المصاد والانتقاء
أقربها إلى الأحداث. ولكن يجب أن نتباهي دائما أنه في إتقانه، لم يكن محايدا كل
المحايدة، لأنه كان مثل غيره من اشرثنا إليهم من المؤرخين متحيزا
للسنوات ومعاديا للإمبراطورية. ورغم أنه يكتب باعتدال شديد،
وبوضوحية ظاهرة، إلا أن عدم ثقته في الإمبراطور، وتشكيكه دائما في
نواياه، يضح من استخدامه للائتلاف كقوله عن أغسطس في ذلك الموقف
الذي أشرتنا إليه والذي أعلن فيه مشاركة السنوات له في إدارة الولايات
على أن يأخذ السنوات الولايات الأممية ويتخذ أغسطس الولايات التي بها
جيوش عربية، يقول: "وكان أبلغوا هو أنه يجب أن يبني السنوات
ثم إن أفضل أقاليم الإمبراطورية. دون خوف أو عناء، بينما يتحمل هو
( أي الإمبراطور) المخاطر والأعباء؛ أما هذين الحقيقين فهو عن طريق
هذه الخطة، سبيل السنوات غير مسلح وغير مهيبا لقتال، وبقى هو
وحده صاحب الجيوش والسلاح. فاستخدامه الفائزة مثل "أدعائه،
و هذين الحقيقين، تكشف عن نظرية الشك والارتباط التي كان يرى بها
شخصية أغسطس. ومن سوء الخطة أن هذا الكتاب القيم، لم يصل لنا
كاملًا، ولكن الأجزاء التي وصلت إلينا تعتبر من أهم ما تمتلك في تاريخ
الإمبراطورية.

36
أميانوس ماركليتوس:

هو مواطن من مدينة انطاكية في سوريا وكان من تولوا بعض المناصب العسكرية في الجبهة الشرقية (363-373) ونظرًا لأن انطاكية كانت مركزًا ثقافياً كبيرًا، فقد استطاع أن يحصل على اعتراف في القرن الرابع الميلادي. كأsth أن عاش في فترة التحول الكبير من الوثنية إلى المسيحية وظل هو على وثنيته. ومن سوء الحظ، أن الجزء من تاريخه الذي وصلنا يؤرخ للفترة فيما بين 351-378، ولا بد أنه بدأ قبل ذلك بكثير. ويمتاز أميانوس بملكه تاريخية فذة، ومقدرة على النقد والتحليل وهو يعتبر من غير شك من أعظم من كتب التاريخ في العالم القديم. كله ويكي ديلا على ذلك أنه حين كتب تاريخ الامبراطور يوليوس المذكور عن المسيحية، ورغم اعجاب الشديد بشخصية هذا الوثني الحاكم في عصر سادته فيه المسيحية، أنه كتب الدقة والأمانة ووجهه إلى بطلة النقد حين لزم النقد. ورغم أنه من مدينة انطاكية الخاضعة للثقافة اليونانية، إلا أنه كتب باللغة اللاتينية بأسلوب علمي بعيد عن زخرف اللغة أو العناية بالبلاغة.

تمتقص على هذا القدر من الكتابات التاريخية، وهناك غيرها كثيرة، وخاصة بالنسبة للفترة المتأخرة من الامبراطورية الرومانية، حين أصبحت المسيحية دينًا رسميًا للدولة، فنشأ جيل من المؤرخين يكتبون من وجهة النظر المسيحية، وتسجيل التاريخ الكنيسة يتألي على رأسهم بوسيبيوس، من قيصرية بفلسطين، ومن بعده قائمة كبيرة من مؤرخين الكنيسة. ولكن هذا يدخلنا في مجال آخر غير المجال الذي نلتزم به في هذه الدراسة.

الوثائق:

تعتبر الامبراطورية الرومانية من أغرب حقب التاريخ القديم كـ
المصادر الوثائقية وينقسم بها النقوش الكتابية، وأوراق البردى والعربية.
وقد توفر كثير من العناصر على الاهتمام بها وجمعها ودراسة وذيل ما لها
من أهمية بالغة فالوثائق تختلف عن كتب التاريخ، فهي لا تتناسب وجهة
نظر أو وصف أو دراسة للتاريخ، ولكنها تقدم للباحث المادة الخام، مثل;
نصوص المعاهدات، والقوانين، والبيانات الرسمية، أو الخطابات
الشخصية والرسمية أو عقود المعاملات المختلفة من بيع وشراء وبيع
وممتزج أو حتى بطاقة دعوة إلى عشاء أو حضور حفل زفاف. فهذتهم
أنواع الوثائق التي نجدنا ممثلة في النقوش التي تكتبت على المباني العامة
عادة أو على أوراق البردى القديم أو غير ذلك من المواد. أما بالنسبة
للنقوش الكتابية، فهي منتشرة وشيئية في كل أرجاء الإمبراطورية
الرومانية، ولذلك يتم تجميعها حسب الأقاليم وتزيدها حسب العصور.
ويجب لهذه الصفة تعتبر أكثر شمولًا، وأكثر تغييرًا للإمبراطورية، مكانًا
وكلًا. أما عن أهمية بعض النقوش فيجري أن نشير إلى ما اقتضاه هذا
الفصل وهو أكثر افتقارًا، الذي يتضمن سجلاً، كتبه أغسطس بنفسه عن
أعماله. ويشتمل على خمسة وثلاثين فقرة ويعتبر أهم مصدر لأعمال
أغسطس كلاً من بينًا. والنقوش تتضمن عادة، الوثائق ذات الطابع
العام التي يراد اعلامها للناس، فكثر من القرارات الرسمية والقوانين كان
يلزم كتابتها على جدران المباني أو في المباني العامة لطلع عليها الناس
جميعًا، فهذة كانت طريق الاعلان الرسمية في العالم القديم. ومن
البيانات الهامة التي عثر عليها مكتوبة على أحد المعابد في الواجهة الخارجية
بمصر، بيان الوالي «تيبريوس بوليوبس النلس»، وقد عثر عليه كاملا
تقريباً وقع في أكثر من سبعين سنة، ويتمثل تجاوزًا من هذا الوالي في سنة
69 ميلادية، للاصلاح الحالة الاقتصادية في مصر، وهو لهذه الصفة،
يكتسب أهمية خاصة، لأنها نجد فيه أشارت سياسية جديدة وثبت
موضوع التنفيذ عندما تولى العرش في روما الإمبراطور «فسباسيان»، وبدأ

28
بذلك أسرة جديدة بدلاً من الأسرة التي أسسها أغسطس. وصدر أئلاك أفراد الأسرة السابقين، وحارب طبقة كبار الملك وشمع أصحاب الملكية الصغرى والمتوسطة وتحمل هذه السياسة الجديدة في هذا النشاط الذي سجله هذا الوالي الروماني على مصر.

ولكن يؤخذ على النقوش أنها لا تتضمن عادة الوثائق الشخصية أو الرسمية اليومية، ومن حسن الحظ أن أوراق البردي تأتي لنشأ هذا العيب، فهي في الواقع تمت كل ما يكتب على الورق وتعتبر أهم مصداها تمتلكه في دراسة الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والادارية. وفي الواقع أدرك الدارسين الحديثين قيمة الوثائق البردية وترفزا على تجميعها ودراساتها وأصبح هناك علم جديد يختص فيه العلاة، يسمى علم Papyrology، ويؤخذ على الوثائق البردية، عدم إنشارها. فالنقوش لا تودع مادة ضعيفة، تتعرض للتلف ولملاك بسرعة، لم يقدر لها البقاء في معظم أرجاء الامبراطورية، ويبقى فقط القدر الأكبر منها في أرض مصر الوسطى والعليا حيث حافظ المناخ الجاف والجو الصحراوي، على صبالتها في باطن الأرض. كما عثر أيضاً على كميات قليلة جداً خارج مصر في فلسطين وفي إيطاليا في ظروف استثنائية. وعلى هذا، نجد أن أوراق البردي مختلف عن النقوش، فإذا كانت النقوش تمتلك معظم أقاليم الامبراطورية، فإن البردي، لا يكاد يمتل إلا مصر فقط. ولذلك تعتبر مصر أصلح مثال في التاريخ القديم كله لدراسة Драмاتguards إجتماعية تعتمد على مصادر معاصرة وباعة كبيرة جداً، فاصبح من الممكن تبع ظروف المجتمع والاقتصاد والحياة اليومية من مصر إلى مصر وبدقة عالية. ونتمنى أن نتعرف على الأفراد وأحوالهم العائلية، وإحنا يمكننا أن نلاحظ آثار الأحداث العامة على الأفراد وهو ما لا يمكن عمله بالنسبة لمعظم الشعوب الأخرى. ولا ينبغي أن نبتدر إلى الذهن أن نتائج الدراسات البردية، تقتصر دراستها على مصر فحسب ولكن كثيراً من
نتائج هذه الدراسات، بل ويستند إلى ما يحدث في الولايات الأخرى من الإمبراطورية، وخاصة إذا كان الأمر يتعلق بظاهرة عامة أو تطبيق نظام تضحية له سائر الولايات.

يمكننا أن نضيف كلمة أخرى عن العملية الرومانية، فقد امكن العثور على عشرات الآلاف من العملة في جميع الولايات ومن جميع العصور. ولن يتفق ما للعملة من أهمية بالغة في اقتصاد أي دولة، فإذا ما ادركنا أن نظام العملة القديمة، كان يقوم على أساس استخدام المعادن كالذهب والفضة والنحاس فقط، فإن درجة تقبع المعدن المستخدم في العملية، يدل على الحالة الاقتصادية فيها. فتساعد مثلا في عصور الرخاء والسلام الأول أن العملية الرومانية القديمة كانت على درجة عالية من النقاء، وحين ساءت الأحوال وتعاقب الأزمات، تنافست نسبة الفضة في العملية. ويعكس هذا على الأسعار ويجوز التضخم المالي وترتفع الأسعار ارتفاعا كبيرا حسب حدة الأزمة، حتى إذا كان القرن الثالث والرابع وجدنا تغيراً يدخل على نظام العملة، فتكاد العملة القديمة تخفي وتسود العملة البرونزية وتحتاج العملة البرونزية قيمة العملة القديمة. وكأن من الطبيعي أن لا تتمتع هذه العملة البرونزية بثقة السوق وتضطرب الأسعار إضطراباً شديداً. وهنا تدخل الدولة لمحاولة الإصلاح بإصدار عملة ذهبية، ولكن العملة الذهبية الجديدة لا تستخدم في الحياة اليومية، وتظل قاصرة على المعاملات الكبرى، أو عند دفع الضرائب للدولة. وفي بعض الولايات لا تتوفر الذهب الكافي، فتُدفع الضرائب بعياً، وفي مثل هذه الظروف، يعود نظام المقايضة إلى السيف.

هذا هي أهم ما لدينا من مصادر لدراسة تاريخ الإمبراطورية الرومانية، وهي مصادر كثيرة غنية، بل لعلها أكثر وفرة وقيمة من مصادر كثير من الدول والشعوب في العصور القديمة كلهما. ولم يكن غريبا أن أدرك أهميتها كثير من كبار المؤرخين الحديثين وتوفروا على دراستها. 30
وأخضعها لمنهج علمي راقي وكتب عن الإمبراطورية الرومانية أرقى دراسات في التاريخ وقد بدأ هذا الاهتمام منذ القرن الثامن عشر في أوروبا على يد واحد من أعظم المؤرخين وهو، مارك دارد جيير، صاحب الكتاب المحالد وضمناحل وسقوط الإمبراطورية الرومانية. وقد حاول فيه بذكاء نادر أن يملل العوامل والأسباب التي أدت إلى سقوط أكبر الإمبراطورية عرفها التاريخ. وفي القرن التاسع عشر وجدنا بيودور موسمن، الذي سبقت الإشارة إليه، يهتم بالقانون وبالنظم السياسية الرومانية. حتى إذا كان القرن العشرين وكان د. م. رستوفتزه وجدنا المؤرخ العظيم د. رستوفتزه، يمثل أرقى محاولة في دراسة التاريخ القديم من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية. وهذا الكتاب هما، التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للإمبراطورية الرومانية، ويتناول فيه على العصر الأول من الجمهورية أعلى القرن الثالث الميلادي والكتاب الثاني هو، التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للعصر الهلنستي. وقد أفاد رستوفتزه في هذه العملية العظمى من نتاج جميع الدراسات الحديثة سواء بالنسبة لتحقيق المخططات القديمة والتقويض والبرد والعملة والخسائر الأثرية حتى لقد قيل أنه كان أكثر من أحادي التاريخ القديم عالمًا. واستخدم إلى جانب النصوص التاريخية، الأعمال الفنية القديمة، من لوحات وتماثيل وعمائر، في إظهار روح العصر وأحواله الاجتماعية والاقتصادية وواجه بعده مؤرخ قد يصدر للعصر الثاني من الإمبراطورية وهي الفترة التي تبدأ من دقلديانوس حتى جستيان، وتتصدى به المؤرخ وجوزات، وكتابه، تاريخ العصر الثاني للإمبراطورية الرومانية، يعمر منهما لعمل رستوفتزه الذي سبقت الإشارة إليه، وإذا كان قد تناول مثله المجال الاجتماعي والاقتصادي، فقد أضاف مجالين هامين آخرين وهم الناحيتين المالية.
والادارية. ويعتبر جونز أرقي من مارس المنهج العلمي في دراسة تاريخ الإمبراطورية الرومانية ولغبة الطابع العلمي على كتابته كثيراً ما تتميز بشيء من الجداف وال الموضوعية الصارمة. وهو بهذا العمل يكون قد أكمل العمل الذي بدأه جيروم وكأنه وضع الحجر الأخير في بناء علمي ساهمت فيه أجيال متعاقبة من المؤرخين على مدى قرون من الزمان.
الفصل الثاني

العواقل التي أدّت إلى سقوط الجمهورية

حين قامت الجمهورية الرومانية لأول مرة في سنة 509 ق م، بعد القضاء على النظام الملكي، كانت روما مدينة صغيرة في وسط شبه الجزيرة الإيطالية وربما لم يزيد عدد سكانها على بضع آلاف، وكانت واحدة من عدد من المدن اللاتينية الشهيرة بما في أقليم "لاتيوم". وربما كانت في هذه المرحلة المبكرة من تاريخها لا تزال خاضعة لปกครอง نظام قبله بسيط، فيبدو أن سكانها كانوا يتولون إلى ثلاث أو أربع قبائل فقط وخير دليل على ذلك وجود تنظيم قبلية عندهم تطور وعرف في العصر الجمهوري باسم "الجمعية القبلية" (Comitia Tributa). وعلى عادة المجتمعات القبلية، يوجد فيها عادة حكم رؤساء العشائر الكبيرة وآبائهم، أو ما أُطلق عليه تسميته عادة "الشيوخة القبلية". وقد وجد هذا النظام في روما كذلك وهو ما عرف اصطلاحا باسم مجلس "الساناتوس" ومعناه الحرفي "مجلس الشيوخ"، وكان يضم أشراف الأمر الكبيرة وآبائهم. وكان النظيف المستخدم بالنسبة لأعضاء هذا المجلس هو "الآباء" (Patres) ولم يسموا عادة بلقب "الشيوخ". وبحكم انتمائهم لآباء المجتمع ورؤساء بيوته وعشائره كانوا هم أيضا أولي الأمر فيه وبدعمهم جميع مقاليد الأموات، وهكذا يمكن ان يقال أن المجتمع الجمهوري الأول في روما قام على اساس
سيادة الأشراف فيه، مثلاً في السناتوس. وحين وضعوا نظاما جمهوريا بعد طرد الملك، جاءوا هذا النظام في ايدي الأشراف ابتداءاً، ورغم انهم اُوجدوا مناصب للحكم يتم توليتها عن طريق الانتخابات الشعبي وفترة محدودة لا تزيد عن سنة، وهي المناصب المعروفة في الدستور الروماني، منصب القنصل و{"البريتور" (للقضاء) ومنصب "الكونسور" (الرقم) والأديال، (يشبه عمل المحاسب) و{"الكونسور" (للشؤون المالية) ولكن التشريع وتولي هذه المناصب جيهم، كان قاصرا على أعضاء الأسر الشرفية، أو بعبارة أخرى، أعضاء الأسر التي يتنتمي إليها "الأباإ" من أعضاء السناتوس.

وهكذا وجد انقسام طبيعي في المجتمع والحياة السياسية الرومانية، مع قيم الجمهورية. ومع تطور الأحداث ونمو المدينة، حدث صراع بين هاتين الطبقتين، طبقة الأشراف، صاحبة السيادة والمثل مثلا في قرية هيئة تشريعية وهو السناتوس، وبين طبقة العامة الذين كانوا لا يتنمو الى أسر "الأباء" وهم الكثرة الغالبة من الأهالي ولكن يجتمعون في شكل جمعية عمومية وهي الجمعية القبلية. واستغرق الصراع بين الطبقات في روما أكثر من قرنين من الزمان، كما هو معروف في التاريخ فيا بين سنة 494-287 ق.م. ودار الصراع الطبيعي على مراحل، كان الهدف المبكر هو تحقيق نوع من الحماية وزيادة الضمانات لطبقة العامة ضد بطش الأشراف. ثم تجاوز بعد ذلك إلى تحقيق مزيد من المساواة الاجتماعية والسياسية عن طريق تعديل قوانين الدولة، بحيث يمكن ان يقال انها مع نهاية فترة الصراع في سنة 287، أصبح روما دستور ديقاتي فاصبح للعامة قبل الأشراف الحق في ان يختاروا عنهم قنصلاً به معين اُصبح قنصل عن العامة، وفصل عن الأشراف، وهو ما يقابل منصب رئيس الجمهورية في النظام الحديثة. كما أصبح أيضاً للجمعية القبلية حق اصدار القوانين على قدم المساواة أيضا مع مجلس السناتوس. وفي مجال التقارب الاقتصادي بين
الطبقات، صدر قانون في سنة 367 ق.م. يحدد مساحة الأرض التي يجوز لأي مواطن روماني أن يستمرها لنفسه من الأراضي العامة التي استولت عليها روما في توسعاتها العسكرية المختلفة. من هذه الإنجازات، نرى أنقوانين الرومانية في نهاية الصراع الطبيعية سنة 287 ق.م. كانت تحقق قدرًا كبيرًا، من حيث المبدأ على الأقل، من التكافؤ الاجتماعي والسياسي لجميع المواطنين الرومان.

أما من حيث التطبيق العملي والممارسة الفعلية للسياسة والاقتصاد، فقد سارت الأمور على خلاف ذلك فإن استمرار الحروب التي خاضتها روما طيلة العصر الجمهوري، كانت تساعد الأشراف دائمًا على أن يظلوا في مركز القيادة، عسكريًا وبالتالي سياسيا. فحسب نظامهم القديم المعمول به، كانت جميع مناصب الحكم وعضوية السناتورس وقيادة الجيش غير مأجورة، لا يتقاضى صاحبها راتبًا عليها، بل كثيرا ما كان يتحمل أعباء مالية من إيراداته الخاص. وينبغي أن نذكر هنا أن مجموع المناصب السياسية كانت تسمى بالمناصب «الشرفية» (Cursus Honorum) في بداية العصر الجمهوري، لأنها كانت قاصرة على الأشراف ويغير أجر لذلك كان تولي هذه المناصب يستلزم مقدرة مادية ولا يستطيع الفقراء أن ينافسوا الأشراف الأثرياء في هذا المجال. ويزداد الأمر وضوحًا بالنسبة للوضع في الجيش الروماني. فلم يكن هناك جيش نظامي وإما جميع المواطنين من الذكور من سنة 18 إلى سن الشيخوخة، كانوا في وقت الحرب مطالبين بالخدمة العسكرية. وكان كل مواطن يسلح نفسه قدر استطاعته والأكثر فقراء أقل سلاحًا، والأكثر غنى، أفضل سلاحًا. ولذلك اقترنت الفروسية في الجيش عادة باللابة الكبرى، إذ كان الناس يقاتلون للحرب ورعايتها وما يلزم ذلك من سلاح كان لا يقتلك عليه إلا أصحاب الثروة واللابه. أما كبار الأثرياء، من آباء الأسر الكبرى، فكانت أعباؤهم أكثر من هذا كله فكان عليهم أن يساعدوا الدولة حين لا تكلف 35
الشروط البسيطة العادية المعمل بها في ذلك الوقت، على تحيين المدينة وبناء اسطولها. من هذا كله يتبع مدى الارتباط بين الوضع الاجتماعي والمادي للفرد وصالحيه لتولي مناصب الحكم والقيادة العسكرية.

لذلك لم يكن غريباً بعد انتهاء فترة الصراع بين الطبقات سنة 287 ق.م. وبعد أن استطاعت روما أن توجد إيطاليا ككلا تحت سيادتها ابتداء من غرب وروبيكون، Rubico في الشمال حتى اقصى طرف شبه الجزيرة جنوباً، وذلك بعد انتصاراتها على مدينة تارنتوم، 265 ق.م، لم يتمكن الرومان من تحقيق الديمقراطية السياسية التي كانوا قد توصلوا إلى مبادئها في اثناء فترة الصراع الطرقي كما بنى والسيب في ذلك ان روما على مدى قرن ونصف بعد ذلك دخلت في سلسلة من الحروب العالمية وراء حدود إيطاليا وإهمالها في هذه الفترة سلسلة الحروب البوتية ضد مدينة قرطاجة والتي انتهت باستمرار روما على جزيرة صقلية واسبانيا وشمال إفريقيا. وعند جانب هذه الحروب القطرانية في غرب البحر المتوسط، كانت روما تتحرك في شرق البحر المتوسط أيضاً وأخذت مقدونياً أولاً ثم جميع المدن اليونانية حتى شمل تفؤذها آسيا الصغرى في سنة 133 ق.م.

هذة الحروب الكبرى استلزمت تسخير كل طاقات الرومان من أجل الحرب وتحقيق الانتصارات، خاصة وإن هذه الانتصارات كانت تعود على روما بمزيد من الأرض والثروة. فكل انتصار كان يزيد شهية الطبقة الحاكمة في روما للتمتع نحو انتصار آخر. وكما بنى كانت القيادة في كل هذه الحروب، لطبقة السناتوس. وجدير بنا أن نذكر في هذه المناسبة أنه في أثناء الحرب البوتية الثانية التي شنها هانيلب، على روما وإيطاليا، فيها بين 212 - 202 ق.م، اتخذ السناتوس قراراً من أخر قراراته التاريخية وهو أنه لا يسمح لأي شخص من طبقة السناتوس ان يغادر الأرض الإيطالية طالما كان هانيلب موجوداً عليها بجنوده. هذا القرار ذو دلالة هامة جداً فهو من ناحية قرار وطني وانتخباً باسم الدفاع عن إيطاليا، ولكنه من ناحية
اخرى بدل على نفسية السناتوس وشعوره بالمسؤولية، فهو واحد المسؤول عن إيطاليا كلها. ومعنى القرار أن السناتوس مستعد بجميع إرادته أن يموتوا على الأرض الإيطالية حتى يغادروا العهد المحتل. ورغم الطابع السياسي والعسكري لهذا القرار الخطر، فقد كانت له أثار اقتصادية وهو أن عضوا السناتوس ارتبطت أقامتهم بالأرض الإيطالية ولم يخرجوا إلى الولايات التي فتحتها روما، وازداد حرص السناتوس على ملكية الأرض في إيطاليا، وحتى حين أصبح لروما ولايات أجنبية كان لأعضاء السناتوس اراضي فيها وكانوا يديرها عادة عن طريق وكلاء عبدهم. وهكذا لم يلف أعضا السناتوس الهجرة والإقامة خارج إيطاليا. ولذلك انسح المجال أمام طبقة جديدة نشطة افاقت من هذه الظروف، وهي الطبقة المتوسطة الرومانية التي عرفت اصطلاحا باسم "طبقة الفرسان", فهؤلاء سيطروا على الأعمال التجارية والنقل البحري بين إيطاليا والولايات. كما اشتعل كثير منهم في الولايات في عملية جباية الضرائب فيها، وهو عمل مربح عاد عليهم بالثروات التي استغلوا الأهلية واستنزفا موارد ثرواتهم.

اما طبقة العامة، فرغم اتساع ممتلكات روما وازدياد ثرواتها فلم يعد ذلك عليهم بدفع كبير، رغم أنهم حارموا وضحوا وانتصروا ولكن لم يمنعوا املاكهم كغيرهم من الأشخاص ولم ينكموا من المشاركة في أعمال التجارة أو جباية الضرائب أو غيرها من الأعمال المالية، لأن مكافأتهم على دورهم في الحرب كان مبلغها من المال لا يثبت أن يضخ في الزمن. كما أصابهم ضرر آخر نتيجة لهذه الحروب المستمرة، وهي أن بعضهم من كان لهم قطعة صغيرة من الأرض في إيطاليا، اضطر الي تركها واهملة زراعتها بسبب ظروف الحرب وحين يعود إليها كانت تحتاج إلى نفقات كبيرة لاستمرارها مرة ثانية، وخاصة بعد فترة الدمار والحروب التي حدثت أثناء حرب هنابيل التي دامت نحوًا من ستة عشر عاما متصلاً. لذلك
ففضل هؤلاء الأفراد من صغار الملوك ببعضهم للاشراف وخاصة في ظروف الغلابة التي كانت تحدث في أعقاب الحروب. كما أصاب هذه الطبقة الفقيرة من عامة الرومان خطرًا آخر نتيجة لانتصاراتهم المستمرة في حروبهم. وهي أنها جلبت لروما اعتيادًا كبيرًا جداً من الأسرى من الشعوب المفهورة، هؤلاء الأسرى، حسب التنظيم القديم، يتحولون إلى عبيد. وحسب القانون الروماني في ذلك الوقت، كان هؤلاء العبيد يصبحون ملكاً للدولة من الناحية النظرية على الأقل. أما من الناحية العملية فقد كانت الدولة أو السكان يبرزهم على الأسركبرة ليكونوا تحت اشرافهم ورعايتهم. ورحبت بهم هذه الأسر للاستمتاع بهم في زراعتهم مملكتاتهم التي ازدادت مساحتها في طول الإيطالية وعرضها. وكذلك نافس العبيد العمال الأحرار من المواطنين الرومان الذين كانوا يعملون بالأجر في الزراعة أو في الصناعة أو غيرها من الأعمال اليدوية. وتضح عن ذلك كله أن تعمل كثير من فقراء الرومان عن العمل، ولم يعد أمامهم إلا أحد امرئيماً ما يتشغيل بالجندية في حروب جديدة أو أن يتعايشوا ويعيشون عالة على الأسر الشريفة البسيطة. وكانت هذه الأسر ترحبد بهم ليفرزوا بأصواتهم في الانتخابات السياسية لأن الحياة السياسية للاشراف أصبحت، رغم أنها غير مأجورة، مصدراً كبيرًا للثروة. فعلى المعلوم أن من يصل إلى مناصب البريتوز والقنصل كان بعد انتهاء عام منصبه يعين في حكم الولايات وهذه تدر عليهم ثروة طائلة. وهكذا اشتدت المناقشة على الانتخابات وفسدت الحياة السياسية وازدادت الرشوة وشراء اصوات المواطنين. هذه هي الصورة التي ألّته إليها الحياة السياسية والاجتماعية في روما في سنة 133 ق.م.

ولكن يمكن أن ننظر إلى الموقف نظرة مختلفة، وهي أن الدستور الروماني الذي كانت لا تزال تعيش في ظله روما سنة 133 ق.م. كان دستوراً قديماً مضى عليه ما يقرب من أربعة قرون وكان قد وضع أصلاً 38
لمدينة صغيرة ذات طابع قبليًّا كما ذكروا من قبل. هذه المدينة الصغيرة تحولت فيها إلى 1332 ق.م. إلى دولة عامة تشمل شبه الجزيرة الإيطالية كلها وقائها من الغالية واسبانيا وشمال أفريقيا وصقلية واليونان وأسيا الصغرى. وكان من الطبيعي أن تثبت الأحداث عجز الدستور البدائي البسيط عن التحكم وتوجه سياسة هذه الدولة العالمية الكبرى، وما نتج عن تكوينها من مفاوضات ومناقضات في المجتمع وأصبحت الضغوط الاقتصادية والمصالح المادية أقوى من القانون. ولذا كله سنجد نظم الحياة السياسية وأسلوبها في المرحلة الأخيرة من الجمهورية (أي 1332-272 ق.م.) مختلفًا كل الاختلاف عما حدث في مرحلة الصراع بين الطبقات في بداية الجمهورية. في المرحلة الأولى كان الصراع يهدف إلى تعديل قانون أو إصدار قانون أو اكتساب حق في منصب أو في هيئة تشريعية. وكانت المصالح المرتبطة بالأفراد والطبقات لا تزال محدودة ولذلك أمكن الوصول إليها إلى التوفيق بين المصالح المختلفة وتحقيق الإصلاح عن طريق التشريع. أما في المرحلة الثانية، خلال القرن الأخير من الجمهورية فسنجد المصالح أشد تنافاً والصراع أكثر عمقًا والقانون عاجز عن مواجهة الواقع فرغم ظهور شخصيات على مسرح السياسة الرومانية يسعى إلى الإصلاح والتعب على التنافسات في المجتمع، إلا أن المصالح الشخصية حينا والمصالح الطبقية حينًا آخر، كانت لها دائماً الغلبة. ولذلك تغير محوّر الحياة السياسية بدلاً من محاولة تطبيق القانون أو تعديله من أجل الإصلاح، إلى الوصول إلى السلطة وفرض الإصلاح بالقوة. ولأول مرة في تاريخ الجمهورية الرومانية، استخدم العنف والقتل في حل الاختلافات السياسية. واتخذت الحياة السياسية مظهر الصراع الحزبي الذي يقوم على أساس طبقي غلب عليه التعبس والهدوء وتطور تدريجيًا إلى حرب أهلية قضت على النظام الجمهوري في روما. وأبتدأت هذه المرحلة الحاسمة في سنة 1332 ق.م. حين تصدى
للإصلاح آخوان هما "تيبيريوس جراكونوس"، "جابوس جراكونوس"، والذان توليا منصب الترفيون الشعبي Tribunus Plebis بضرورة الإصلاح وتحسين الأحوال بالنسبة للقضاء العام. وردت تني بسبب حقيقي ليسادة الحياة السياسية، هو الناحية الاقتصادية وبناء عدد كبير من العامة معدم ومتعلتين عن العمل، فعمل على إعادة تطبيق القانون القديم الذي كان قد صدر في بعض مراحل الصراع الأولى سنة 367 ق.م. والذي يقضي بتحديد مساحة الأرض التي في حوزة الأثرياء من الأراضي العامة كما سابق أن ذكرنا، مع إدخال تعديلات بسيطة على سبيل التيسير لهذا القانون، وفي مصلحة الأثرياء (على أساس أن يكون للفرد 500 يوجوس، ولكن من بين من ابنته 250). رغم أن مثل هذا القانون أمكن صدره في فترة الصراع الأول عن طريق السناتور، نجد أن السناتور يرفضه ويقاومه في سنة 133 ق.م. فتتجه تيبيريوس إلى الجمعية القلبية لإصدار القانون. وهكذا وجدنا ثانياً في التشريع في روما فكان باستطاعة السناتور أن يشرع، كما كان في استطاعة الجمعية القلبية أن تشرع في الأخرى. ومن الواضح أن تشريعات هاتين الهيئتين كانت متعارضة وتتناقض، فالسناتور يشرع لصالح الأشراف، والجمعية القلبية تشرع لصالح طبقتها الشعبية، ووضح أن الدولة لا تستطيع أن تستمر على هذا النحو. وحين حاول تيبيريوس أن يعيد ترشيح نفسه للمنصب ذاته "الترفيون الشعبي"، سنة ثانية، وهو ما لم يحدث من قبل في تاريخ الجمهوريات، كان ذلك خلافاً للأساليب الدستورية التي كانت تمارسها الجمهوريات منذ نشأتها. وقد خلف عنف حول قانونية هذا الإجراء بين تيبيريوس والسناتور، ولما أصر تيبيريوس على موقفه وأيده العامة، لم يجد السناتور بدأ من استخدام العنف، وتصدى له في يوم الانتخابات وقتلها. كانت هذه هي أول حادثة عنف في الحياة السياسية الرومانية منذ قيام 40
الجمهورية، ولأول مرة تسال الدماء بسبب الاختلاف على المواقف السياسية. وبعد ذلك ستتكرر حوادث القتل وزياد الدينffen طيلة القرن الأخير من الجمهورية. فسنجد أخاء جايوس يتولى الرئاسة الشعبية في سنة ٨٤ ق.م. وينجح فيها اخوته وهو تولي المنصب مرتين متتاليين وفي المرة الثالثة يفشل في الانتخابات ويخارجه السناتورون ويمكن من قتله هو وثلاثة آلاف من أعيانه.

هكذا بدأ العنف في الحياة السياسية مع البدء في غيابه الدستور وكتاب عن متطلبات الدولة ومسؤولياتها. وسوف تكرر هذه الظاهرة بطريقة أخرى، في مرحلة لاحقة بعد ذلك فيما بين ٦٧ - ١٠٠ ق.م. حين يصدى للحياة السياسية، قائد عسكري يسمى ماريوس، فنظام لنفوذه العسكري وتعرض روما لمخاطر أجنبية، قبل السناتورون إعادة تشريفه لنصب القنصلية خمس سنوات متصلة، وذلك بالرغم من أنه كان من طبقة الفرسان الجديدة وكانت ميل إلى مناصرة العامة. ولكن نظرا لعدم تطرفه السياسي وانتزاعه بين الطباقين، كان السناتورون يقبل بقاءه في السلطة بسبب تفوقه العسكري. وماهياً من أمر، فإن تجربة ماريوس العسكرية والسياسية، تجربة جديدة في تاريخ روما، أي تسبق أن تولي شخص القنصلية مرتين متتاليين مهما كانت مواهبه ومهاته كانت المخاطر، حتى في فترة حروب هانيبيل، وذلك لأن الانقسام الطبيقي لم يكن قد بلغ ما بلغ من الخدود في القرن الأخير. أما الآن فكان من العسير أن تتفق الطباقات على شخص واحد، ومن ثم كان التمسك بشخصية ماريوس المبقولة لدى الطرفين. هناك نتيجة أخرى لتجربة ماريوس، فنظام لأن حروبه استمرت خمس سنوات متصلة، خارج إيطاليا في بلاد الغالمة، فقد استطاع أن يصبح لأول مرة جيشا نظاميا تقوم الدولة بتسليحه ويكون ولاة جنوده لقائدهم. فكان الجنود يعدون على قايدهم في الحصول على مكافآت سخية من أرض ومال بعد انتهاء
الحرب، وهكذا ارتبطت مصلحة الجنود بأفراد القواد وهذه ظاهرة جديدة سوف تزداد خطورة مع تطور الأحداث حين يتخذ القادة العسكريون من أمثال دوميسي وقىصر، جيوسا خاصة، بمعنى أن الجيوش سوف لا تصبح جيوش الوطن ولكن جيوش الأحزاب الطبقية التي تباع شخصية قوية.

وتعم ظاهرة أخرى أخذت تتفاعل وتزيد الموقف تعقيدا في تلك المرحلة أيضا، ونقصد بها حلفاء روما من الإيطاليين، فكان أهل المدن الإيطالية الذين أخضعتهم روما في بداية تاريخها الجمهوري وفرضت عليهم التحالف معها وتقديم الجنود والсыر والمساعدات المختلفة في وقت الحرب، بدأوا يضيفون بوضعهم وخصوصهم لشعب روما، وازداد الموقف تعقيدا حينها حدث انسياج داخل حزب الشعبيين في روما فوجدنا بعض زعمائهم المتطرفين يميلون إلى إنصاف الخلفاء الإيطاليين بمنح المواطنة الرومانية؛ ومثل هذا الموقف كان يحقق هدفين لروما في وقت واحد، الأول هو إرضاء الإيطاليين بأن يصبحوا مواطنين رومان وسما بعض الإمتيازات الرومانية وأهمها عطاءات الجنود، والثاني أن تكتسب روما مزيدا من الجنود في الفرق الرومانية و بذلك تزداد قوتها العسكرية التي كانت في حاجة مستمرة إليها للدفاع عن الإمبراطورية واستناد الأمان في الولايات. ورغم ذلك فإن المسلمين و كثير من الشعبيين أنفسهم يعارضون مثل هذا خلل، يدعوه الحفاظ على نقاء الدم الروماني، أو الاستثناء بأكبر قدر من مكاسب الحرب. وبلغ الموقف حد الأزمة حين تعرض أحد زعماء العامة وسمى دروسوس، وكان ينادي منح المواطنة الرومانية للإيطاليين، للقتل بسبب موقفته رغم أنه كان يشترط منصب التربين الشعبي سنة 90 ق.م. نتيجة لهذا قام الإيطاليون بثورة عارمة تتحول إلى حرب ضد روما عرفت بحرب الجهوسة والتمكن روما من القضاء على هذه الثورة إلا بإعطائها الحيلة وقبول منح الإيطاليين
المواطنة كاملة، لأنهم لم يصبحوا أعضاء في مجلس السناتوس، كما قُد
 تسجيلهم ضمن القبائل الرومانية القديمة. واستمر الإيطاليون يشعرون
 أنهم مواطنين من الطبقة الثانية، وأن أهل روما هم أصحاب الشأن
 وأصحاب السيادة في الدولة. وسوف يصبح هذا الوضع تأثير كبير على
 السياسة الرومانية فيما بعد حين نجد يوليوس قيصر ومن بعده أغسطس
 يوجهان دعائيهما السياسية باسم الشعب الإيطالي كله، بينما يتمسك
 السناتوس بشعار شعب روما فقط. وسوف لا يحرص الإيطاليون على
 النصيرو بالدستور الروماني، ويفضلون قيام الحكم المطلق الذي يغيب
 الرومان والإيطاليين لحكم واحد. ومعنى هذا، أن السياسة في المرحلة
 القادمة سوف تقوم على أساس الصراع بين المحافظين على النظام
 الجمهوري عملا في سيادة شعب روما، وبين الداعين لإقامة الحكم المطلق
 والمحافظة على وحدة الشعب الإيطالية.

وسوف نجد الصراع في ظل هذا التصور الجديد يقترب بالعنف
 الشديد أيضا، ويتضح هذا في الدور الذي قام به سولا، الذي
 تزعم حزب السناتوس وأراد أن يقر سلطاتها بقوة السلاح. وكان قد عين
 قائدًا للجيوش الرومانية ضد أحد الأمراء الثانيين في آسيا الصغرى,
 وحين ناآكه حقه في القيادة، الشعبون، لم يتردد في أن يقود جيشه
 ويقتحم روما عسكريا وأن يشن حربا شعويا على خصومه وأعمال فيهم
 القتل والتكيل وهو ما لم يحدث في تاريخ روما من قبل. وبعد أن أقر حقه
 بالقوة على هذا النحو، مضى إلى حربه في آسيا الصغرى. وأثناء غيشه،
 حاول الشعبون الإنتقام مما حدث لهم، فجمعوا صفوفهم وشيروا حربا
 على السناتوس وأعضائه، مما لبث أن عاد سلا بجيشه، ودخل روما
 دخل الفتيان وأقام نفسه دكتورا وباقي من المنصب ستين في بين 82-80
 ق.م. وأعمال القتل والتكيل ومصادرة الأموال، وياتى أن خاصة
 آلاف يعبوا ضحية هذا الاضطهاد، وأصدر سلسلة من القوانين ألفًا بها

43
كثيرا من امتناعات العامة وتأكيد سلطة السناتورس. ما من شك أن تجربة سَلْحَا هذه، رغم أنها مبَدْعَوَ احتفالاً على الجمهورية، كانت خطوة في سبيل القضاء عليها، بسبب ما صاحبه من خلافات نص وروح الدستور الروماني، أوها دخوله روما دخول الغازي على رأس جيش روماني، والنظام ممارسه للسلطة الدكتاتورية سنتين متتاليين، مما أباح له حرية تغيير القوانين وإصدارها، عن غير طريق المجالس التشريعية. ونحن نعرف أن منصب الدكتاتور، حسب الدستور الروماني، كانت مدته ستة أشهر فقط ولم يحدث طيلة القرون الأربعة السابقة، منذ قيام الجمهورية، أن يبقى أحدا دكتاتورا أكثر من ستة أشهر.

هذه الأحداث كلهَا، تثبت بما لا يسع مجالاً للشك أن الدستور الروماني أصبه لا يطبيق، ورغم تمسك القادة الروماني دائماً بدعويا الحفاظ على القوانين، إلا أنهم حين وقعت القوانين في طريقهم، غيروا بما تحقق مصالحهم. والظاهرة الثانية، هي أن السناتورس والشعبين لا يبقون في حوار سياسي، وإنما يقومون خلافاتهم بقوة السلاح. وظاهرة ثالثة أخرى تضح هي ازدياد ظهور القادة العسكريين وتسلطهم على الحياة السياسية، كما رأينا في شخصيتي ماريوس وسَلْحَا.

ومع ذلك، فقد ظهر من بين السياسيين المدنيين من حاول الإصلاح في هذه المرحلة المضطربة، وهو بشيرون« Cicero» الخطيب الروماني المشهور. فرغم أنه من طبقة الفرسان أصلاً (ويدي الطبقة المتوسطة) إلا أنه استطاع أن يتخطى جانب السناتورس وأن يتوسط منصب القنصلية ستة财政部. وحاول أن يدخل على الدستور تعديلاً جديداً عن Concordia Ordinum، يهدف إلى عدم التفوق بين الطبقات، طريق أن تتوصل السلطة التنفيذية العناصر المتاحة من السناتورس والفرسان. وهذه محاولة بلا شك للتوفيق بين هاتين الطبقتين ضد طبقة الشعبين. ورغم مهارة بشيرون الخطابية وقوة شخصيته، فلم تزد دعوته
أن تكون صحيحة في واد، لأنها يدعو إلى استخدام الأساليب السياسية في وقت كانت تقرر فيه قضايا السياسة الجيوش العسكرية.
في هذا الوقت ظهر على مسرح الحياة السياسية الرومانية شخصيتان خطرتان وهما: بومبيوس، ووليوس قيصر. اللذان سيقرر على أيديهما مصير الجمهورية النهائي.
الثاني:

سقوط الجمهورية

بومبيوس وبوليوس قيصر:

تمثل المرحلة الأخيرة من تاريخ الجمهورية في هذين القائدين Cn. Pompeius والсыر، وهما بومبيوس، والсыر. وكلاهما ينحدر من أثنيان من أعرق الأسر الرومانية. Julius Caesar.

أما في مجال السياسة فكان بومبيوس أكثر ميلاً واسحاً تعاوناً مع السناتوس، في حين كان قيصر متممضاً تضامناً مطلقاً منذ صباه البكر مع حزب الشعب، وكان أول ظهور بومبيوس في عالم السياسة أثناء حكم سلا الذي منحه لقب ماجنوس أي العظيم، وامتياز موكب النصر مكافأة له على انتصاراته على أتباع ماريوس في صقلية وأفريقيا في سنة 69 ق.م. وهكذا بعد موت سلا أصبح السناتوس يتطلع لبومبيوس باعتباره خليفه وقائدهم الفضل. وجين قام صراع بين السناتوس والشعب، كلف بومبيوس بالقضاء على المتمردين الشعب، الذين احتاروا في أنحاء إيطاليا وأسبانيا (76–71 ق.م.). وبعد عودته إلى روما رشح نفسه للمناصبة في سنة 70 ق.م. رغم صغر سنه عن السن القانونية، ورغم تردد السناتوس في مناصبته، ولكنه تعاون مع بعض العناصر الشعبية وعملوا معاً على نقض دستور سلا الرجعي. وبعد
انتهاء فنصلته لم يغادر بومبيوس روما، وأقام بترقب الفرص ليتولى قيادة عسكرية، ترضي غروه وطموحه، وسرعان ما سنحت الفرصة حين نشطت عصابات القراصنة في شرق البحر المتوسط، وتعطلت الملاحة فيه Imperium. فصدر قانون سنة 67 ق. يمنح بومبيوس سلطاناً مطلقاً على جميع سواحل البحر المتوسط لمدة ثلاث سنوات وهو Infinitum سلطان لم يسبق أن تمتح به قائد روماني من قبل ويعتبر سابقة لسلطة الإمبراطور الروماني فيها بعد. ولما كان بومبيوس قد تمكّن من القضاء على القراصنة في ثلاثة أشهر، صدر قانون آخر ليكلمه في سنة 66 ق.م. بالتوجه إلى آسيا الصغرى للقضاء على فتنة فيها، قضى عليها، وقاد جيوشه الرومانية دون تكليف من السناتور، واستولى على سوريا وفلسطين سنة 64 ق.م. رغم انتصارات بومبيوس العظيمة، فإنه أثار شكوك السناتور نحوه لأنه قاد الجيوش الرومانية، وراء الحدود دون وجه حق. لذلك حين عاد إلى روما لم يعترف السناتور بفتوحه في سوريا وفي هذا الموقف التقى السياسي الأخر الذي كان يشق طريقه إلى المجد وهو يوليوس قيصر.
الانفجاع الثلاثي الأول

عودة بوميروس:

أثناء غياب بوميروس في الشرق ظهر في الميدان السياسي في روما قادة جدد، كما سبق أن ذكرنا من أشبال ششرون وقيصر وكراسوس. كما أن علاقات السناتوس بالشعبين كانت قد ساءت جدا بسبب فشل الأساليب الدستورية العادية لإقرار مشاكل السياسة. لذلك اخذ كل شخص في روما يرغب باستماع بلغ عودة بوميروس الذي وصل برنديزي في آخر عام 67 ق.م. ويبينا ادعاء كل من الأشراف والشعبين معاً خشي بعض الناس أن يدخل بوميروس بجيشه وأن يفرض نفسه دكتاتوراً كأ فعلى سلا من قبل في 2-81 ق.م. ولكن بوميروس ظهر بظهير دستوري وسرح جنوده في برنديزي ودخل روما كمواطن عادي، ومن أول مرة قابل فيها السناتوس تحدث إليهم في شيء كثير من المجاملة والولاء. ولكن السناتوس: أساء التصرف حيال بوميروس، ولعل خوف السناتوس من مطامع بوميروس هو الذي أفسد عليهم التفكير السليم، وضعيع عليهم فرصة اكتساب بوميروس جانبيهم. فرغم أنهم منحوه موكب النصر الذي يستحقه على انتصاراته العسكرية، وكذلك صرحوا له يمنح سفحه، إلا أن السناتوس ماتل كثراً في إقرار أعمال بوميروس في
الشرق، ورفض أيضاً طلبه من الأراضي حتى يوزعها على جنوده. أمام موقف الستاتوس هذا لم يحاول بومبيوس أن ينفذ رغباته بالقوة، وإذا أثار الانتظار.

الاتفاق الثلاثي الأول:

هذا هو الموقف الذي تنبأ بعد عودة بومبيوس والذي وجده قصير عندما عاد من أسبانيا سنة 90 ق.م. ليرجح نفسه للإقصاء للعام التالي 91 ق.م. ووقعت منه الستاتوس موقفاً شبيهاً بوقتته من بومبيوس أو أسوأ. في هذه الفترة رفض أن يمنحه موكب النصر على انتصاراته البسيطة في أسبانيا، رفض ذلك توافع لانتصاره في انتخابات القنسوية مع الستاتوس قرارًا غريباً بجعل فاصل عام 91 ق.م. يبقى بعد عام حكمهم في إيطاليا بعد من أن يتولوا حكم الولايات في الخارج وذلك للإشراف على الغابات والمزروعات. وهو منصب إداري تأهله. هذا القرار الغريب كان بمثابة إعلان الحرب على بومبيوس قصير، هذا الموقف من مجلس الستاتوس خلق الجو المناسب لكي يتفق عليه أقوى وأخطر شخصيتين في روما هما بومبيوس وقسيس. خاصة حين تعرف شخصية قيصر العنيفة الديناميكية التي لا تستثني أمام الهجمات، وإذا ترد الاعتداء وترده بسرعة.

درك قصير بعقله اللطيف أن تلك فرصة نادرة ليتغلب على الستاتوس فاتصل بومبيوس للعمل سويًا على أن يعين قيصر على تحقيق مطالبه في إقرار عماله في الشرق ومنح الأراضي لجندته. بعد أن يتولى قيصر التشكيل القنصلي. فتبنى بومبيوس، وكذلك رأى قيصر أن يستعين بحليفه القرم. كرواسوس لبدء بالمال والفير والذي استجاب بسرعة ليحقق مأربًا له أيضًا. وحاول قيصر أن يسعين أيضًا بخطاب روما الأكبر شهرون الذي كان رجلا دستورياً ملخصاً للجمهورية ويترك الأعمال غير الدستورية التي قد يتورط بها مع قيصر ولها رفض.

وهكذا على أي حال تم هذا الاتفاق الذي يسمى الاتفاق الثلاثي.

50
الأول بين بومبيوس ذي المجد الحربي وكراوسوس ذي الثراء العريق وقيصر
ذي العقل المدبب والطقة التي لا تنفذ من العمل وصاحب المكانة العليا بين
الشعوب.

فصلية قصير:

حسب الاتفاق الذي تم بين الرجال الثلاثة انتخب قصير قنصلاً
لعام 59 ق.م. فكانا كراوسوس بأن أعلن تنازل الدولة عن ثلث الضرائب
المعتقد عليها لولاية آل مت. ولكن حين حاول تنفيذ وعده مع بومبيوس فقيل
بعارضته عنفية من السناتوس. رفض السناتوس إقرار قانون توزيع الأراضي
على جنود بومبيوس. بعد ذلك جاء قصير إلى الجمعية القبلية، ولم يحاول
حزب السناتوس تعطيله هناك بكل ما لديهم من وسائل أخضر قصر عدداً
من جنود بومبيوس المسرحين واستعان بهم على القضاء على معارضة
خصومه. وهذا قصرت الجمعية القبلية قانون الأراضي لبومبيوس.
واستطاع بعد ذلك أن يتخلى عن خصومه، فبنى شروعاً من روما
بتهمة قتل أعيان كاتيلينا بغير وجه حق. وكانو الصغير منحه ولاية صقلية
لينظمها أما زميله القنصل الآخر فقد أرهبه حتى لزم داره ليرصد النجوم.

وبعد ذلك أقرت أيضا أعماله في الشرق. بعد ذلك تفرغ قصير
لبعض الإصلاحات والتعديلات الإدارية. من ذلك أن زاد من قوة
القانون الخاص بمعاقبة استغلال الولايات، وابتدأ أيضا العمل بنظام نشر
مكاسب أعمال الجمعيات التشريعية وقرارات السناتوس. وأصبح من
الواضح الآن أن مصير روما قد آل إلى أيدي المتفقين الثلاثة وعملوا على
القواعد المتزامنة بينهم، بأن منح قصير إبنته لبومبيوس زوجة له رغم فارق
السن الكبير، إذ كان بومبيوس لا يزال يبدو كأنه أقوى رجل في روما.

أخيراً حقق قصير لنفسه ما كان يضعون فيه من الاتفاق وتولى
القناصلية وهو الحصول على منصب بروقنصل، بعد عام قنصليته، حكم

59
ولايات الالبريا والغالة ليؤم حدوتها وينظها لمدة خمس سنوات، ابتداءً من بدء قنصليته في مارس 59 ق.م.

وهذا دليل قوي، إذ يقتضي تعنيه هذا السلطان الاستثنائي في أثناء توليه القنصلي كان في استطاعته قانونا أن يكون جيشا في إيطاليا، يصبح في المستقبل قوة تستطيع أن تواجه جنود بومبيوس المسرحين إذا لزم الأمر.

ومن الناس من يعجب إلى إقامة قصير على تولي حكم الولايات لمدة طويلة مثل هذه خارج روما ولكن هذا هو ما كان يسعى إليه وهو أن يكون جيشا خاصا به يستطيع أن يكتب ولاء شخصه بمرور الزمن وكذلك ليستطيع أن يظهر للروماني عقبية العسكرية الأمر الذي كان يهرب العقلية الرومانية كثيرا، وكذلك يجلب على نفسه مجد وفخرًا بأن يضيف أعمالا إلى روما. أثناء غيابه الطويلة اقترح أن يكتب لروما باستمرار عن أعماله. حتى يكون الرومان على علم بما يفعله بالسلطان الاستثنائي الذي منح له. هذه التقارير التي أرسلها من الغاللة أصبحت من يعرف باسمه مذكرات قصير عن الحروب الغالية، التي استحوذت على خيال الشعب الروماني وتقود دبلا على مهارة قصير ككاتب مؤرخ إلى جانب كونه قائدًا وسياسيا من نوع فريد.

قـِيـُّصَرُ هـِنَّ الـغالَّة:

جمع قصير جيشه كما شاء وسار به بعد انتهاء قنصليته إلى الغالبة الحرة إلى الجزء الذي لم يكن قد خضع لروما بعد. وكان أول عمل قام به هو أن تتوفر على دراسة البلاد والبيئة والسكان ثم شن عليهم مجموعة من الحملات في بعضها حقق انتصارا سهلا وفي بعضها الآخر لاقى صعوبات جمة ومشاق كادت تودي به وبجميع قواته وخاصة أثناء حروبه مع الهلنميين (ما يسمى الآن بسوسا) وفي نهاية كل موسم كان يكتب إلى روما.
واصفا أعماله كيا وعد ، وكانت كتاباته تطرب الرومان كثيرا وتشعرهم في كل مرة بالسلطان الذي يضيفه إلى روما عن طريق الأقاليم التي يفتحها وكذلك يشعرون بالمجد الذي يضيفه قيصر إلى الاسم الروماني عن طريق أعماله العظيمة التي وصلت إلى حد البطولة في بعض المواقف.

وحتى إذا كان عام 57 ق م. بدأ الوضع في روما يتآمر من جديد بسبب الغيرة التي أخذ يشعر بها طرف الاتفاقي الثلاثي المقيمون دون عمل في روما سوى أن يقرروا عن أعمال قيصر العظيم وأن يروا أثرها في نفسها الرومان ، وأن يشاهدون أتباعه قيصر في روما ، يروجون له ولأعماله وكتابته بكل أسلوب. أخذ بومبي يضيف بالحال وحدثت فعلا بعض المشاكلات بين أتباعه وأتباع قيصر ، عند ذلك بدأ بومبي يعمل لنفسه أيضا مستقلًا عن الاتفاق الثلاثي فعمل على إعادة شروط من منتهى حتى يستعين بخطابته ، وفعلا عاد شروط واستقبل من السناتوس استقبالا حارا.

وسرعان ما يترشح الجميل إلى بومبي بأن اقترح في السناتوس أن يعين أي بومبي لمدة خمس سنوات Curator Annonae مشير على تمثيل روما بالخلال 2. على البحر Imperium Procosular، كذلك نحن سلطانًا بروفاتور. الأبيض المتوسط ليضمن خطوط مواصلات القمح من الشرق والغرب.

مؤتمر لوكا 56 ق م. أن

خشي قيصر من تفاهم الحال في روما وهو بعيد عنها في ظروف لا تسمح له بالعودة ، أو أن تنتهي مدة غيابه ويبقى دون سلطان سنة 55 ق م. بينا يبقى بومبيوس سلطان هائل على البحر الأبيض المتوسط.

ولكن لحسن حظه أن السناتوس لم يمنح بومبيوس كامل تأيده وثقته بل أخذ يتزعم في التعاون معه. وبذلك شعر بومبيوس أنه لا يستطيع أن يثق في السناتوس تماما ، وأنه لا يزال يحتاجا إلى الاتفاق الثلاثي ، فاستغل قيصر هذا الموقع ودعا بومبيوس وكراسوس للاجتماع ثانية في سنة 59 ق م. في
مدينة لوكا في شمال إيطاليا. في هذا المؤتمر تم الاتفاق على أن يتوجه كل من بومبيوس وكراوسون القصلية سنة 56 ق.م. وأن يمتحى في هذا العام سلطانًا على الولايات الرومانية لمدة خمسة أعوام. على أن يتولى بومبيوس السلطان في أسبانيا وأفريقيا وكراوسون في سوريا، وفي نفس الوقت يحدد سلطان قيصر في الغالبة لمدة خمس سنوات أخرى.

هذا الاتفاق يمكن تنفيذه رغم معارضة كاثب وأعضاء السناتور المؤمنين بالجمهورية ونظمها الدستورية. لأن مثل هذه الانتخابات الفردية كان معناها إلغاء الجمهورية وأن التفوق الثلاثة قد جعلوه من أنفسهم سلطة فوق الدستور وأجهزة الدولة الدستورية، ولكن هؤلاء الأفراد بما هم من سلطة عسكرية كانوا من القوة بحيث أن المعارضات الدستورية كانت لا تجدي، وكان من الممكن القضاء عليها بالقوة.

حتى أن ششوون، وهو من المؤمنين بالجمهورية، منح تأييده للاتفاق الثلاثي، عرفانًا بجمال بومبيوس عليه، لإعادته من المنفى وتعيين أخيه وكيل لبومبيوس قيصر.

قيصر يعبر نهر الراين ويغزو بريطانيا (55 - 44 ق.م).

بعد المؤتمر إلى صيف 56 ق.م. عاد قيصر إلى الغالبة، وحتى يستب السلطان الرومان في الغالبة رأى لا بد من إزالة القبائل وراء الحدود أماكنها. لأهم هذه القبائل كانت القبائل الجرمانية وراء نهر الراين ووجه ضد الجرمنين ضربات قوية العرض منها إرهابهم حتى لا يعودوا إلى التطرق إلى الغالبة وإثارة أهلها ضد الرومان. وكذلك في صيف 55 ق.م. عبر القناة الإنجليزي بقوة صغيرة ليقطع الكتلتين من سكان الجزيرة البريطانية حينذاك بعدم مساعدة بني عنصرهم في منطقة بريتاني شمالي الغالبة، ولكن القوة التي أخذها معه كانت صغيرة واضطر إلى العودة إلى الغالبة ثانية ثم جمع قوة من 30000 رجل وأبحر بهم إلى
بريطانيا وعبر نهر النيمس فخضعت له عدة قبائل سلموها رهائن ووعدوا
بدفع الجزية، مقابل هذا ترك قيصر انجلترا وعاد إلى الغالبة بعد أن
أرضي غروره وتضاعفت شهرته وجده لدى الرومان نتيجة لتوسيع رقعة
الإمبراطورية شمال أوروبا على يديه. على أي حال الفتح الحقيقي
لبريطانيا وضمها للإمبراطورية الرومانية سيتم بعد ذلك بمائة سنة.

ثورة الغالبة:

بعد ذلك أمضى قيصر عاماً أو أكثر لتوطيد سلطانه في أرجاء الغالبة

حتى أن نما سلمت له تماماً حتى أنه بدأ كتابه السابع من الغالبة بقوله:

Quieta Gallia, Caesar ut constituerat, in stialiam coventuș.

Agendos

هذه البداية توحي بأنه كان قد اطمأن تماماً من الغالبة ولكن يبدو أنه نوع
الأطمئنان الذي يعده الغروئ في نفس الحاكم بأن الأمر قد استقر له
نهائياً. ولكن ما كاد قيصر يغادر الغالبة ويصل إلى إيطاليا حتى شبت ثورة
عنيدة في أرجاء الغالبة بقيادة شاب ناشئ من سلالة رؤساء القبائل هناك
اسمه فركز جتوركس جمع إلى شدة الحذر قسوة بالغة وخاصة مع المتربدين
في ولائهم (B Gall VII.4). وفي الحال عاد قيصر إلى الغالبة ولكنه وجد
مشقة كبيرة في الاتصال بهم. على أي حال استطاع قيصر أن يستفيد
من بعض القبائل التي لم تشارك في الثورة، وتدربياً أخذ يسترد أجزاء
الغالبة واحدة بعد الأخرى حتى عزل فركزجتوركس تماماً وخاصة في قلعة
القرب من ديجون ومنع دخول الإمدادات إليه حتى اضطر إلى
تسليم من شدة الجوع في سنة 52 ق.م. بعد ذلك أخذ يعمل قيصر على
إعادة الاستقرار والأمن إلى الغالبة بأسلوب يضمن بقاء السيطرة الرومانية
هناك. وقد تم له هذا في سنة 50 ق.م. لعل من أكبر أسباب
نجاح قيصر، أنه كان بعيداً عن الانتقام والرغبة فيه، وظهر بوضوح
أقرب إلى العدل والتسامح مما استمال له النفوذ، وفعلا أكسب ولاء

55
الغالين لشخصه، وقد سمح لهم بالتمتع بدرجة من الحكم المستقل والاحتفاظ بكثير من نظامهم القديم، والعناصر المشابهة ضمّها إلى جيشه، أما الباقيون فشعّبهم على الاستمرار في الزراعة والرعي، كما فتح مناجم جديدة للذهب والفضة مما ساعد على تحسن حالة البلاد اقتصاديا مما شجع كثير من الرومان والإيطاليين على الذهاب إلى هناك للإقامة أو للتجارة. وافتحت كثير من المدارس هناك لتعليم اللغة اللاتينية والأدب اللاتيني على درجة رفيعة جدا حتى يقال أن اللغة اللاتينية التي استعملت في الغالبة كانت خيرا من لغة أهل روما. وعبارة أخرى أخذت اللغة تصلغ بالصيغة الرومانية وسوف تصبح في المستقبل مركزا لعشاع الحضارة إلى باقي أجزاء أوروبا.

نهائي الاتفاق الثلاثي الأول:

تنفيذًا لقرارات مؤتمر لوكا وبعد انتهاء عام تنفيذها، شخص كراسوس إلى ولايته في سوريا ألمًا في أن يعود إلى روما ب kadjar عسكريه تسد مكانه إلى جانب أجداد زميله. لهذا جلب على نفسه سنة 54 حرية.

لم تكن لازمة ضد البارثيين وهم مملكة تقع في الأقاليم الشرقية الفرات.

وفي معركة كارهاء Carrhae سنة 53 ق. م. دحر الجيش الروماني عن آخره وقتل كراسوس نفسه. ومن هذا التاريخ سوف لا تسلم الحدود الشرقية للإمبراطورية الرومانية لمدة ثلاثمئة سنة.

أعمال بومبيوس:

موت كراسوس عجل بتطور الأحداث لتتكشف عن المناقة الحقيقية بين بومبيوس وقيصر بعد عام القنصالية في سنة 55 ق. م. لم يذهب إلى ولايته Legati في إسبانيا وأفريقيا وإنما اتفق بأن يديرهما عن طريق وكلاه. ويبي في إيطاليا بحجة مباشرة مهام منصب كمشرف على تمرين التجمع.

في سنة 54 ق. م. توفي زوجته يوليا ابنه قيصر، مما خانه نهائيا من علاقة شخصية مع قيصر.

56
بومبيوس يترد بالفصلية:

اجتماع الخلاف بين بومبيوس وقيرش. ظهر جليا في ازدياد الخلاف بين أتباعها وتوالي المظاهرات والاشتباكات بينهم. واشتهر الصراع حول الانتخابات الموظفين وأخذ كل جانب ما في ذلك السناطور يعتل انتخاب ممثل الطرف الآخر وستخدم الترابية حتى الفينو في الاعتراف. على صلاحيات الانتخابات. كل هذا أدى إلى عدم انتخاب أحد للفصلية في عامي 53-54 م. وعمت روما الفوضى التي انتهت بقتل شخص اسمه كلونديوس كان للفصلية ممثلا للجبهة الشعبية. فثار الشعبون ثورة عارمة في أثناء جنازته رمزياً وأحرقوا مبنى السناطور نفسه. وبعض المبانى العامة الأخرى في السوق الرومانية عند ذلك اضطر السنطور إلى أن يطلب من بومبيوس أن يضع حدا لهذه الاضطرابات وأعلنو بعد موت كلونديوس في سنة 52 ق م. قنصلًا受益. وبهذا الصفة منتح الشعب في وضع الأمر سلطانًا دكتاتوراً من أجل إصلاح الجمهوريات الجمهورية Rei Publicae Constituendae سلطة قنصلية إلى جانب سلطة بروقنتالية في الخارج حيث توجد جيوش تحت أمره، هذا بالإضافة إلى أنباء كثيرين من الجنود السابقين مستقرين في مختلف أنحاء إيطاليا. هذا سلطان لم يسبق أن تمت به شخص من قبل في روما. وهو في الواقع أول مثال للحكم الامبراطوري الذي شهده روما فيما بعد.

على أي حال أصدر بومبيوس في الخال بعض القوانين الإصلاحية ضد الرشوة وضد من ينسوبون في الإخلال بأمن الدولة وطيقها دون محاكاة بأمر رجعي ضد المتسببين في الاضطرابات السابقة التي أدت إلى قتل كلونديوس. هذه الأعمال كانت كافية لتحفيز الهدوء في روما. وربما تشب الخراب، الأهلية بعد ذلك بقليل.
أول خطوة إيجابية نحو الحرب الاهلية هي أن السناتوس، الآن، وقد أصبح بومبيوس في جاكيه نهائياً اتخذ قراراً بصد سلطان بومبيوس كروتوصلي في اسبانيا خمس سنوات أخرى ابتداء من تاريخ صدور القرار في أثناء سنة 45 ق.م. هذا الاعتراف أدى إلى الاختلاف بين القوى بين بومبيوس وقيصر. لأن هذا معناه بقاء بومبيوس متمتعاً بسلطان عسكري بعد أن يتهي سلطان قيصر في الغالبة.

هكذا بدأ أن بومبيوس ومعه السناتوس قد أصبحوا في منأى من أي خطر من ناحية قيصر. وقد استنتج السناتوس شجاعته في سنة 41 ق.م. وتحدث عن استدعاء قيصر إلى روما. ولكنه تعلل طبعاً بأن عليه أن يحتفظ بسلطانه حسب القانون. وكان يغني أن يبقى حتى ثم عشر أعوام بعد قنصليته السابقة، حتى يستطيع أن يرضح نفسه في عام 49 ق.م. لفنصليته عام 48 ق.م. متي يتهي سلطان قيصر في الغالبة على وجه التحديد، أمر لم يتضح من النصوص. على أي حال لم يكن قيصر ليقبل الوضع الجديد الذي يؤدي إلى أن يخلع عنه السلطان بينها يبقى سلطان بومبيوس.

وكان لدى قيصر أكثر من دليل يجعله يعرف أنه إذا سقطت عنه الحماية التي يضفيها عليه السلطان البرونتوصلي وعاد إلى روما فسوف يحاكمه السناتوس بعدها تهم منا ما يتعلق بعض أعماله في قنصليته السابقة وفي برونتوصليه بدعا أنه شن حرباً وراء حدود الإمبراطورية في الغالبة دون إذن السناتوس. وقد أعلن كاتو في مجلس السناتوس أنه يطالب بمحاكمة قيصر بسبب أعماله غير القانونية.

ما كان على قيصر أن يفعله الآن هو أن ينجح في تولي وظيفة القنصلي مرة ثانية بينها هو لا يزال برونتوصلاً متمتعاً بحماية ضد إمكان محاكمته بينها هو في السلطة.

58
- ضد هذا الاتجاه أصدر بومبيوس قانونا يمنع أي شخص من أن يرشح نفسه للوظائف العامة وهو خارج روما، ولكن خصي بعد ذلك أن يكون قد تمايى في استدعاء قيصر، فأصدر استثناء خاصا به من أحكام هذا القانون.

هذا الإجراء جعل قيصر يظن أنه يستطيع أن يحتفظ بسلطة البرونصي حتى نهاية سنة 49 ق.م. حتى إذا أصبح قصيرا في سنة 48 ق.م. يمكنه حينئذ أن يصدر قوانين وقرارات تؤكد شرعية كاففة أعماله.

- ولكن السناتور ومعه بومبيوس أخذ يعمل بعد ذلك على حرمان قيصر من هذه الفرص التي يطمّح إليها، واستمرت المفاوضات بين قيصر والسناتور لمدة عام وأكثر في 51 - 50 ق.م. وتمت قيصر في روما وعلى رأسهم الكرسيون كوريو يعملون على إسقاطه من أي ترشيح قد يضر بموقفه.

وقد اقترح كوريو أخيرا بالانفصال مع قيصر أن يتنازل كل من بومبيوس وقيصر عن سلطانهما في وقت واحد. وقد بادر قيصر بإعلان قبوله للفكرة بينهما رفض بومبيوس عند ذلك اتهمه خصومه من الشمليين أتباع قيصر أنه يريد أن يستأثر لنفسه بالسلطة وأنه لا يريد صالح الجمهورية في حقيقة الأمر.

وبذلك نشأ كاففة المفاوضات بين الجانبين وسيطر الخوف على الطرفين وأعلن السناتور في يناير سنة 49 ق.م. أن قيصر عدو للوطن.

وتتخذ قراره الأخير وعهد إلى بومبيوس بأن يتولى مهمة حماية الجمهورية. حاول الرئيسيون ماركوس أنطونيوس وكوريتوس كاسيوس من أعون قيصر أن يوقفا قرارات السناتور باستخدام القيت، ولكن أمام إجراءات السناتور خشيا على حياتها وفرا إلى قيصر.

- من ناحية أخرى، اتخذ قيصر - الذي كان موجوداً مع جيشه في شمال إيطاليا - من الأسئلة المتوقعة ضد الترابنة ذريعة ليعلن أنه سيحمي وظيفة ممثل الشعب ذات الحماية المقدسة، بحكم القانون.
وفي 10 يناير 49 ق.م. صاح لقد ألقى الزهر وعبر قيصر عبر الروبيكون، الذي كان يعتبر حد روما الشمالي الرسمي ومن يتعادل جنوبا على رأس جيش دون إذن السناتوس يكون بمثابة من أعلن الحرب على روما.

الحرب الأهلية:

هكذا قامت الحرب الأهلية بين بومبيوس والسناتوس من ناحية قيصر والشعب من ناحية أخرى. وسار قيصر إلى الجنوب على رأس جيشه الذي دربه مدة عشر سنوات في الغالبة. واكتسب ولاءهم وجيهم. وكان الجنود قد خبروا أساليب قيصر وسرعته في التنفيذ، وكانوا عل استعداد دائم لأن يستجيبوا لسرعته.

ولذلك تقدم قيصر إلى روما بسرعة هائلة، بهت خصمه، كما بهرت المرتدان فانحازوا إلى جانب بسرعة، فأعلنت كثير من المدن وراءها له. كا أن حلمه مع الخصوم واعتدال شخصيته وسلوكه مع الناس كسب له كثيرا من الأتباع.

وجد بومبيوس أن الموقف في إيطاليا في غير صالحه فترك إيطاليا هو ومن استطاع من السناتوس وعبر الأدريانيك إلى إيبروس معتقدا أنه يستطيع أن يجمع أ عوانه من الجنود الذين أقامهم في الشرق.

لم يتبعه قيصر أولا، وإنما دخل روما وأقام حكومة مؤقتة. ثم ذهب إلى إسبانيا حيث عمت الثورة ضده. قام هناك بعدة حلات في أثناها تحوّل كثير من جنود الأعداء إلى صفوفه، ثم عاد ثانية إلى روما ليقيم نفسه دكتاتورا لمدة تكفي أن يفوز في الانتخابات لفترة عام 48 ق.م. بعد ذلك اعتزل الدكتورية وتوجه لمقالبة بومبيوس.

وتقابل الجيشان في تمامينا عند فارسالوس التي كانت المعركة
الفاحة للحرب الأهلية. وقد انتصر بها قيصر رغم أن قواته لم تزد على نصف قوات بومبيوس وذلك بفضل النظام الدقيق الذي كان يلزم قيصر به جنوده إلى جانب شجاعتهم المستمدة من ثقتهم الثابتة في قائدهم.

بعد هذه المعركة فدبر بومبيوس إلى مصر حيث قتل غدرا بينما هو ينزل إلى الشاطئ في مصر، وعلى العكس وجد قيصر بعض المشاكل التي كان من نصيبه أن يقررها. وهي خلاف بين كليوباترا السابقة وأخها بطليموس 13 حول العرش. أخذ قيصر جانب كليوباترا وأقامها ملكة على مصر، مما عرشه إلى هجوم وحصار في المدينة قام به جنود بطليموس. في هذا الحصار أحرز جزء من أسطول قيصر في المدينة، واقتربت النار إلى بعض أجزاء المكتبة في الإسكندرية على أي حال انتصر قيصر أخيرا وأصبحت كليوباترا ملكة. وأقام معها قيصر مدة سنة أشهر غادر بعدها مصر وملكتها الثانية لمواجهة مشاكل السياسة والحكم في روما.

وقبل أن يذهب إلى روما مر على سوريا وآسيا الصغيرة لينظمها Pontus ويؤكد سلطانه في الشرق. وهناك سمع بتهديد من ولاية بتس فذهب إليها في رحلة لمدة خمسة أيام أخضعها وأرسل رسالته المشورة إلى حضرت ورايت وانتصرت.

عاد إلى روما في خريف 4 ق.م. وكان قد انتخب دكتورارا بعد انتهاء عام ف들도ته. وواجه بعض الاضطرابات في روما وخاصة فتنة حدثت بين جنوده الذين كانوا يستمتعون مكافأتهم، فقدى قيصر على الفتنة والاضطرابات.

قبل بعض معارضي قيصر من الجمهوريين مثل شرشون حكم فارسالوس، ورضوا بقيادة قيصر، ولكن آخرين من أمثال كاتو ذهبوا إلى أفريقيا وأعلنوا العصيان، فسار إليهم قيصر وقضى عليهم. وبعد ذلك في
العام التالي، ذهب إلى إسبانيا وقضى على آخر معقل لاتباع بومبيوس حيث كان ابناً قد جمع جيشاً واستمر في مقاومة قيصر هناك. ولكن تمكن من هزيمتهم في معركة مشهورة هي Munda سنة 45 ق.م. ولهذا أصبح قيصر سيداً للإمبراطورية الرومانية بأسره دون منازع.

٦٢
دكتاتورية قيصَر

سلطان قيسر:

إن قيسَر لم يكن خلال كل هذا الصراع وهذه الحروب ليفوز بالنصر، ويصبح سيد روما، ثم تسير عجلة السياسة الرومانية كما كانت وهو سعيد بأن يكون على رأسها ممتعًا بالمجد. إن الخلاف بينه وبين الجمهوريين من السناتوس كان أساسًا خلافًا حول نظام الحكم. الجمهوريون كانوا يسعون في عودة النظام الجمهوري الديمقراطي وما يصبحها من حريات للشعب الروماني. أي أنهم في أعقاب فشلهم يريدون الحرية الدستورية للشعب روما، وهذه يمكن أن توصف بأنها نظرة محاولة ضيقة، لأنها لا زالت تفكر في الشعب الروماني فقط دون اعتبار للكافة شعوب الامبراطورية التي أصبحت روما الآن متحكمة في أقدارها.

كان يوليوس قيسَر على التقيض من ذلك، يرى أن نظام الجمهورية الرومانية قد أصبح ديمقراطياً من الناحية النظرية فقط، وأن هذا النظام فشل في أن يزود روما بحكومة مستقرة لمدة سنة تقريباً مما يسبب روما صفة القيادة والمسؤولية عن الامبراطورية. كما أن هذا النظام قد فشل في حماية الامبراطورية وأن حكم

٦٣
الولايات قد غدا جهازا للاستغلال والظلم. إن خيال يوليوس قيصر كان يبحث إلى آفاق أبعد من حدود روما، ويبدو أن إقامة عشر سنوات في الغالبة قد وضعت من نظرته ورأى أن الحكومة في روما مسؤولة أيضا عن الولايات. وعبارة أخرى كان يوليوس قيصر يرى أن موضوع السياسة الرومانية هو إيطاليا والإمبراطورية بأسرها وليس روما فقط كما كان يفعل السانترس وإشاعه، وهذا هو الفارق الأساسي بين الفريقين. هذه النظرة الشاملة تظهر جليا لكل من يقرأ كتاب يوليوس قيصر عن الحروب الأهلية. فهو في البداية يبدو على أنه حريص كل الحرص على تجنب استعداد أن يستجيب لكثير من مطالب خصومه وان يعود الأمر للسنتاتوس والشعب الرومانى وتقوم انتخابات حرة إذا قبل الطرفان إقلاع السلاح.

وبعد أن تقوم الحرب الأهلية ويدعو أثناء عودته من إسبانيا لأول مرة 135، كانت قد اتخذت جانب يوليوس بومبيوس) يبعث إلى أهلها رسالة يقول فيها: "يبت أن يتبعوا سلطان إيطاليا بأسرها، لا أن يغضوا لإبادة شخص واحد (يقصد بومبيوس). هنا نلحظ أنه يذكر سلطان إيطاليا وليس سلطان الشعب الرومانى كما هي العادة.

وفي المرحلة الأخيرة من الحرب، يبعث قيصر خطابا إلى اسكيب بريكا إلى جانب وأن يعمل معه على إنهاء الحرب. هذه الرسالة تكشف لنا للمرة الثالثة نظرية قيصر الجديدة إلى السياسة الرومانية فهو يقول إذا تعاون اسكيب معه سوف يعم الهدوء في إيطاليا والسلام في الولايات والأمن في الإمبراطورية. وليس هناك ذكر إطلاقا لروما أو الشعب الرومانى. وإنما الاشتراك كله نحو إيطاليا والولايات.

نقول إن هذه وجهة نظر جديدة في السياسة الرومانية ويمكن أن يقال.
إنها الفارق الحقيقي بين طريق تفكير قيصر وطريقة التفكير التقليدية الرومانية التي كان يزعمها السناتوس.

فحين خاص قيصر الحروب الأهلية كانت له سياسة جديدة. من أجل تنفيذ هذه السياسة رأى أنه يحتاج لسلطان مطلق في الدولة. وقد تم له هذا عن طريق تولى السلطة الدكتورية أولا سنة 46 ق.م. لمدة عشر سنوات وبعد ذلك مدى الحياة في العام التالي. وفوق هذا السلطان زاد من سلطاته أيضا عن طريق تولى مجموعة مناصب في نفس الوقت مثل القنصلية عدة مرات، والتربيوية التي تجعل شخصه مقدسا لا ينس، والكهانة التي تتجلب الرئيس الديني للدولة والكنسوية التي تمكن من مراجعة عضوية السناتوس، كذلك اكتسب حتى تعيين نصف الموظفين سنويا. وبعبارة أخرى استكمال قيصر سلطانه المطلق على الدولة مدى الحياة. ومع ذلك رفض لقب ملك، ولعل ذلك مراعاة فقط للشعور الروماني الذي كان يكره الملكية.

إصلاحات قيصر:

رغم أن إقامة قيصر في روما منذ أن بدأت الحروب الأهلية لم تزد على 16 شهرا فإنه استخدم هذا السلطان المطلق لتنفيذ سياسته الجديدة التي ظهرت في سلسلة من التشريعات الثورية.

السناتوس:

من ذلك أنه سمح باستمرار الجمعيات التشريعية ولكنه منحها سلطة محدودة وجعل السناتوس مجرد هيئة استشارية. وقد زاد عدد أعضائه من 600 إلى 900 مضيفاً أفراد من طبقة الفرسان ومن جنوده القدماء. وكذلك أفراد من ولاية الغالبة. ولعله كان يهدف أن يجعل السناتوس مبرور الزمن مملا لكل الإمبراطورية.
الولايات:

كذلك اهتم كثيرًا بنظام حكم الولايات وعمل على إصلاحه، فقرر إلغاء نظام الالتزام في جميع الضرائب، وفرض بدلاً منه ضريبة سنوية.

حتى يمنع الرأسماليين من استغلال الولايات. واتبع ذلك بتعيين حكامًا وموظفين أكفأء في الولايات وشدد عليهم الرقابة كما زود الجهاز الإداري في الولايات بعدم عندها المحررين مما يضمن نفاذ إرادة بدقة.

توسع في منح المواطنة الرومانية للولايات وخاصة إلى أسبانيا والغالبة كأما منح المواطنة اللاتينية لكثير من المدن في الولايات. ومن المحتمل أن هذا الاجتهاد كان يهدف إلى تعزيز المواطنة الرومانية بين سكان الإمبراطورية وهو ما لم يتحقق إلا بعد 250 سنة.

أنشأ عدداً من المستعمرات الجديدة في البحر الأسود وفي موقع كورنث وقزاعة إسبانيا.

التقويم الروماني:

من أخلد أعمال قصير هو تغيير التقويم الروماني الذي كان يقوم على السنة القمرية 365 يومًا واتخاذ التقويم المصري الذي يقوم على السنة الشمسية 365 يومًا على أن يضاف إليها يوم كل أربع سنوات.

جعل السنة تبدأ في يناير بدلاً من مارس، وأطلق اسمه على الشهر الذي ولد فيه وهو شهر يوليو. وهذا الإصلاح لا يزال بقايًا إلى الآن بعد أن أضيف عليه تعديل البابا جريجوري الكبير سنة 1582م.

روما:

إلى جانب هذا اتخذ خطوات نحو تجميل روما، فجعل لها أسواقها الفسيحة وأنشأ أول مكتبة عامة في روما، وشيد معابد كما وسع ميناء
أوستيا ميناء روما. وبدأ بتجفيف المستنقعات وبناء الطرق وما إلى ذلك من إصلاحات.

 مصرع قيصر:

ظل عدد من الأشراف ينتمون على قيصر بحجة، ويتوانوا إلى استعادة سلطاتهم القديمة. خاصة وأن سياسته اتخذت ذلك المظهر الدكتاتوري الذي لم يسمح بقيام أي شخص آخر غيره في الدولة. فتألفت مؤامرة ضد من 60 عضوا من السناتوس وفي سنة 44 ق.م. كان يستعد لقيادة حملة ضد البارثين، ولكنه حين دخل إلى مجلس السناتوس في 6 مارس، النف حوله المتآمرون عند تمثال بربون وطعناه حتى الموت. Ides of

ورغم أن المتآمرين قد اغتالوا قيصر لانقاذ الجمهورية، ولكن الجمهورية لم تعد أبدا إلى روما بعد ذلك، بينما بقي اسم قيصر خالدا، وأصبح لقب للأبطرة من بعده في روما، ثم لقبا لأسر ملكية كثيرة مثل قيصر النمسا ألمانيا وترار الروسيا قبل الثورة.

٦٧
الفصل الرابع

المتمهيد لإقامة الإمبراطورية

الاتفاق الثلاثي الثاني:

أعضاء السناتور القرباء على قصر، اتهموه بأنه كان
يعني في تحويل الجمهورية الرومانية، إلى مملكة على فتح الملك
الشرقية، يكون هو ملكها وكليوباترا ملكتها، ولكن لا نعرف على وجه
التهديد مدى صحة هذا الاتهام، ولكن ما يمنع به قصر من سلطات
وصلاحيات سياسية وعسكرية، لم يسبق أن يمنع بها حاكم جهوري من
قبل، ولكن هناك دليل واحده على أن قصير كان ينظر إلى سلطاته على أنه
وازي، وهو أن قصره بينما كان يستعد لحملته إلى الشرق، كتب
Gaius وصية جمل فيها حفيده أخته المسمية وجايوس أوكتافيوس،
ابنه بالتربة، وأورثه الجزء الأكبر من ثروته، هذا دليل واضح
على أنه نظر إلى أوكتافيوس باعتباره وريثه وخلافته في مركزه، وقد سبق
لأوكتافيوس أن ذهب مع قصير إلى أسيا وأولا محمد قصير كان قد
أرسل إلى البزوق في البلقان ليكمل تعليمه ولتلقى مزيدا من التدريب
العسكري.

هذا هو آخر إجراء قام به قصير وبدل دلالة واضحة على أن قصير لم
يكن يتصرف طبقا لتقاليد الدستور الرومان، ولكن نعرف أن قصير في

69
سياسته طيلة حياته، كان يملك سياسة معادية ضد الساتوس، وكان ذلك يعني في أغلب الأحيان، عدم إقامة أي ولي للداستور الروماني. وبعدما حصل عليه قيصر من سلطات استثنائية وبعد انتصاره المثير، وخاصة على مجلس الساتوس بعد انتصاراته على بومبيوس، يبدو أنه قد اطمئن على أنه قد أخضع الساتوس نهائيًا، بل ربما اعتقد أن مهمة الساتوس في الدولة قد انتهت. وربما ابقاه من ناحية الاسم، مؤقتة، ريثما يفرغ من حمله في الشرق. ووضح أن قيصر كان قد أساء التقدير، وأن الساتوس، رغم ما أصابه من ضعف وانكسار، كان لا يزال يؤمل أن قيصر هو العقبة الرئيسية في وجهه، وأنه - أي الساتوس - إذا لم يكن قادراً على مواجهة قيصر عسكرياً فليواجهه بالخلعية والتآمر. وهذا هو ما حدث، كما سبق أن رأيت في منتصف مارس / آذار سنة 44 م. ولا بد أن المتآمنين، بقيادة ماركوس بروتوس، وماركوس انطوليوس، وليبيدوس،قائد سلاح الفرسان، كانوا يعتلكان قوة عسكرية توليها الولاة المطلقين مكنها من احباط أي تحرك نحو السلطة من قبل الساتوس. وازداد موقف المتآمنين حرجًا عندما أصبح من الواضح أن عامة شعب روما كانوا ضدهم، فإن هؤلاء العامة استطاع انطوليوس أن يكتسبهم إلى جانبه بعد أن قرأ لهم ما تضمنته وصية قيصر من الهبات التي أورثهم إياها.

ولكن اتباع قيصر لم يكونوا أسد حالا، فسرعان ما دار في عقول الجميع السؤال الذي يفرض نفسه وهو من يكون خليفة قيصر ولم يفكر واحد منهم على الإطلاق في شخص أوكتافيوس، ذلك الصبي الذي كان في الثامنة عشرة من عمره وكان قد ورث ثروة واسم قيصر وكان متغيبًا في
البلقان وبدا منذ اللحظة الأولى أن أنطونيوس، القنصل كان أقدر الجميع على العمل والتحرك. وقد رأى أنطونيوس أنه من الحكمة في ذلك الطرف المفاجئ الا يدخل في صراع صريح مع السناتور بطلا أن نوعا من الاتفاق يمكن الوصول إليه. وكان السناتور مستعدا لمل حذارين وصدرت التشريعات التي تقر كل أعمال قيصر. وما من شك أن هذا التصرف كان من نوع ردد الفعل السريعة أمام هول المفاجئة وحتى يستبين كل جانب طريقه وعبارة أدق، ريثما يصل لنفسه على القوة العسكرية التي تمكنه من خوض الصراع. ونجح أنطونيوس في هذه الأيام الأولى من ذلك الواقعة المؤقت مع السناتور من اتخاذ بعض القرارات التي تحقق مصالحه. فمنها مثالًا، حصوله على ولاية الغاله لنفسه بدلا من مقدونيا التي كان قيسرا قد قررها له، ونقل ديديموس بروتوس، أحد التامرين من الغاله إلى مقدونيا دون أن يكون له قيادة عسكرية، وبالإضافة إلى ذلك استطاع أن يمد سلطته في حكم الولاية دوما بليا، من ستين، حسب قرار قيصر، إلى ست سنوات. أما ليبديوس فارسله إلى أسبانيا لواصل الحرب ضد ابن بومبيوس الذي كان مختصا هناك بقوة عسكرية.

ولكن انتصارات أنطونيوس هذه لم يكتب لها البقاء واستطاع ماركوس بروتوس وكاسيوس، زعيمان التامرين، أن يرحل إلا الشرق ضيفاً إلى صفوفها جيوش رومانية هناك من مقدونيا ومن آسيا الصغرى، استعدادا لمواجهة أنطونيوس. أما في إيطاليا، فقد تخطت جميع خططه وآماله بظهور جائوس اوكتيافوس على الأرض الإيطالية، الذي كان قد أعلن قبوله لوراثة قيصر بكل ما تتطلب من التزامات، وما إن وصل إلى إيطاليا حتى طلب أنطونيوس بان يراه له الأموال التي كان قد استولى عليها من خزائن قيصر، وباعتباره ابنه لقيصر، (بعد أن أعلن اسمه الجديد) جائوس بوليوس قيصر أوكتيافوس طلب بأن يشارك في تولي سلطة الحكم في الدولة. رفض أنطونيوس جميع
هذه المطالب، وانتشار أوكتافياً، أن يثبت أنه قادر على أن يصون حقوقه، وزيادة الموقف حراً عندما يُلفح حول أوكتافياً، عدد كبيرة من جنود قصر القدامى، وانضم إليه إثنان من الفرق الرومانية من التي كان استدعاؤه أنتونيوس من مقدونياً. وبلغ التعقيد أوجه عندما عرض أكتافياً أن يتعاون مع السناتوس ضد أنتونيوس الذي كان يحاول طرد ديكيوموس بروتوس بالقوة من شمال إيطاليا. ورحب شيشرون الذي تدعم حزب السناتوس، بهذا التعاون مع أكتافياً. وبدأ موقف أنتونيوس يزداد حرا وضعاً حينها هزم عسكريا في شمال إيطاليا، وإصدار شيشرون حاما وأمل أن يتم التوفيق على أنتونيوس وبعد ذلك يوه امر أكتافياً اولم يُتفق نواياه هذه، التي لم تكن خانقة على أكتافياً. وأخذ الموقف يتحرك في صالح أكتافياً، لأن الجيش الذي كان قد أرسلها السناتوس ضد أنتونيوس في شمال إيطاليا بقيادة الفنلوجين الجددين لعام 43 قم، إنضم معظمهم بعد مقتل الفنلوجين في الحرب - إلى جانب أكتافياً. وإصدار أكتافياً ثقة بنفسه وشعر أنه أكثر حرية على العمل مستقلًا ويبدا من أن يقود جيشه ضد أنتونيوس في شمال إيطاليا، سار به إلى روما وذلك لأن مجلس السناتوس كان قد رفض أن يمنحه الفنلوجين بصفة استثنائية لصغر سنها، بالإضافة إلى إقامة موكب نصر له ومنح جنوده مكافآت مالية. ولكن ما أن وصل على رأس جيشه إلى أوسوار روما، حتى زالت كل معارضة وجتم انتخاب أكتافياً فنصراً في الحال. وكان من أغلب أعماله إصدار قانون بتطبيق العدالة على قتلة قيصر وذريته غابياً. وهكذا انتهت احترام السناتوس في أن يستعيد حكم إيطاليا كما أن الصدام الذي ترقبه الجميع بين أكتافياً وانتونيوس لم يحدث. ونشبت جهود بين قادة حزب الشعبيين بصورة ندارك الموقف قبل أن ينهار وذلك بتوحيد صفوف اتباع قيصر ضد العدو الحقيقي وهو السناتوس. واجتمع الزعاء الثلاثة، أنتونيوس وليبيوس و
واكتافانيوس بالقرب من بولونيا في شمال إيطاليا، وتم الاتفاق بينهم على أن تشكلهم لجنة ثلاثية لإعادة تنظيم الدولة. وأن يعتمدو بسلطان غير محدود الغربي فيها بين ثلاثتهم وكمف أوكتافانيوس وانطونيوس بقيادة الجيوش ضد بروتوس وكاسيوس، بينما ترك لبيدوس لحماية الأرض الإيطالية، وصدر قانون في 27 نوفمبر / تشرين ثاني سنة 434ق. م. يمنح هذا الاتفاق الثلاثي العدة اللازمة، وتحديد أن يستمر العمل به خمس سنوات. ويدعع هذا الاتفاق الثلاثي الثاني لإعادة تنظيم الدولة بعدد من الاضطهاد فاقت جميع الفظائع التي شهدتها روما أيام ماريوس وسلا.  

وذهب كثيرون ضحية هذا الاضطهاد ومن بينهم شيخرون، بينما فر من استطاع أن يفر من أعضاء السناتوس واتباعه ليلحق بقوى بروتوس وكاسيوس في الشرق، او لينضم الى سكسيوس بومونيس في صقلية. وكانت المواجهة الأخيرة بين الجانبين عند موقع فيليب، سنة 424ق. م.  

وفي مرحلة مبكرة من المعركة شعر بروتوس وكاسيوس بالغأس، فانتحرا. وهكذا قضى جنوداً على آخر جيوش السناتوس، وانتصر أوكتافانيوس وانطونيوس؛ ولكن الحرب الأهلية لم تنته. فكان من الواضح أنه لن تستقر الأحوال مع وجود ثلاثة قواد على رأس الدولة. وقرر أن يبقى انطونيوس في الشرق ليجمع مالاً وععود أوكتافانيوس إلى إيطاليا لبحث عن أرض، حيث أن يمنح المال والأرض لجنوده. ولم تكن مهمة انطونيوس في الشرق سهلة، لأنه كان فرصته الوحيدة للحصول على المال من الدولة الوحيدية التي لم تكن قد خضعت لروما بعد، وهي دولة مصر، والتي كانت تحكمها الملكة كليوباترا. وما من شك أن انطونيوس، نظرا إلى حاجته المالية إلى المال، ليعينه على المحافظة على جيوشه، رأى أنه يستطيع أن يحصل على ما يريد من مصر بالاتفاق مع كليوباترا سلمياً، دون اللجوء إلى الحرب. ولا بد أيضاً أن كليوباترا قد أدركه، بعقلها.
اللماح، مدى حاجته إليها، وقررت أن تستغله إلى أبعد درجة. وهكذا بدأت علاقة معقدة بين الاثنين، طابعا صداقه وعاطفة قوية، وهدفها مصالح مشتركة. وفي الوقت نفسه، بدأت العلاقة السياسية بين انتونيوس وأوتاكافياوس تكشف عن حقيقة. فطلب انتونيوس بأن يسمح له بالحضور إلى إيطاليا ليحصل على جنود جديجه، ليتمكن من مواجهة إعداء شرق هم البرئين، في أرض الرافدين الذين ألقوا هدنة الحدود الشرقية لمددا داميا. ورفض أوتاكافياوس، وتمكن من العلاقة بينها وأوشكت أن تحول إلى صدام صريح، لولا تدخل الأصدقاء بينها وأمكن اقتسامها بعقد اجتماع جديد في بريدغري سنة 420م لت-feed الأتفاق بينهما. وفي هذا الاجتماع، اتفقا على أن يمنح انتونيوس حكم الشرق أوتاكافياوس الغرب وشمال أفريقيا إلى ليبدوس، وأما إيطاليا، فيقيس شركة بين الجميع، رغم أنه لم يقم بها غير أوتاكافياوس. وتأكيداً للتحالف بين المنافسين، تزوج انتونيوس من "أوتاكافياوس"، في أجواء أوتاكافياوس، وذلك بعد أن توقيت زواجه الأولى "فلقية"، أما كليو باترا فلم يرد لها ذكر في هذه المناسبة. ووضعت هذه الاتفاقية موضوع التنفيذ، واستمرت ثلاث سنوات، وفي اثنانها عاد القتال بين أوتاكافياوس وانتونيوس، وكان من الممكن أن يقع صدام بينها، إلا أن انتونيوس كان مشغولاً بحربه ضد البرئين، وشعر الجميع بضرورة تجديد الاتفاق واجتعموا مرة ثالثة في "تارنتوم" بجنوب إيطاليا سنة 437م. وقروا تمديد سلطات التفاقيات الثلاثة خمس سنوات أخرى. في هذا العام، حقق أوتاكافياوس عدة انتصارات على آخر مثلى السنتاتوس وهو سكترس بومبيوس، ابن ميديوس العظيم، وكذلك على ليبدوس الذي كان قد اشتد عليه. وهكذا أصبح أوتاكافياوس سيد القسم الغربي من الإمبراطورية، دون منازع. وفي سنة 436م تطورت العلاقة بين انتونيوس وكليو باترا واعلنا زواجهما. وبعد أن حقق انتونيوس انتصارا...
جديدًا على البرثيين وفي أرمينيا، اتباته نوبة من الزهو واتجه إلى أن يوجد مصيره بمصير كليوباترا، وقرر أن يمنح إبناؤه منه بعض الولايات الرومانية في الشرق. ونحن لا نعرف على وجه التحديد ماذا كتب انطونيوس في وصيته التي بعث بها لتودع في أحد معابد روما، على عادة الرومان، وكل ما نعرفه هو ما أعلمه استكفاينوس باعتباره وصية انطونيوس. ومن المحتمل أن تكون ما أعلنه اكثينوس وصية مزيفة، ولكن استطاع أن يقنع بها شعب روما وإيطاليا، بدعوى أن انطونيوس كان قد قرر أن يحول الامبراطورية الرومانية إلى إمارة شرقية يحكمها هو وكليباترا. وسرخر جميع الأجهزة الداعية التي كانت متاحة له بأن هدف انطونيوس وكليباترا، إذا قُدِر لها الانتصار، هو استعباد روما وإيطاليا، واستفاد استكفاينوس من جميع أخطاء خصمه واستطاع أن يجمع حوله جميع القوى الرومانية في الغرب وطالب إيطاليا والولايات بأن تقسم بين الولاء لشخصه ليكون قادئها في الحرب ضد كليوباترا. وحدث شيء مشابه في الشرق، إذ أخذ انطونيوس لنفسه قسماً مماثلاً من جيوشه ومن المواطنين الرومان المقيمين في ولايته ومن الأهالي. ودار الصراع الأخير بين الجانبين في معركة أكتيبوم سنة 31 ق.م. وهي من أشهر المعارك البحرية في التاريخ. وتقع عند خليج أكتيبوم في غرب اليونان. واتضح منذ اللقاء الأول أن الغلبة لاستكفاينوس، وسرعان ما فرت كليوباترا باسطولها ولحق بها انطونيوس وذهب إلى مصر. وقبل أن يتمكنا من تكوين جيش جديد، فاجأهما استكفاينوس الذي حضر عن طريق سوريا وفلسطين، فانتحر انطونيوس وقَتَ به كليوباترا.
تأسس الإمبراطورية

عودة أوكتافيئوس إلى روما:

في نهاية صيف عام 29 ق م، عاد أوكتافيئوس إلى روما في موكب نصر عظيم. اقترب مجلس السناتوس جميع أعماله وأعلن يوم ميلاده عيداً رسميًا في الإمبراطورية، كما قرر إقامة اقواس نصر في بريندزي وفي روما. وعلى مدى ثلاثة أيام متعاقبة سارت موكب النصر، تمثل انتصاراته الثلاثة في دلمانيا وأكتيوم ومصر. وقد فاقت جميعها ما سبق ان أقيم فيوليوس قصر من مراكز النصر، بنهاها وجلالاً. ولأول مرة في روما منذ نهاية الحرب البونية الأولى في سنة 441 ق م، بقيت أبواب معبد الأله يانوس مغلقة دليلاً صامتاً ولكنه واضح للعيان على استجاب السلام بالبحر والبحر في جميع أرجاء العالم الروماني، فقد كان التقليد المتبوع في روما هو فتح أبواب هذا المعبد للصلاة والعبادة ما دام هناك جيوش رومانية تحارب وتغلق فقط في الأيام التي يسبت فيها السلام. وهكذا بعد أكثر من قرن من العنف والحرب الأهلية، أصبح باستطاعة الناس، لأول مرة، أن يتنفسوا بحرية وان يحيوا وان يتمتعوا بالسلام والرخاء دون خوف من مصادر للأملاك أو أوامر الاعتقال أو الموت البشع. ولكن إذا كان السلام قد ساد داخل الإمبراطورية، فقد كانت الحدود لا تزال بحاجة إلى حماية.
سبب تجمّع المتبررين وراء نهر الراين والدانوب أو بسبب هجمات البرثين على حدود سوريا الشرقية.

كما كانت هناك مشكلة الجيوش الرومانية الذين كانوا يمثلون خطراً على الأمن والاستقرار في الداخل، أكثر من خطر المتبررين على الحدود، وكذلك خوفاً من مطامع القواد الطموحين، وللدلايل على مدى العبث الذي تمثله هذه الجيوش، كان تحت إمرة أوكتافيانوس، سببون فرقة، في حين أن أقل من ثلاثين فرقة كانت كافية للدفاع عن الامبراطورية. وكان عليه أن يحتفظ بهذا القدر من الفرق تحت سلطة علايا لا تنقسم، ويسرح الباقى. وتسرح الجنود لم يكن بغير مشاكلاً، فكان عليه أن يعمل على استيطان الجنود المحررين لأكثر من أربعين فرقة، وكان لا بد من أن ينجزهم ارضاً يستترون عليها، إلى جانب محتويات المكالمات الاملاك المعتادة. وكان عليه أن يحقق ذلك كله، دون أن يلجأ إلى مصادرة الأملاك الخاصة، أو فرض ضرائب جديدة.

كما كان أمامه مهمة أشدّ صعوبة وهي، إعادة بناء الدولة التي كانت الحرب الأهلية قد تركتها مفكرة على وشك التداعي والانهيار، فلا بد من العمل على تكوين إمارة مركزية جديدة وإعادة مكانة السناتورين التي عمل بولسوس قصير على خوضها، وتكوين ما يشبه مجلس الوزراء لدارة الدولة، والابقاء على القيادة العسكرية العليا في يد رئيس الدولة، وإقامة إمارة مندوبة للامبراطورية إلى جانب تنظيم الميزانية العامة، وإصلاح حكم الولايات والإشراف على السياسة الخارجية، هذا مع العناية باحياء الإخلاق القديم وبعث حيوية دين الدولة، بالإضافة إلى هذا كله، كان أمامه مهمة العثور على شخص صالح لخلافة الحكم.

هذا المهمة كلاً كانت كفيلة بأن تستنزف أكثر البشر طاقة وحيوية، ولكن أوكتافيانوس، الذي تميز بصحة ضعيفة، عليلة، استعاض عن

78
القوة البدنية، بقوة ارادة الحديدية، وتصميمه واتزان تفكيره واحساسه
السياسي الموقف الذي اظهره منذ بداية طريقه الشاق في صعوده الى
السلطة ولقد عاد أوكتافيانوس من الشرق، بطلاء معبدة من الشعب وله
من المكانة والسطوة ما لم يتمتع به حتى يوليوز قيصر فالشرق والغرب
مدينة له بالولاء ومرتبطة بشخصه بالقسم والمؤثين، كما كانت له مور
وحده قيادة أفضل وأضخم جيش في تاريخ روما، بالإضافة إلى تحكمه في
موارد وأموال امبراطورية عالمية، غنية، فكنوز مصر وحدها، التي
استولى عليها، كانت كافية لتقديم منح الأرض والمكافآت اللازمة لجنوده
المشردين. هذا بالإضافة إلى امكانيات مصر في إنتاج الغلال، الذي
كانت تستورد روما من قبل بالمال، أصبح الآن يأتي إلى شعبها، جزية
مفروضة باللجان.

ولعل من أهم ما تمتع به أوكتافيانوس، فوق موارده المالية، وسلطانته
العسكرية وشبيته بين الجماع، هو ما كان له من مكانة وجلال فريدين
( وهو ما يسمى auctoritas )، ولم يمر إنسان بعد ذلك، على أن يفكر
في منافسته في منصب أو زعامة، وأصبح هو وحده على رأس الدولة،
مصادر كل حماية وسلطة في الامبراطورية.
ألقاب خاصة:

أول لقب اختنه أوكتافيانوس في قائمة ألقابه المهيبة هو "قبصر"، الذي اختنه إسنا له بعد وفاة يوليوس قيصر مباشرة والعملة التي أصدرها تثبت بوضوح أنه احتفظ بهذا الاسم حتى بعد اكتيوم. فرغم أنه لم يعد في حاجة إلى الدعم الأديبي لهذا الاسم من أجل اجتذاب الجنود له، ولقد استبعده مؤقتاً، ومحاو من السجلات. ومع ذلك فقد كان لاسم "قبصر" مستقبل عظيم، إذ قرن بالجمد والسلطان والحكم المطلقة، وأصبح من بعد لقب كل إمبراطور من خلفائه، وبني إلى الأزمنة الحديثة متمثلاً في قيصر ألمانيا والروسيا (Czar) حتى الحرب العالمية الأولى وقيام الثورة.

وثاني لقبه، "إمبراطور" (Imperator)، والذى جعله أيضًا جزءًا من اسمه الرسمي، كان لقبًا يتميز بالعراقة والإستعراض. فكان القائد الأعلى للجيش المنتصر يحمل داً "إمبراطور"، وكان يحتفظ باللقب حتى بعد موكب النصر. تلقب به من قبل ماريوس وسلا وبيوميوس وقیصر، وتقرب به أوكتافيانوس نفسه سبعة وعشرين مرة في حياة لانتصارات حققه بنفسه أو بواسطة نوابه من القواد. وعلى خلاف قيصر
ويوميوس وسائر قادة العصر الجمهوري الذين كانوا قد ميّزوا هذا اللقب، نجد أوقتانياونس يتخذه إمّا يسمى به Praenomen ، واحتفظ به بصورة مستمرة كجزء من إسمه الرسمي ، مؤكدا بذلك ماضيه العسكري. ورغم أن خلفاءه الباشرين استبدوا هذه النسخة (كما فعل تيريوس وكاليجولا وكولومبوس) ، إلا أنه إبداء من هؤلاءина عادة كلمة "أمبراطور" اللقب الرسمي لكل حاكم روماني ، وكثيراً ما تمسّى به الملوك من بعد في العصور الوسطى والحديثة.

هناك لقب ثالث لم يستخدم في النسخة الرسمية ، ولكن ظل له أهمية خاصة بين ألقاب أوقتانياونس، ذلك دوره الدولي، فكثيراً ما يقتصر إلى "وزير" (Princeps) فقط، ومنه اشتقت الإسم الذي أطلق على النظام السياسي الذي أنشأ أوقتانياونس، أي النظام الرئاسي، ومنه أشتق أيضاً كلمة (Principe) يعني أمير. ورغم أن هذا اللقب استخدم يعني ملك أو أمبراطور ، إلا أنه لم يكن له هذه الدلالات من قبل في العصر الجمهوري. أثناء الجمهورية كان dux للقائد المتمرّد إذا كان قبطاً سابقاً من أسرة نبيلة أو شريفة. وأصبح زعياً للسانسوس ، وهو شخص عادة يتميز بمكانة إجتماعية ومهابة وسلطان أدبي. ومن بين من تلقب "الرئيس" في العصر الجمهوري كتيكتوس (460 ق.م. تقريباً) ، واسكيرو الإفريقي (205، 194 ق.م. ، وكانون الكبير (195 ق.م. )، وإسكيبو إميليانوس (147 ، 134 ق.م. )، وماريوس ويوموس ويوبيوس ويوبيوس قيصر. . و غيرهم.

كان سلطان أو قوة أوقتانياونس تقوم على أساس الجيش والشعب، (Imperium واعتمد حكمه على دعامتين: السلطان البرونصلي والسلطة التريبتية الأولي منحته سلطة قيادة الجيش Proconsulare) والثانية منحته حق تمثيل الشعب مع التمتع بحق الإعتراض على (Veto).

82
أعمال السناتوس أو رجال الحكم مثل القناصل. وينبغي أن نلاحظ أنه تمتع بسلطان عسكري Imperium Maius أعلا من سلطان جميع حكام الولايات أو قادة الجيش الروماني فكانوا أقابيل روما وإيطاليا ومصر.

وجميع الولايات التي كانت بها جبهات قتال تقارب فيها فرق رومانية، مثل إسبانيا والغالاية وسوريا، جميعها كانت خاضعة لحلف تمثله في القيادة، هذا الأميريوم الأعلى منحه سلطانًا مطلقًا على القوات المسلحة، وحرم القواد العسكريين من فرضة اختصاص السلطة من الدولة، وهي الظاهرة التي أدت إلى سقوط الجمهورية.

كان باستعثاطة أوكاتافيوس - بفضل شعوبته منطقة التنظير أن يجعل نفسه دكتورياً أو حاكماً عسكرياً ولكنه كان معرضاً على أن يقتحم الحكومة مع السناتوس، طلما كان يتصل مع السناتوس من مركز القوة. من أجل تحقيق هذا الهدف على أي حال أمام في سنة 28 ق.م. يظهر السناتوس من الأعضاء الدخلاء من العناصر غير المرغوب فيها الذين احتلوا في فترات الحرب الأهلية. وبلغ عدد من حرم العضوية في عام 28 ق.م. مائة عضو، ثم أعقب ذلك عمليات تطهير أخرى في عام 18 ق.م. و13 م. و12 م.، وبذلك هبطت عضوية السناتوس من 900 إلى 600 عضو.

كما وضع قواعد لعضوية السناتوس بحيث يجب أن على من يتفرج لعضوية السناتوس أن يكون قد تولى الكوستورية من قبل وأن يتم إلى أسرة من اسر السناتوس وأن يكون متمتعا بحسن الأخلاص، ولكن لعال أعم شرط بعد ذلك هو شرط النصاب المالي وهكذا 800،000 مسيركيس (أي ما يزيد على 70،000 دولار)، ثم زيد النصاب بعد ذلك إلى 1،000،000 مسيركيس (أو ما يزيد على 90،000 دولار). كما جعل النصاب مالياً لطبقة الفرسان يقدر بنصف النصاب السابق تقريباً، أي 400،000 مسيركيس. وقد طبق سياسة بوليس قصير في السماح لأفراد أثرياء من البلدان الإيطالية ومن بعض المستعمرات الرومانية في الغالبة.
واسبانيا بدخول طبقة السنوتوس وطبقة الفرسان، وسنجد الأباطرة من
بعد يتوسعون في تطبيق هذه السياسة.
دستور عام 27 ق.م.:
في الثالث عشر من يناير (كانون الثاني) عام 27 ق.م، وقف
أوكتافيانوس أمام السنوتوس، بعد أن تم تظهيره وعرض عليهم التحري
عن جميع سلطاته وصلاحياته للسنوتوس والشعب الروماني. هذا العمل
الدramي من جانب أوكتافيانوس كان يعني في ظاهره إعادة العمل بالنظام
الجمهوري، وكما توقع أيضًا حرك الخوف في النفوس بدلا من الفرح.
وكان رد فعل السنوتوس هو رد سلطاته اليه على معظم أوجاع
الإمبراطورية. ولفهم ما حدث في ذلك الاجتماع، يجب أن نذكر أن
أوكتافيانوس، عندما هزم أنطونيوس، كانت قوته تعتمد على حقه وحدوده في
سلطة القيادة العسكرية في الدولة. وعندما اعتزل سلطاته الإستثنائية في
سنة 27 ق.م، اعتزل كذلك سلطنة القيادة للجيوش. حقيقة إنه احتفظ
بليقة العسكري "إمبراطوره"، أما سلطة القيادة العسكرية فقد ردها عليه
السنوتوس في الحال. قد يتساءل الإنسان ماذا كان يفعل، إذا ما تصرف
السنوتوس على نحو آخر. ولكن من الواضح أن السنوتوس لم يحاول أخذ
السلطة العسكرية منه، ولم يسبق له أن أزالت الجيش بأوكتافيانوس
كان من القوة بحيث لا يمكن الفصل بينها بأي قرار من قرارات
السنوتوس. وبعبارة أخرى كان السنوتوس مدركًا أنه إذا فعل ذلك، فعليه
ان يواجه الجيش. ولذلك ما فعله السنوتوس هو كل ما كان يستطيعه
عمله وهو منح أوكتافيانوس الإمبريوم البرونصلي لمدة عشر سنوات في جميع
الولايات التي كان بها جيوش رومانية، باستثناء (شمال) افريقيا ومقدونيا،
وعدد من الولايات الأخرى التي ليس بها جهات قتال. وهكذا انقسمت
الإمبراطورية الرومانية إلى ولايات إمبراطورية يحكمها أوكتافيانوس عن
طريق وكلائه ومندوبيه، وولايات أخرى يعين السنوتوس لإدارتها، كما كان
84
الوضع في الجمهورية، عن بلغوا درجة البروتيرس أو البروبتيرس. ومع ذلك أوكتافيانوس - في واقع الأمر - يمارس نوعًا من الإشراف على حكام ولايات الساتوس بفضل مركزه كرئيس للدولة. ويفضل ما منع Imperium Maius من السلطان العسكري الأعلى.

وبعد ثلاثة أيام من هذا الاجتماع، اجتمع الساتوس ثانية لبيع عن شكره واعتراف بالجميل تجاه أوكتافيانوس باعتباره باعث الجمهوريات. وكانت القرارات التي اتخذها في 16 يناير (كانون الثاني) 27 ق.م. هي وضع إكليل من الغار على أمدة بابي منزله، وأن يعلن في الساتوس درع جدي مسجل عليه فلاحت أوكتافيانوس وهي الشجاعة - الرحمة - العدل - الإيمان. وكذلك تقرر أن يضيف عليه لقب جديد يفرق جميع ألقابه السابقة بريقا وحد وله لقب وأ أغسطس وهو لقب أقتصر Augustus استخدمه من قبل على بعض الآلهة، باعتبارها مثابرة بالكمال والقدرة على خلق ما هو أكمل وأفضل. وهذا هو أوكتافيانوس قد أوجد النظام الأكمل للدولة. وسوف يغلب عليه اللقب الجديد، ويصبح إسا يخاطب به ويضيفه على غيره من الألقاب والأشياء. ونظرا لشهرته بهذا اللقب، أصبح من المألوف تسليته الآن بأغسطس.

وقد جرى أغسطس مجلس الساتوس في هذه المحاولات وزاد من سلطته. فأعاد إليه الإشراف على الشؤون المالية. كما متحه سلطة القضاء في قضايا الإبتزاز في ولايات الساتوس. ورغم أنه أقر حق الجمعية القبلية في إصدار القوانين، سمح للساتوس بإصدار قرارات لها قوة القانون دون إقرار الجمعية القبلية لها. وهكذا يمكن أن يقال إن الساتوس قد أصبح رسميا شريكا كاملا في الحكم، ولكن في الواقع - كما لاحظ كل من المؤرخين تاكيتيس ديون كاسيوس - إن إجراءات إعادة الجمهورية لم تزرع على أن تكون واجبة دستورية لجهاز إمبراطوري أقرب من الحكم الفردي المطلق. وسواء أراد أغسطس للنظام الجديد أن يشير إلى الإستبداد.

85
أم لم يرد، إن قوى الواقع الناجحة عن تكوين إمبراطورية عالمية قد وضعت جدا للنظام الجمهوري في روما. وواحد من هذه القوى هو الجيش، الذي
بعدنها لا يستتب أمن في الداخل ولا يسود سلام في الخارج. هذا الجيش
أصبح الآن جيش الثورة وأغسطس هو قائد الثورة، وهو سيد الدولة
وحارسها والمدافع عنها. وإن تحكمه في ذلك الجيش هو الذي منحه قوة
وسلطة مادية واقعية لا يمكن إخفاؤها وراء واجهته زائفة بإعادة
الجمهورية.

كان لأغسطس حق دعوة السناتوس، وإدارة أعماله وتطهير أعضائه،
ورحى رئاسة عمليات الانتخابات في الجمعيات الشعبية واقتراح أو التوصية
باسماء المرشحين، وحق الاعتراف على أعمال جميع الموظفين وأصحاب
المناصب في الدولة، وحق الإشراف على القضاء، وهل أن يقبل آية شكوى
باعتباره أعلى سلطة قضائية في الإمبراطورية. ووفق ذلك كان شغل
وظيفة رئيس السناتوس (Princeps Senatus) وهو منصب يمنحه الحق
في أن يكون أول المتكلمين وذلك يوجه القرارات.

ومن وجهة نظر السناتوس، فعلي أكثرية أعضائه لم تكن راغبة حقاً
في إعادة الجمهورية. فجميعهم يعرفون ما انتهت إليه الجمهورية من
فرضياً واضطهاد وحرب أهلية. كما أن مجرد التحكم في الجيش ومشكلة
dفاع عن الإمبراطورية كأن يكون مهمين مستحيلين لأكثر الأعضاء.
وكان هناك دائماً شبح أطلال الحرب المتضخم مثل ماريوس
ومسلوبوميوس وقيصر قد يعودون إلى تمزق الدولة. ثم هناك جهات
حرب لا زالت مشغولة، فإسبانيا ما زالت غير آمنة ولم يتم إخضاعها،
وكذلك الغالبة في حاجة إلى إعادة تنظيم، وسوريا يخشى عليها من
هجمات البارثيين ووراء حدود الراين والدانوب قبائل متبرزة تتحجج
الفرص لتفتيح أراضي الإمبراطورية. من لكل هذه الإنجازات الملحة

86
غير أغسطس، بما له من سلطة عسكري على الجيش، وقد يصيب الدولة بحرب أهلية جديدة.

إيجاد نظام للحكم في شكل مجلس:

منذ عام 27 ق.م. تمكّن أغسطس من تعيين لجنة من السناتور لمعاونته في إعداد جدول أعمال اجتماعات السناتور. وكانت هذه اللجنة، التي كانت تتكون من القنصلين وثلاثة واحد عن كل من مناصب الحكم الأخرى في سلوك المناصب البارزة الشرفية المعروفة اصطلاحاً باسم Cursus Honorum، ومعهم خمسة عشر يختارون بالفرصة من بين أعضاء السناتور، تتغير كل ستة أشهر. وبعد أن أعيد تنظيمها في عام 13 ميلاديًا، وأضيف إليها أعضاء من أسرة الإمبراطور ومن طبقة الفرسان، أخذت هذه اللجنة تمارس مهامًا كانت من قبل من اختصاص السناتور ذاته. ورغم ذلك فإنها لم تصبح مجلساً للحكم بمعنى الكلمة. فكانت اجتماعاتها علنية أحيانًا، وكانت مجرد هيئة إدارية، ولست هي التي ترسم سياسة الدولة.

أما أصول مجلس الحكم الذي عرف في الإمبراطورية فيما بعد، فإنّ تكن تلك اللجنة السبسة المتغيرة من السناتور، وإنما تمت في مجموعات صغيرة من كبار الإداريين، وأصدقاء أغسطس المقربين، وذوي الكيان، الرفيعة من أعضاء السناتور، وخبراء القانون وغيرهم من الإخصائيين، الذين كانوا يجتمعون بطريقة غير رسمية في إجتماعات مغلقة. هؤلاء كانوا يقررون سياسة الحكومة، والتشريعات التي تعرض على إجتماعات السناتور والجمعيات الشعبية، والمرشحين الذين ينوي أغسطس إقترح اسبابهم في الانتخات التاليه، والحكم التالي لهذه الولايات أو تلك، وجميع الأمور التي تتعلق بالمالية العامة والشؤون الخارجية والقانون والدين وإدارة الإمبراطورية.
الجهاز الإداري للإمبراطورية:

من إنجازات أغسطس الكبير تكوين جهاز إداري دائم، وهو عمل بدأ مبكرا في حكمه، ولم يكن قد استُكمل عند وفاته. فإن جهوده المتصلة الوزيرة لإعداد الإداريين المدنيين، الذين كانوا يتقاضون رواتب، هي التي مهدت لإقامة طبقة الموظفين في الإمبراطورية، والتي مكنت الأباطرة المتأخرين من التحكم في إدارة الدولة الرومانية العالمية.

ولم تكن فكرة الجهاز الإداري جديدة تماما. فقد الحب اليوناني الثانية، كان قد أعاد حكام الولايات والمسؤولين عن إدارتها، وكذلك أصحاب القيمة الكبيرة المبعثرة في أرجاء متباينة استخدام المحررين من العبيد والعبيد الذين يملكونهم كسكرتاريين ومحلسين ومديري أعمالهم. ولقد استعان بومبيون ببعض هؤلاء العناصر في إدارته لتمويه روما بالقمع، وفي حكم ولايته. وكان أغسطس قد ورد من يوليوس قيصر جيشاً جزراً من العبيد المدنيين والوكلا الشخصيين، الذين كانوا نواة النظام الإداري المعقد الذي نشره فيما بعد على الإمبراطورية بأسرها. فلم يحدث من قبل أن كانت هناك حاجة ملحة إلى جهاز إداري كما حدث في عصر أغسطس، سواء في روما أو إيطاليا. في روما، من أجل الإشراف على الخدمات المعيشية مثل إمداد روما بالقمح (Cura Annonae) وتوزيع القمح على المواطنين الرومان (Frumentario)، وإمداد روما بالماء (Cura aquae) والشربة والإطفاء، ومنع الفيضانات، ومرصف وصيانة الشوارع الأسواق، وإقامة وتميم المعابد والمقاهي العامة. وفي إيطاليا، من أجل المحافظة على الأمن والنظام، وتشييد وصيانة المشاتل العامة مثل الطرق والكباري، أما في الولايات، فمن أجل إدارة الممتلكات الخاصة بالأمبراطور، جباية الضرائب، وتوزيع الجيش بالإمدادات والتمويين (Cursus Publicus) المشاتل العامة وبريد الأمبراطور.

88
أعضاء السناتوس في جهاز الإدارة:

عين أغسطس في التنظيم الذي استحدثه للجهاز الإداري إفرادا من جميع الطبقات الإجتماعية: أعضاء السناتوس، فرسان، المحررين وكذلك العبيد. فرئيس الشرطة (Praefectus urbi)، الذي كان تحت أمره قوة من رجال الأمن من ثلاثة فصائل، قوة كل فصيلة ألف رجل، كان في البداية دائما من طبقة السناتوس من فئة القناصل، وكذلك كان مدير هيئة المياه، الذي عينه أغسطس في عام 16 ق.م. يعاونه عضوان من السناتوس و240 عبدا كان قد دربهم أخبارا خدمة قناطر المياه ومحطات مياه المدينة. وهيئة أخرى من خمسة أعضاء من السناتوس تولت أمر الشكلة الفيضان على طول النهر. عضوان من السناتوس من طبقة القناصل كانا يرأسان حتى عام 6 ميلادية هيئة الهامة الخاصة بإمدادات القمح، والتي كان لها مكاتب فرعية في منياء بيزنتي، وكذلك في الولايات المتحدة للقمح.

معظم أعضاء السناتوس المعينين في الهيئات السابقة كانوا من طبقة البريتوريين. فعدد البريتوريين السابقين كان أكثر من عدد الفناصل السابقين في هيئة المياه، وهيئة توزيع القمح التي أقيمت سنة 22 ق.م. وفي الإدارة المسؤولة عن المابين العامة في روما، وفي الإدارة التي عينت في عام 20 ق.م. للإشراف على بناء الطرق وصيانةها في جميع أرجاء إيطاليا. ووفق ذلك، كان معظم حكام الولايات والوكالات الإمبراطورية كانوا من هذه الطبقة.

طبقة الفرسان في الجهاز الإداري:

رغم أن أغسطس، وخاصة في بداية فترة رئاسته عين أعضاء السناتوس في مناصب بارزة ومروة، إلا أنه اختار كثيرين من مناصب الإدارة العليا إداريين من طبقة الفرسان. وكان الفرسان خيرة

89
قيمة، وخاصة في شؤون المال والضرائب والتجارة، مما كان يعزز أعضاء السناتوس. فلمدة تزيد على قرن من الزمان كان الفرسان يستغلون مصادر الثروة الطبيعية في الإمبراطورية من مناجم وغابات ومصايد أسماك، وكانوا قد أقاموا اقتصادات لأنفسهم في أعمال البنوك والملاحة والصناعة والتجارة، وعن طريق الشركات التي كونوها لجباية الضرائب، كانوا قد اعتززوا الضرائب من الولايات من غير رجعة أو شفقة.

والآن بعد أن قبِّدت نشاطهم إصلاحات يوليوس قيصر وأغسطس، كانوا سعداء بالفرصة التي أتيحت لهم لإداء عمل أكثر نفعاً وأكثر شرفًا. ومن جانب أغسطس، رحب بخدمتهم لأنه اعتقد أنه كان يستطيع أن يعتمد عليهم، دون أن يخشى خطرهم السياسي، كما كان الحال بالنسبة لأعضاء السناتوس، وأهمهم كانوا أكثر إعتمادًا عليه ليقوموا بالحماية والمناصب ومجاليات العمل المتاحة أمام طبقة الفرسان، كانت في الجيش والقضاء والمالية والإدارة.

في مجال الخدمة العسكرية، كثيراً ما تفاوتت وختلفت مدته طولاً (Velleius Paterculus) وقساً. فالفرس مثل المؤرخ قيليوس باتركولوس كان يقضي عادة ثمان سنوات في الجيش، في حين أمضى غيره مدداً أطول. وبعض الفرسان اختار الجنودية عملًا مدى الحياة. كثيراً ما تولى أفراد من طبقة الفرسان قيادة فرق رومانية (Legiones Romanae) التي كانت تتكون منها الحامية العسكرية في ولايات الحدود وخاصة في مصر، التي كان عرضاً على أعضاء السناتوس دخولهاٍ بغير إذن الإمبراطور شخصياً. بعد عام أو عامين من الخدمة في الجيش النظامي، بعض الأعضاء الفرسان عملوا في سلك اللقبة القضائية التي كانت جزءاً من الإدارة المدنية، وبعض آخر عملوا ضباطاً في "الحروس البيرونيري"، وهو الحرس الإمبراطوري، المسؤول عن حفظ الأمن والنظام في روما.
وإيطاليا، أو في شرطة المدينة أو فرق الإطفاء، بنية أكثر مشرفين مالين أو مندوبين الإمبراطور في الولايات (Procuratores).

في الولايات الإمبراطورية، كان المشرف الملالي (أو البروكتوراتور) هو المندوب الملالي للإمبراطور، فهو المسؤول عن جدولة الضرائب ودفع الأجور، أما في ولايات النسطور، فهو القائم بأعمال المندوب الملالي، ومدير أملاك الإمبراطور، ويقوم بجمع الإيرادات منها.

وهو فرق ذلك يقوم بمهمة المراقب الخاص. فكان على الولي الفاسد أن يكون في غاية الحذر، خشية أن تعرض للجزاء الصارم عند انتهاء فترة ولايته. فأحيانا كثيرة كان المشرف الملالي فقيرا، حتى إذا كان قد ينفق من قبل ومن طبقة النسطور. وكان يحتفظ بالوصول للمشرف الملالي Procurator، وخاصة إذا كانت في المناطق الملطخة بالـ ضرائب على الحدود مع النسطورين، أو إذا كانت ذات ظروف خاصة مثل مصر أغنى الولايات وأكثرها أهمية فكان وليا مصريا يتمتع بمكانة.

وسلطان يجعله موضوع حسب من أكثر ولاة طبقة النسطور شرفا وكريرًا. ويلي منصب ولائي مصر (بريفيكتوس Praefectus Praetorius)، منصب رئيس قوة الخرس البريتوري (أو الإمبراطوري) الذي أصبح فيما بعد رئيس أركان جميع الجيش، ورئيس الإدارة المدنية، وificate محكمة للاستنتاج في الإمبراطورية، وأخيرا كان المتحكم في عملية تعيين وعزل الأباطرة، وأحيانا إعلان العرش نفسه.

ووجد كذلك منصب بدرجة بريفيكتوس لطبقة الفرسان، إبتداء من عام 6 ميلادية، ورغم أنها كانت أقل أهمية، إلا أنها كانت يكونن الشاب الطموح للتقدم إلى المناصب العليا. اضافة المشرف على عمليات الغلال Vigiles، والآخر المشرف على قوة الحرس البدناء، الذين كانوا يُسمون شوارع المدينة ليلًا، ويدعون ضد أعمال الشغب والحرق.
تعيين المحررين من العبيد في الإدارة المدنية:
لم يكن صعود أعضاء طبقة الإفرسان في مناصب الإدارة المدنية سريعا ولا مشريا كما حدث بالنسبة للمحربين من العبيد، الذين استطاع بعضهم أن يصل إلى مناصب أكثر قوة من تلك التي تولاه فرسان أو أعضاء السناتوس أو تناصيل أو حكام ولايات. ولم تكن حاكم في بداية الأمر، في البداية تولى المحربون من العبيد الأعمال الأكثر تواضعا. ولكن استعدادهم لطاعة ما يصدر لهم من أوامر، وخوضهم وولاؤهم، كان أهم ما ميزوا به. وفضلما تحملوا به من جلد على العمل الشاق وعدم التبذير والولاء والذكاء تمكن العبيد المحربون أن يحققوا طريقهم في الإدارة وtolowerا مناصب ذات ثراء وسلطان.

فمثلا كانت الأعمال الكتابية للمراسلات الإمبراطورية احتراماً لهم، ونتيجة لازدياد احتياجات وتعقيد الإمبراطورية عموماً، ثبت نهائياً أن الخدمات التي قام بها المحربون أكثر لزوماً للإدارة الإمبراطورية من القيادة العسكرية وحكم الولايات. فقد كان العمل الروتيني للمصالح أو المكاتب المختلفة التي أوجدها أغسطس، في حاجة إلى أعداد كبيرة من المحاسبين والمقاضيين والسكرتيرين، والكتبة. وتولى المحربون في هذا التنظيم الضخم الأعمال الأكثر أهمية والأكثر أثراً، في حين تولى العبيد الأعمال الأكثر تواضعا والأقل أهمية. فمكبت أو أقلاع السكرتارية المختلفة، التي كانت أهميتها بالنسبة للامبراطورية الرومانية كأهمية وزارة الخارجية أو المالية أو الحرب أو التجارة في الدول الحديثة، ظلت دائماً إحتراماً لطبقة المحربين ومصدر قوة كبرى لهم. وسرعان ما أصبح المحربون هم المسؤولون عن إدارة اليرادات والضرائب في الإمبراطورية: الذهب من إسبانيا ودولات非洲، الفحم من مصر، والضرائب والجزية من الولايات والملوك التابعين لروما، اللؤلؤ من المحيط الهندي، وكل ما تحمله السفن من ثروة عبر البحار السبع.
وسبب مهارتهم وكفاءتهم وخبرتهم في الأعمال الحسابية وترسهم في
الملحق أيضًا سرعان ما أصبحوا هم الذين يقررون ممن تتفق الدولة في
المجالات المختلفة: السلاح وقناطر الماء والمعابد والقصور والباريات
والاحتفالات، أو الطرق والكبدي على الموازنة، أو يقررون أيضًا درجة نقاء
وزن العملات الذهبية والفضية، أو مقدار ما يجب أن تدفعه الولايات
من الضرائب والجزيزة، حتى الرواتب التي يجب دفعها للالولي ورؤساء
الإدارات العسكرية (Praefectus)
والشراف الماليين (Procurator) وغيرهم من أعضاء الإدارة المدنية.

وأخيراً شرع محورون معينون في مناصب عليا في تلقي الالتماسات
والرجوات من جميع أرجاء الإمبراطورية: شكاوى ضد الإبرياز من مجالس
الولايات، طلبات تتولى مناصب مدنية أو كهونية، ورجوات لتقيد العبيد،
الإمارات لأوسمة من الإمبراطور. ونظراً لتحكم هؤلاء المحررين في
تقديم أو عدم تقديم مثل هذه الالتماسات للإمبراطور، أصبح هؤلاء
الموظفين من المحررين يشعرون أنهم في مركز الجمعة وأصحاب السلطة.

تسوية عام 23 ق.م.

أغسطس في الغالة وإسبانيا:

بمجردما أن تأتي أغسطس من اقرار تسوية 27 ق.م. حتى خرج
قاصدا الغالة وإسبانيا ذلك أن إسبانيا لم يكن قد تم إخضاعها أبدا و كانت
بعض القبائل المتمردة تقوم الحكم الروماني وتهجم الأقدام الرومانية المستقرة
في الشرق والجنوب وفي عام 26 ق.م. تمكنت ثلاث جيوش رومانية من
السيطرة. القبائل المتمردة في إسبانيا وازامها موقف الدفاع مما جعل هذه
القبائل تمارس نوعا من حرب العصابات ضد أغسطس الذي تحمل كثرا
 جدا من العناء وشعر أنه غير قادر على الاستمرار في تحمل مسؤولية القيادة
 بنفسه بسبب ضعف صحته واضطر على أن يعهد بالقيادة إلى وكلائه ،

92
ومنذما فشلوا استدعى قائده المفضل أجرياً من الشرق روجه نحو إسبانيا. وبضربات متتالية نتبت عنها مأطرة واستراق أعداد كبيرة تمكناً من إخضاع الجبال وأحلام السلام في الأراضي الإسبانية الشمالية التي دمرتها الحرب.

عاد أغسطس إلى روما في عام 24 ق.م. من تلك القرى معتل الصحة بعد غيابه استمرت أكثر من عامين وأزيد من الوقت سوءاً في العام التالي عندما حلّ بالأمبراطور مرض خطير وعندما اكتشفت مؤامرة ضد حياته ديرها اثنتان من زعيماء السناتورس ما كشف عن إوجه الضغط في النظام الجديد. ونجاً أغسطس من المرض بعد ان أوصى على الهلاك، وكان لمرضه أكثر كبر على توجهه تفكير نحو إعادة النظر في بعض النظام الحركية. وفي شهر تموز - يوليو 23 ق.م. أعلن أغسطس اعتزاله للقضية وهو المنصب الذي تولاه بصورة متصلة منذ عام 21 ق.م.، وأدرك أن استمرار توليه للقضية كان له تأثير سيء على صحته لكثرة ما كان يتحمل من أعباء، ومن ناحية أخرى جعله موضع كرامية بعض الشباب من البناء الطموحين الذين كانوا يتطلعون إلى تولي هذا المنصب الذي كانوا ينظرون إليه أنه حق لهم بحكم المولد وأنه قيمة الحياة السياسية بالنسبة لهم. وبداً لآغسطس أنه ليس من الحكمة أن يكتسب باستمرار عدوة طبقة السناتورس التي كان هو في أشد الحاجة إليها لتحمل نصيبها في الأعيان الإدارية في الأمبراطورية.

تسوية عام 23 ق.م.:

إذا هذه الأزمة التي حدثت خلال عام 23 ق.م. وما أعقبها من تسوية، خرج منها أغسطس بمزيد من السلطة الحقيقية بدلاً من تناقصها. فرغم أنه تنازل عن منصب المنص، فقد احتفظ لنفسه بالسلطة التدريسية كما مدد سلطاته البروتونسي (Imperium) على روما والأمبراطورية كلها.
ونقصد بسلطاتة القنصلي حتى قيادة الجنوش في كل أنحاء الإمبراطورية (Tribunicia) كا استعاد الصلابات المخولة له بفضل السلطة التريبونية وهي رغم غموضها فهي ذات هيبة كبيرة ورغم منتشتها (potestas) الديموقراطي فقد غدت مارستها إستبدادية في الواقع. فنحن نعلم أن منصب التريبون الشعبي الذي نشأ أصلا مع بداية الجمهورية في القرن الخامس قبل الميلاد من أجل حماية العامة من بطش وتصف الحكام والسناتوس، وتمتع هذا التريبون الشعبي الذي تطلق عليه أحيانا اسم نقيب العامة بصيانة مقدسة لشخصه، ورغم أنه لم يتمتع بسلطة إدارية أو عسكرية، ولكنه يتمتع بثلاث صلاحيات هي: حماية من يلومه، وقوق أي حاكم عن أي إجراء يضر بالعامة، وأخيرا سلطة الاعترض (Veto) ضد أي قرار يتخله السناتو يكون ضارا بمصالح العامة. وكان من حقوقه أيضا دعوة الجمعية القبلية للاجتماع، ورئاسة اجتماعاتها. وبالنسبة لأغسطس، فرغم أنه لم ينزل منصب التريبون الشعبي أو نقيب العامة، إلا أنه نتيجة لتمتعه بالسلطة التريبونية فقد كان في استطاعته، متي شاء، أن يدخل في أعمال أي موظف أو حاكم مهما علت منزلته في روما كا كان يستطيع إذا اضطر إلى ذلك أن ينقض أي قرار يتخله السناتوس، وبالإضافة إلى هذا كله، كان حقه في دعوة الجمعية القبلية ورئاسة اجتماعاتها، يتيح له الفرصة في الحكم فيما يعرض عليها وما يدور فيها من مناقشات أو يتخذ من قرارات. ونكتبنا أن تذكرنا مقدار ما يتمتع به كل من تيبيريوس جاكونس وأخوه يابوس جاكونس من قوة ومن سيطرة على الدولة عن طريق توليهما نظابة العامة (أو التريبونية الشعبيه)؛ وذلك دون أن تكون له سلطة القيادة العسكرية التي كان يتمتع بها أغسطس بدرجة لم توفر لإنسان من قبل في روما.

كذلك كان الحال بالنسبة لل funcionários التي أعلن تنازلها عن منصبها.
سنة ۲۳ ق.م. كنا ذكرنا، إلا أنه احتفظ بصلاحيتها وهي التي سميت بالسلطة الفنصالية (Imperium Consulare). فباعتزال المنصب منتفف من الالتزامات الإدارية التي تحملها القنصل ولكن باحتفاظ بالسلطة الفنصالية، أصبح يحق له دعوة مجلس السناتوريس ورئاسة جلساته. وهكذا يستطيع أن يتدخل في كل أعمال السناتوريس سواء بالنسبة لإعداد جداول الأمور التي تعرض عليه، ومنح حق الكلام في كل جلسة، والاجلاء بما يرغب من قرارات أو تشريعات. وإذا أضيفنا إلى هذا كله تمتعه بالسلطة البرونصالية (Imperium pro-consulare) على جميع أرجاء الإمبراطورية، بما فيها روما، فمعنى ذلك أنه تمتع بقيادة جميع الجيوش الرومانية.

وبعبارة أخرى، أصبح لا يكاد يتولى شخص قيادة عسكرية في الإمبراطورية، إلا بناء على تفويض شخصي منه. وعلى هذا التحول يمكن أن نقول أن أغسطس أصبح تركز في يديه جميع السلطات في الدولة مباشرة أو بطرق غير مباشر فتحكم في التشريع عن طريق تحكمه في المجالس والجمعيات التشريعة وتحكم في إدارة وحكم روما عن طريق ممارسته للسلطة الفنصالية، وتحكم في إدارة الولايات عن طريق تمتعه بالسلطة البرونصالية وما تتضمنه من صفة عسكرية.

خلال الحكم:

كان للأزمة السياسية التي واجهها أغسطس عام ۲۳ ق.م. وكذلك ما أصابه من مرض خطير كاد يقضي عليه تأثير كبير على توجهه إهتمامه نحو مشكلة تمس صميم نظامه؛ ونقصه بها مشكلة الخلافة بالنسبة لسلطة الحكم من بعد. من الناحية القانونية والدستورية، لم يكن هذا من شأن رئيس الدولة (princeps) أي أغسطس، ولكنها مسئولية السناتوريس وشعب روما الذي كان يدين له سلطته ومع ذلك فقد خشي أنه إذا لم يتول إقرار هذا الأمر بنفسه، ربما ينشأ بسببها بعد موته حرب أهلية جديدة بين المرشحين المنافسين على العرش، ولا ينبغي أن

96
نسى أن توليه للسلطة التربوية، سهلته عليه مهمة تدخله ومحاولته اقتراح خليفة له. وكان أغسطس يأمل في أن يكون خليفته من أسرته ومن دمه ولكنه لم يكن له أبناء وكانت له إبنة واحدة جوليا (Julia) التي كانت (C. Claudius Marcellus) قد تزوجت في عام 25 ق.م. من ماركيلوس ابن أخته أكواتيا (Octavia) وكان في الثامنة عشرة من عمره؛ وقد عمل أغسطس كل ما في استطاعته على دفع ماركيلوس إلى مسرح الحياة السياسية. وفي سن التاسعة عشرة أصبح هذا الفتى الوسيم عضواً بمجلس السناتور والعام التالي عام 24 ق.م. انتخب لمنصب الإيديل الشرفي كما تولى منصب ديني آخر، ثم أدرج اسمه في سجل المرشحين للمنصبية رغم أنه كان عشر سنوات أصغر من السن القانونية، وكان نجاحه في الانتخابات وتوليه المنصبية، يعتبر أمراً مؤكداً، فلم يكن يتمتع بنفوذ الامبراطور فحسب، ولكنه كان قد اكتسب لنفسه شعبية كبيرة أثناء توليه منصب الإيديل بتقديم المهرجانات وإقامة الاحتفالات التي اصطففت بالبذخ الشديد. ولكن حدث فجأة ان توفي ماركيلوس عام 23 ق.م. نظراً للواء الذي اجتاح إيطاليا.

وقد وجد أفراد آخرون يطالبون إلى هذا المجدد فهناك زوجته ليبيا (Livia) سابقة وهما تيبريوس كلوديوس نيرون (Tiberius Claudius Neron) وغيرون كلوديوس دروسوس (Nero Claudius Drusus) أجيبيا (Agrippa) قائداً في أغسطس المفضل والذي جلب له النصر في معظم معاركه. وفي عام 23 ق.م. عندما مرض أغسطس وأشرف على الموت، سلم خاتم الدولة إلى أجريبا. وبعد أن شفي أغسطس من مرضه استطاع أن يحصل لأجريبا على السلطة البرونصية على جميع ولايات الامبراطورية، وبعث به إلى الشرق ليشرف على الأوضاع في سوريا ويقوي التخصيصات الدفاعية ضد البرئيين على الحدود الشرقية.

97
وكان أغسطس مصرًا على أن يجعل الخلافة في أسرته، فبعد وفاة ماركليوس، نجد الإمبراطور يستدعى في سنة 21 ق. م. أربيا من الشرق ويلزمه بأن يطلق زوجته ويزوج جوليا، وفي عام 18 ق. م.، زاد في سلطان أربيا على ولاية السناتوس كا خلع عليه في الوقت نفسه سلطتا التربوية لمدة خمس سنوات. وفي سنة 17 ق. م. أعلن أغسطس تبنيه لابنته جوليا وأربيا، وبالتالي يكون قد حل مسألة الخلافة ليس جليل واحد فقط ولكن جليلين من بعده.

الإمبراطورية في عصر أغسطس:

بعد أن فرع أغسطس من وضع هذه الأساس التي عرضًا لها في مجال السياسة والحكم، واطمان إلى أن مبالي الأمور أصبحت في يديه وحده، وإطمأن إلى استناسب الأمن، والقضاء على عناصر الفتن والانقسامات الداخلية شرع بعد ذلك في بناء النظام الاداري وإصلاح المرافق العامة في روما وإيطاليا وإقرار الأوضاع في الإمبراطورية وتنظيم المالية العامة. كما حاول أن يحل مشكلة الجنود الذين كانت قد تكاثرت أعدادهم في ظروف الحرب الأهلية فسرح كثيرا منهم ومنحهم أموال وأراضي مكافآت لهم حصل عليها من الولايات المختلفة وخاصة من بعض الولايات الفنية الجديدة التي تمكن هو من إضافتها إلى الإمبراطورية. وتأتي على قمة هذه الولايات الجديدة، مصر التي أحقت بالإمبراطورية الرومانية سنة 30 ق. م. بعد انصاره على كليوباترا وأنطونيو، كأنه شغل ما تبقى من جنود في الجيوب المشتركة، بتوجههم إلى الحدود كما حدث في سوريا التي كانت تمثل الحدود الشرقية للإمبراطورية وذلك لمواجهة البارثيين الذين كانوا يكونون دولة في أرض الرافدين بالعراق، كما حاول أن يوسع من حدود الإمبراطورية وكان هذا واضحًا في اتجاهين أساسيين، الاتجاه الأول نحو الجنوب فنجد أن يأمر واليه على مصر سنة 29 ق. م. أن يهاجم القبائل الإثيوية في الجنوب، وهي التي
يطلق عليها الآن بلاد النوبة، وفي سنة 24 ق.م. يكلف والياً آخر على مصر بأن يقود حملة إلى جنوب الجزيرة العربية فيعرف باليمن. وكان الهدف من هذه الحملة الأخيرة هو إخضاع القبائل العربية في الجنوب الذي كانت تحكم في التجارة الشرقية مع شرق أفريقيا والهند. ونجد أن موقعه يمتد إلى حدود أوروبا الشرقية حيث يمكن أن يلتحم ولايات جديدة بالأمبراطورية في تلك الأقاليم مثل ولاية بانونيا وداكيا (المحور الروماني حاليًا). كما وجه ضربات قوية في شمال أوروبا في الغالب وألمانيا وراء الدانوب ما ألغى القبائل الجرمانية المثيرة بأن تلتزم حدوها وآلا تتعرض للممتلكات الرومانية. وهكذا نجد أن أغسطس لم يترك إقبالًا من أقاليم الإمبراطورية دون أن ي绻ه عنابه واهتمامه سواء بالنظام العسكري أو بالإصلاحات الإدارية والمالية أو بإقامة المنشآت والمباني العامة مثل الطرق والخصم وقناطر المياه وأعمال الري وغيرها من الأعمال التي لا زالت آثارها باقية إلى اليوم في كل من أفريقيا وآسيا وأوروبا.

الإصلاحات الاجتماعية:

على أنه أهتم أغسطس لم يقتصر على الحرب والسياسة والمال والإدارة ولكن أهتم اهتماماً خاصاً بإصلاحات اجتماعية اقتربت بسمعها. ونحن نحن بالتعرف على إصلاحاته الاجتماعية والدينية لأنا بجانب أعماله السياسية مثل طريقة تفكيره ومنهج أفكاره، فقد كان أغسطس شخصية معروفة في فهله للأخلاق والمجتمع وكان مثله الأعلى أن يعالج المجتمع الروماني من مظاهر الانحلال والتفكك التي أصابته نتيجة للحروب الأجنبية المتصلة، وذلك بأن يعيد له أخلاقه البساطة الرومانية الأولى ولكن كما نعرف أن لكل عصر أطرافه وأسلوبه الخاص به في التفكير والسلوك فمجتمع أغسطس كان مجتمعاً يختلف كل الإختلاف عن المجتمع الروماني قبل أن تنشأ الإمبراطورية وتدفق الأموال على الرومان. وقبل أن يعتقد الانقسام الطبقي والصراع الاجتماعي وقبل أن تزدحم روما بالعناصر الأجنبية التي حضرت إليها من جميع أقطار الأرض، والذين أتوا...
بعقائد وتقاليد وأخلاقيات يختلف عن الأخلاق الرومانية القديمة، ولا ينبغي أن ننسى اعتماد الحياة الاقتصادية والاجتماعية على العبيد الذين جلبهم الانتصارات العسكرية المتلاحقة. لذلك كانت محاولة أغسطس في إعادة عقارب الساعة إلى الوراء محاولة من نوع مثالي لا يتفق مع الواقع ولا يناسبه كثير منها لم يكتب له النجاح ولا الاستمرار. ومع ذلك فهي تفيدنا في التعرف على واقع المجتمع وعلى عقلية الطبقة الحاكمة في عصر أغسطس. وحتى مع افتراض حسن النية وراء محاولة إصلاح الأخلاق العامة فإن كثيراً ما قام به أغسطس في هذا المجال قد يمتدح الهدف منها ولكنها لا تحقق عن طريق التشريع والقانون.

ولعل من أكثر أعمال أغسطس نيل في هذا المجال هو محاولته تحسين معاملة العبيد. ولكن من ناحية أخرى نجد أنه لا يجري في الحرية الفردية وذلك بإعادته القانون الخاص بالعينة ضد شخمه (Maiestas) وهو قانون غامض غير معروف يشمل كثيرا من المخالفات لعدم التأثير ضد الدولة إلى السب والقذف في حق الإمبراطور سواء بالقول أو بالكتابة أو بالفعل وأحرقت الكتب التي تهاجم أو تتقدمة في المبادين العامة. يكافأ الوشاة ببعض ربع ممتلكات ضحاياهم. وهكذا أصبح القانون أداة للقهر والطغيان في عصر الأسيرة. من أشهر هذه القوانين قانوناً يوليوز (Legas Juliae) سنة 19 ق. م. وقانون الفصلين لابيوبس وبيبايبوس (Lex Papia Poppaea) سنة 9 ق. م. وكان الهدف منها هو مقاومة الإبادات الأخلاقية وزيادة النسل وإحياء الفضل الرماني القديمة.

وقد تضمنت هذه القوانين الجديدة مواد تعتمد على مدة الخلوة والطلاق؛ وفرضت على جميع غير المتزوجين من الرجال والنساء الزواج في أقرب وقت ممكن، وجميع المطلقات تحت سن الخمسين والمطلقات تحت
سن الأسرتين أن يتزوجوا خلال ثلاث سنوات. وفرضت على المخالفين عقوبات وجزاءات كثيرة، منها: الحرمان الكلي أو الجزئي من الميراث، أو من تولي المناصب العامة، والمنع من حضور الألعاب والمهرجانات العامة. وفرض مثل هذه الجزاءات على المتزوجين الذين لم ينجبا، حتى في حالة العقم، في حين كونهم من هم ثلاثة أولاد أو أكثر، بتضييلهم في تولي المناصب العامة (وسمي هذا الحق "ius trium liberorum"). وما أضعف تأثير هذه التشريعات، هو منح هذا الحق لأصحاب الفوائد دون أن ينطوفوا شروطه! مما يدعو للسخرية أن نجد بعضهم من أوّل شبان الدولة يتمتعون بالاستثناء من هذه القوانين، وذلك مثل أغسطس نفسه الذي كانت له ابنتين واحدة والامبراطورة ليبيا ذات الولدين، والوزير مايكنياس (Maccenas) ولم ينجب، والقنصلان اللذان سميت القانونين باسمهما وهما بابيروس وهببايروس كانا أعزبين وكذلك الشاعر (Horatius) وهوراس (Vergilius).

ومن أجل مقاومة الانحلال الأخلاقي الذي كان متشردا في ذلك الوقت تتضمن الشريعة الجديدة قوانين قاسية ضد الزنا، فسمح لرب الأسرة أن يقتل الزوجين الزائنين في أسرته، كما سمح للزواج بجبرع هذا الحق، كما يعاقب الزوج الذي يستمر في انحراف زوجته. وبدأت ما اعتنى أغسطس بالأخلاق العامة وزيادة أعداد السكان من المواطنين الرومان، فقد قام بشدة أن تختلط بالذكور الرومانية، الدماء الأجنبية وخاصة عن طريق ظاهرة تحرير العبيد التي بدأت تعم بين بعض الأسر الثرية. فمعظم هؤلاء العبيد كانوا من أسرى الحرب وكثير منهم من مجموعات ذات رeaxية ومحترضة مثل المجتمعات الهيلينية في الشرق، وآخرون منهم كانوا يتميزون بالذكاء والمهارة أو بالجمال، فكان آرباب بعض الأسر الثرية لكثرة ما عندهم من العبيد، يؤثرون بعضهم فيحررونهم ويصبحون مواطنين رومانيين وحق الزواج منهم بعد ذلك، نساء كانوا أو
رجالاً. وقد خشي أغسطس أن تختلط الأنساب الرومانية وأن يضعف الولاء بين هذه العناصر نحو روما ولذلك أصدر عددا من التشريعات تمنع تجبر العبيد بأعداد كبيرة حتى لا تتضخم أعداد المواطنين الرومان وعن طريق الزواج لا يدنس نقاء دم الجنس الإيطالي. أما العبيد الذين يتم تحريرهم دون استيفاء جميع الشروط القانونية فقد حرمهم القانون من التمتع بالمواطنة الرومانية ومنحوا المنزلة الأدنى وأصبحوا مواطنين من الدرجة الثانية باعتبارهم إيطاليين وليسوا رومانا. ويمكن هؤلاء أن يجوزوا على المواطنة الرومانية إذا ما تزوجوا زوجات شرعيا وأنجبوا أطفال.

الإصلاحات الدينية:

انتهج أغسطس حباه الدين سياسة شبيهة بسياسته الأخلاقية، وهي الرجوع إلى الأصول والتقاليد الرومانية القديمة، أي غلب عليه النظرية التوسعية أيضا؛ وذلك في عصر قد بعد العهد بين العقائد القدية التي كانت تتمثل في عبادة الأرواح الكامنة في مظاهر الطبيعة، مثل أرواح النهر والحيوان والبئس، والغابة وفخار الطرق، والتي كانت قد اختلفت بالعقائد الإغريقية المتمثلة في التعبير البشري لبعض قوى الطبيعة مثل أبوذول إله الشمس. هذه العقائد كانت قد تبادل بها العهد وفقدت تأثيرها في المجتمع الروماني؛ وكانت محاولة إحيائها محاولة مصطنعية ومتزنة. لأنه قد ظهرت في المجتمع الروماني عقائد دينية جديدة آتية من الشرق أكثر تأثيرا وأكثر جاذبية. وذلك مثل عبادة الأولاد إيزيس المصرية والإله ضار من آسيا الصغرى وأدونيس من الكنعانيين والفينيقيين. وسرعان ما شاعت هذه العبادات الجديدة بين عامة المجتمعات الإيطالية؛ أما الأوساط المثقفة فنجدها قد اتجهت إلى الفلسفة، وشاعت بينهم مذاهب الرواتبية والأبيكورية، وهناك من مزج بين الفلسفة والعبادات الشرقية.

في حين أن أغسطس ألغى كل ما كان حادثين يطور ديني أو
فسفي، وانته إلى إحياء التقاليد الرومانية القديمة. وبدأ ذلك منذ عام 24 ق. م. ثم في عام 28 ق. م. وذلك ببرنامج ضخم لإعادة بناء المعابد القديمة. فأصلح منها إثنين وثمانية معبدا حسب قوله في سجل أعماله. كما أنه في سنة 29 ق. م. معبدين جديدين، أحدهما لوليوس (قيصر) المقدس الآخر للإله أبولو، وذلك باعتبارهما إلهين حاميين لآسيرة الإمبراطور المعروفة بالأسرة البولمية. ثم أنهى معبدا للإله مارس المتمتن سنة 20 ق. م. وكان إعادة بناء أو ترميم المعابد القديمة مناسبة استدعت ممارسة بعض الشعائر القديمة، مثل عبد الخصود أو الخصب في شهر أيار (مايو). أو مثل إحياء الاحتفال بما يسمى المباريات العلمانية (ludi saeculare) سنة 17 ق. م. وهو احتفال للتذكير والتحية toward الآلهة، وكان يحتفل بها حسب النظام الأفرودي القديم كل 110 سنوات (carmen saeculare). وقد وضع الشاعر هوراتيوس لهذه المناسبة قصيدته التي تم إنشاؤها في معبد أبولو القام على تل البلاتين.

وربما ساعد إحياء الطقوس العتيقة على إذكاء روح الورع والبسالة، ولكنها لم تقتصر على الشعور بالإبلاه أو الإخلاص للحكومة الجديدة، ولا خدعت أغراض الدعاية للنظام الذي أقامه أغسطس ذي الطابع الملكي لا الجمهوري في واقعه.

ولكن لعلما يظهر محاولة استغلال الدين في أسباب الدعاية (ara pacis augustae) التي صور في بعض لوحاته. الأرض الأم (terra mater)، جالسة على صخرة، في حسكة على حجرها طفلين مع ثمار الأرض، والمذبح يصور هنا السلام والرخاء يسودان على الأرض. وفي لوحة أخرى نرى أغسطس، فالأرض هي العالم الروماني، وأغسطس هو الذي حريت السلام والرخاء على الأرض، وأن ذلك كله لورع ورضاء الآلهة عنه، وهو الصلة بين الأرض والآلهة. ومن المعاني الأخرى التي
روّج لها، عبادة الرب روما. وقد وجدناها مصورة على مذبح السلام الأغسطسي، الذي أقيم في مدينة قرطاجنة، وعلى صورتها الرب روما جالسة على كومة من الأسلحة. وهذه دلالة على دور أغسطس في خدمة روما. فهي الآن ترتكز آمنة على قوة السلاح. وهكذا اقترح شخص أغسطس باللهة والربة روما، واقترب كثيراً من الله، وأصبح هناك مراسم في الأقاليم والولايات لعبادة الإمبراطور.

موت أغسطس.

هذه الشخصية الفذة التي دخلت معركتها السياسية في معركة عجى من أقصى المحن في تاريخ البشرية، وهي الحرب الألمانية الرومانية، وكان لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره، كان بمثابة الترياق لسوم الدولة الرومانية. ولقد تميز بالصبرة والقدرة الفذة على العمل المتواصل. ولقد أخذ نفسه بالجد قبل أن يأخذ به الإمبراطورية، ولذلك استطاع أن يفرض نفسه على الدولة كلها. وما من شك أنه استطاع أن ينتشل العالم الروماني بعد أن أوشك على الانقسام والتوزع، ورغم تعقيداته التي لا تكاد تخلى فقد رد له وحدهه عسكرياً وسياسياً واجتماعياً، كما على لسان أمهر مؤرخ الإمبراطورية الرومانية تاكيتاس، فلخص دور أغسطس في هذه العبارة. (إن Legiones, classes, provincias, cuncta inter se conexa.)

الجيوش والطبقات والولايات، التحتم جميعها بعضها في بعض).
الباب الثاني
مصر الرومانية
الفصل التاسع

الآثار البيئية لمصر في العصر الروماني

1- القرون الأول والثانية من الإمبراطورية الرومانية

أغسطس يفتح مصر:

من العبارات الجغرافية المشهورة أن البحر الأبيض المتوسط وسيلة وصل لا فصل. ورغم أن هذا القول صحيح في جميع عصور التاريخ، إلا أنه يمكن أن يقال أن الإمبراطورية الرومانية هي التي جعلت هذه العبارة الجغرافية حقيقة تاريخية بكل معاني الكلمة. لأن الحضارات السابقة للمرية الأشرورية والفارسية والإغريقية كانت تشمل عادة منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط، أما روما فقد نجحت في أن تضم جميع أقطار هذا البحر في بناء سياسى وحضري واحد استمر فترة من الزمن تروح على السبعين سنة فيما يعرف بالإمبراطورية الرومانية. ورغم أن تحويل حوض البحر الأبيض المتوسط إلى إمبراطورية رومانية استغرق مايزيد على القرنين ونصف، كانت مصر آخر قطر سقط في أيدي الرومان من أقطار هذا البحر، عقب موقعاً كبيراً ودخول أوكتافيان (أغسطس) مصر في أول أغسطس سنة 30 م. ومن الغريب أن هذا العام يؤرخ في التاريخ الروماني نهاية مصر الجمهورية وبداية مصر الإمبراطوري الذي يرأس فيه الدولة "رئيس princeps" وليس قنصلًا.
وتعني زميل ) كما كان الأمر من قبل . ولكن هذا التوافق التاريخي بين فتح مصر وبداية الإمبراطورية لا يتعدى كونه مصادقة تاريخية 
فقد كان من الصعب أن تسقط مصر في أيدي الرومان من قبل ولا تقوم الإمبراطورية فقت كانت بداية النظام الإمبراطوري في روما مرهونة بفترة 
أوكتافيان بالسلطان بعد القضاء على ماركوس أنطونيوس . وقد حدث أن أقترب مصري مصر البيطافية بمصري ماركوس أنطونيوس وكليوباترا بما يكون أن بيئة ، 
لأن تأخر سقوط مصر البيطامية في أيدي الرومان لم يكن راجعا لقوتها ومنعتها 
بقدر ما كان راجعا لظروف روما الداخلية وظروف الزعيم الحزب بين السنيلو 
والشعيبين . ويتضح مما كرناه في تاريخ الأسرة البيطامية قدار الضيف الذي 
وصل إليه ماركوس المتأخرن ، وأسهم منذ منتصف القرن الثاني ق .م . وم يقررون 
ويتزافون إلى روما بشكل متزايد حتى أصبح الملك البيطامي لا يكاد يستقر على 
عرشه دون رصام روما ودون أن تسند قوة رومانية تقيم في الأسكندرية . 

ومع ذلك فلم يكن فتح مصر بالأمر البالغ ، لأن مصر مهمة دائما دون نظر 
إلى قوتها أو ضعفها . ولعل السبب في ذلك هو أن السياق والتردد القديم من 
ناحية وثرؤها الزراعية الكبيرة من ناحية أخرى تضفي عليها جدلاً وأهمية 
خاصة . ولم يُقات الفتح الروماني أن يستغل هذه الفرصة في أسباب النهاية 
السياسية ، فأصبحت علة تذكرية خاصة ومتناسقة ضمه مصر للسلطان روما . وقد 
خرجت هذه العملية تحت صورة التسمية - أشهر الحيوانات النيلية وأحد 
الموارد المصرية - وقد كتب محتف عبارة 
"Aegypto capta"
ومعناها « فتح مصر » .

ولكن ماذا كان يعني فتح مصر معناه بالنسبة لمصر ذاتها أنها لم تتخذ دولة

مستقلة تحت حكم الأسرة البطالمة في الأسكندرية، وأصبحت ولاية تابعة لسلطان
روما. هذا من الناحية السياسية، أما من الناحية الاقتصادية فقد كان الأمر أكثر
خطرة، لأن روما فرضت على مصر جزية مالية وضرائب نوعية من القمح
والغلة يجب أن تشحن إلى روما في كل عام. أي أن جزءًا كبيرًا من دخل
المصريين وإنتاجهم الزراعي كان يذهب إلى روما دون مقابل. ومن
أجل هذا المنفي الاقتصادي احتفل أغسطس بفتح مصر وأصدر تلك العلة
التذكرية ليازف النبأ للرومان. وبشرم أنه قد سخر لبطونهم قمح مصر.
وكان هذا بالأمر البسيط لأننا نعرف من تاريخ روما أن من يستطيع
إطعام الرومان يحكمهم ومن يفشل في ذلك لا يبقى في الحكم يومًا واحدًا.1
ولما كانت روما قد أعطت زراعة القمح في إيطاليا واعتمدت اعتيادًا تاماً على
استيراده من الولايات، تعتبر السيطرة على مصر أكبر بلد منتج للقمح في
الإمبراطورية—أيًا بالغ الأهمية من الناحية السياسية. ووضع هذه الحالة
قول المؤرخ الروماني تاكيتوس: "على أن (إيطاليا) لم تصب الآن بالجدب،
ولكننا نفضل استغلال (شمال) إفريقيا ومصر، وأصبحت حياة الشعب
الرومانية رهبة بالسفن وأحاداثها.2
ونظرًا لأهمية مصر على هذا النحو، واشتهرا يجوع أهلها إلى الثورة
سواء من شعب الأسكندرية أو من أهل مقاطعة طيبة في الصعيد—كما
حدث صراعًا في النصف الأخير من حكم البطالمة، فقد أعد الإمبراطور أغسطس
بوضع نظام دقيق لها يكمل استمرار خضوعها للسلطة المركزية في روما. ويهيمن
أن نجد هذا ثلاثة نقاط وهي وضع مصر في الإمبراطورية الرومانية، ثم السلطة

D. Van Berchem, les dis tributions de blé et d'argent à la plebe romaine
sous L'empire, Lenene, 1939.
Tacitus Annales, XII. 43

109
العيا في مصر الرومانية، وأخيراً الحامية العسكرية (ستتحدث عن سائر النظم الإدارية في فصل مستقل). وإذا يضحك هذه النقاط الثلاث نورد بعض النصوص القديمة التي تصف وضع مصر الجديد كما عينه الإمبراطور أغسطس:

أولاً: استرايون: وقد زار مصر عقب افتتاح الرومان مباشرة وكتب في عهد الإمبراطور أغسطس نفسه يقول:

٨. لقد أصبحت مصر الآن "ولاية"، (Eparchia)، تتصرف بحرية ضخمة، ويقوم على حكمها رجال حكاماً، وهم ولاة الذين يرسلون إليها تنظيمًا. ويعتبر (الوال) الذي يرسل إليها مكان الملك.. وهناك ثلاث فرق من الجنود، واحدة منها تقيم في المدينة (الأسكندريه)، والأخرى في سائر الطرق، وإلى جانب هؤلاء يوجد تسع سرايا رومانية، ثلاث منها في المدينة (الأسكندريه)، وثلاث على الحدود الإثيوبية في أسوان، كما تقدم لثلاث القبائل..، وثلاث في سائر الطرق. وهناك كذلك ثلاث وحدات من الفرسان معينة في مناطق الخطاب أيضاً.(1)

ثانياً: تاكيتوس: أعظم مؤرخ روماني. امتدت حقبته بين عام 55 وعام 115 ميلادية أو بعدها بقليل، وتدرج في سلك الإدارة الرومانية حتى نوى منصب بروقتشيليا على آسيا الصغرى. وفي نفس حقبته الإدارة كان مظلماً على الوثائق الرسمية، ومن ثم أهمية كتاباته، كالمثاب بعدة التمثيل والإيحاز إلى درجة ملزمة في بعض الأحيان. وقد وصف وضع مصر في الإمبراطورية الرومانية بهذه العبارة:

حكم مصر وقوات الاحتلال بها، منذ زمن أغسطس الأول، أفراد من طبقة الفرسان الرومان، شغروا مكان الملك. فقد روى أن من الأصل أن يبقى للإمبراطور أمر ولاية (Provincia)،(2)

Strabo. 17. 1. 12.
Tacitus, Ann. 1. 11

١١٩
ثالثاً: ديون كاسيوس: عاش في النصف الثاني من القرن الثاني وبداية القرن الثالث، وترعرع في سلك الوظائف الرومانية حتى تولى منصب القنصلية لمرة الثانية سنة 229، وكتب تاريخاًً لروما استمره من المصادر المعاصرة القديمة. وقد وصف النظام الذي فرضه أغسطس على مصر في هذه الفترة المشهورة:

«ممتلك ذلك الوقت جبل (أغسطس) مصر تدفع الجزية، وعن على جالودس كورنيليوس، ونظراً لكثرة عدد السكان سواء في المدينة أو في الريف، وسرعة وحدة طباعهم، وكذلك لوفرة غلالها وثرائها، ومن أعضاء مجلس السناتو أن يدخلوا مصر لأي سبب كان أو الإقامة بها، إلا بعد الحصول على إذن خاص منه. ورفض السباح لأفراد هذا الشعب (أي المصريين) أن يصنعوا أعضاء في مجلس السناتو في روما. وبعد ذلك تداول أمور أخرى كلا على حد، فأمر الأسكندرنيين أن يدروا شتات مدينتهم دون مجلس تشريعي (boule)؛ فقد كان يعرف مدى جنوحهم إلى الثورة.

هكذا كانت النظم التي وضعت لم، وقد بقي محافظاً عليها إلى الآن، إلا أنه قد أصبح لهم مجلس تشريعي boule في الأسكندرية منذ عهد الإمبراطور سيتيروس؛ بدأوا يجلسون للموضة في مجلس السناتو في روما، لأول مرة في عصر ابنه أنطونيوس "(1)».

هذه هي أم المصري الذي تصف مصر ووضعها الجديد عند الفتح الروماني، ولنبدأ الآن في تحديد النقطة الأولى وهي وضع مصر في الإمبراطورية الرومانية، ولنبدأ أثار المؤرخين المخالبون حول هذا الموضوع جدلاً كبيراً، محوره هل أصبحت مصر ولاية رومانية، أو أن أغسطس جعل لها وضعاً خاصاً فالمما يكون

Dio Cassius, 51.17

(1)
باللمسية الشخصية للإمبراطور (٧٠). وقد حاول أصحاب الرأي الأخير أن يجدوا مبرراً لوجياً نظرهم في أن أغسطس نفسه حين كتب في سجل أعماله المعروف باسم أثر أتخذه عن فتح مصر قال "لقد أفضت مصر لسلطان الشعب الروماني" (Aegyptum imperio populi Romani adieci) (٧١) أنه لم يستخدم في وصفها لفظ "ولاية" (provincia). ونحن لنريد أن نتخوض في عمار لهذه المشكلة الجدليّة، لاعتقادنا أن الاختلاف مبالغ فيه وأن وضع مصر في الإمبراطورية الرومانية لم يكن من النزاهة بالقدر الذي يذهب إليه بعض الباحثين وأن مصر من وجهة نظر القانون الروماني كانت ولاية رومانية.

ولدى ذلك تقول إنه بعد أن استنجد الأمر لأغسطس تمت في عام ٧٧. م. نسوية لتوزيع الضرائب على الإمبراطورية بيد وتورج مجلس السناتو، بناء على هذه النسوية قسمت ولايات الإمبراطورية بين أغسطس والسناتو، ونلاحظ أن الإمبراطور قد وضع تحت سلطته الشخصية الولايات التي تمت محتلة في الحرب الرئيسية للإمبراطورية، والتي تجاوزت حسابات ومثل هذه الحرب القديمة (وبها قيادة الجبهة الشرقية) وإسبانيا (وبها قيادة الجبهة الغربية) وسوريا (وبها قيادة الجبهة الشرقية) ومصر (وبها ولاية جديدة ضمها أغسطس للإمبراطورية وأقام بها حامية عسكرية) (وبذلك تعتبر مقراً لقيادة الجبهة الجنوبية) وبهذه الطرق، وكز في هذي السلطة العسكرية ألبولج جيوش الرومانية تقريباً، وهذا هو جوهر الوقفة، فقد حرص أغسطس على أن يسبب مجلس السناتو سلطة القيادة العسكرية، والسبب في ذلك واضح، وهو أن أعضاء هذا المجلس.

(٧٠) كنفي هنا أن أهل الفناء إلى العرض الواقع جميع وجهات النظر الخاصة بهذه المشكلة في كتاب الدوكر عبد البلبل أحمد علي: "مصر والإمبراطورية الرومانية"، ص. ٦١-٧٥، ويوجد بالدراسة بيان جميع المراجع والمصدر.

Res Gestae Divi Augusti, ٢٧٧١.

١١٢
هنم الذين استنفوا سلطانهم العسكري وهذوا سلامة الدولة وكأنها بالحروب
الاهلية من أمثال مارينوس وسلا ونيمي وفيار وماركوس أنطونيوس،
وخاصية الأخير الذي شن على أغسطس حربًا من مصر ذاتها قبل أن تصبح
ولاية رومانية.

فصهر على هذا الأساس قد اعتبرت في نظر المسير الرومانيون ولاية رومانية
عمالت في تسوية عام 77 ق.م. معالمة الولايات الكبرى الأخرى،
وما ينبغي استغلال عدم استخدام لفظ
Provincia في أثر أنورة على أن أمر لم
يسكن ولاية. ففيما يقرأ نص أنورة وبدون أسباب تبدوه يدرك
أن هذا الاستنتاج غير صحيح لأن أنورس يستخدم في وصف اسم بالونيا
والإيطالية للأميراتطورية تبشيرًا شيئًا بعبارة عن ضم مصر، ولم يحكم أحد أن
بالونيا وإيطاليا كانت ولايتين رومانيتين.

ولم يحكم أحد من الأحدرين أيضًا أن مصر كانت ولاية رومانية وإلا لما
نABB عن كل من أسترابون واتكينس ملاحظة ذلك وكلاهما يصف مصر بأنها
ولاية (أو Provincia أو proarchia) كما ورد في النصين الذين قدمنا ترغهم
في أول هذا النقل. وينكن أن نضيف إلى هذين النصين الأخرىن شيئًا قانونيًا
يرجع إلى نهاية القرن الثاني ولكنه يصف بعض مستويات وأعمال مصر على

(1) أشهر حرية عام 77 ق.م. وسلطان أغسطس:
R. Syme. The Roman Revolution. (1952) ch. XXII,
"Princeps", pp. 313–330; Cambridge Ancient History,
X. p. 128.

Res Gestae, 30.1, "Pannoniorum gentes, quas ante (v)
me principem populi Romani exercitus a nuncam aicit,
devictas per Ti. Neronem, qui tum erat privigus et legatus
meus, imperio populi Romani subieci, profulique finies
Illyrici ad ripam fluminis Dapui".

113
الأسس التي عينها الإمبراطور أغسطس. هذا القانون يصف مصر بتنظيم provinciam.

يتضح من هذا العرض أن مصر — من حيث وضعها القانوني — كانت ولاية رومانية، وأنها حسب تسوية عام 27 ق.م. كانت إحدى الولايات التي تتابع الإمبراطور. ويجيب أن نذكر أن أغسطس مارس سلطانًا مطلقًا على هذه الولايات التابعة له، يتولى حكامها على النحو الذي يراه هذو ويقيهم في مناصبهم حسب إرادته الشخصية، فهم نواب وملموص في مناصبهم. أما الفقهاء، فهم غيرهم في هذه البلاد.

فما يتبين من هذه الوثائق إلا أن القانون كان يصدر على النحو الذي يراه هذو، ويقيهم في مناصبهم حسب إرادته الشخصية، فهم نواب وممثلهم في المنصب، ومنهم الفقهاء. إلا أن الأمر كان يسير على النحو الذي يراه هذو ويقيهم في مناصبهم حسب إرادته الشخصية، فهم نواب وممثلهم في مناصبهم، ومنهم الفقهاء.

إثبات أن أغسطس في تسوية عام 27 ق.م. حاول أن يضع من شأن مجلس السكان، وفي الواقع كان ذلك جزءًا من سياسة مقصودة تهدف إلى إضافة طبقة الفلاحين الذين يمثلهم مجلس السكان، وقد ثبت هذا للجهة العليا في مجلس السكان، وذلك بزيادة الأعيان عليها سياسياً، فوجد هناك عين

Ulpius aequitis apud Digest. 1. 17. 1: "De officio praefecti Augustalis. Praefectus Aegypti non pruis deponit praefecturam et imperium, quod ad similitudinem praeconsul au lege sub Augusto si datum est, quam Alexandriae ingens sit successor eius, licet in "provinciam" venerit: et ita mandatas eis contingat."

حكام من بين أفراد هذه القيادة لولايات الجديدة، وفي الولايات القديمة، حيث التقليد المتبعة حتى ذلك الوقت هو تعيين الولاة من أعضاء مجلس السناتو من القناصل والبريتورين السابقين، نجده لا يميل إلى تعيين ولاء من فئة برقوق (أي من القناصل السابقين) - وهي الفئة الأرقي، والأكثر أهمية من الناحية السياسية وأكثر خطورة من الناحية العسكرية، وبعين حتى في الولايات الكبرى (legati pro praetore) مثل الغاليا وأسبانيا، وسوريانا، وبايروتور (الأقل أهمية ومن الأسر الصغيرة). وفي حالة مصر، طبق نظامه التبع في الولايات الجديدة، فعين ولاتها (praefectus) من طبقة الفرسان (كما يضح من نص المؤرخ تا كيتوس السالف ذكره: (Ann. 1.112) ولكن لما كان لا يجوز لأفراد طبقة الفرسان - حسب التقليد الدستوري الروماني - أن يتولوا قيادة جيوش مكونة من الفرق العسكرية الرومانية (Legiones) التي كان أمر قيادتها قاصرًا على أفراد من طبقة السناتو (بمنفة الفرسان قيادة وحدات الإمدادات العسكرية) فقد أخذ أغسطس إجراء استثنائيًا في حالة (auxilia) مصر فقط، بأن منح والولاة من طبقة الفرسان سلطة الإمبريوم التي خوله حق قيادة جيوش مكونة من فرق رومانية. والسبب في أخذ هذا الإجراء غير المادي في حالة مصر هو عدم ثقة أغسطس في وراء طبقة السناتو له: لقد تآمروا من قبل بقيصر وقتنا، كما امتنع أغسطس نفسه بجرة قاسية على رستيوسو وحليفته كليوبترا، حتى كانت من جرائها تتصدع الإمبراطورية بأسرها.

ولا كانت مصر ولاية بعيدة يصعب الوصول إليها بسبب ظروف الملاحة.


(2) وقد سبب أن أورديانا نسي هذا القانون.
قدماً وارتباطاً بمواسم الريح، لذا كان أغسطس يخشى أن يتمكن أحد أعضاء طبقة السناطور من اكتساب ولاء الجنود بشخصه، وحجبهم التقليدي في قيادة الجيش. ويعتبر مصراً، فحرم روما من مصدر هام للدفاع، مما قد يكون له عواقب خطيرة. من أجل هذا كان الإجراء الاستثنائي الوحيد الذي طبعه أغسطس في مصر يتعلق بإقصاء هذه الطبقة عنها. فتح والى مصر من طبقة الفرسان سلطان الامبراطور لقيادة الجيش، كما منع أعضاء السناطور وشخصيات البارزة في روما من دخول مصر إلا إذا كان خاص من الإمبراطور شخصياً. ويبين هذه السياسة عبارة النورخ تا كينس للمروفة التي يقصدها:

"إن من بين أسرار توطيد حكم أغسطس أنه أرسل مصر عن طريق أنع أعضاء السناطور وشخصيات البارزة من الفرسان الرومان من دخولها إلا إذا كان. وذلك حتى لا يصب أحد إيطاليا بمجاعة عن طريق السيطرة على تلك الولاية ومنافذها البرية والبحرية، فيصمد بقوة مما كانت صغيرة أمام جيش

عظيمة.

***

نتقل الآن إلى النقطة الثانية في النظام الذي وضعه أغسطس لحكم مصر.

وهي السلطة العليا في الولاية. بالنسبة للمصريين احتل أغسطس مكان اللوك.

(1) لعل من الناس أن تذكر هنا أن الملك بطليموس الإزمار كان قد أعيد إلى عرشه بمساعدة فرقة من الجيش الرومان من رجال بوبجي، وكان نائباً حاكم رجالة السيس بايبجيس. وقد قتلت هذه الفرقة في الأسكندرية، وعلم هذا هو السبب في أن بوبجي حاول الفرار لصبره بعد مرحلة فارسوس. وأتم حارب جنود بايبجيس ضد قيام في سبب الأسكندرية. ولا بد أن أدولفوس قد ترك في مصر جنوداً أخرى، قد لا يزدادون في الثورة ضد أغسطس إذا ما وجدوا لهم قائداً مناسبًا. كما أن المصريين وأهل الأسكندرية لم يكونوا راضين عن الحكم الروماني الجديد.

Lucius, Ann. H. 59, provincia

(2) لاحظ أنه يستخدم هنا أيضاً للفظ Dio Cassius, 51. 17.
البطالة، أي أن الإمبراطور الروماني أصبح ملك البلاد الرسمي، يتمثل في شخصه كل ما تمثل في شخص شرعي من قيادة وتأليه، وكانت تتغلع عليه الألقاب الفرعونية للأولوية. هذا من الناحية الرسمية البعثة بما يتفق وتقليد الفكر السياسي والديني والاجتماعي المصري.

اما من حيث إدارة الولاية توالي السلطة الملكية فيها فقد عين أغسطس لذلك موظفا من طبقة الفرسان، كما بيق أن يبا، وهو الذي يعمل لقب بريفكسيوس praeceptor imperium quod ad similitudinem proconsulis (imperium sub Augusto ei datum est) والمصر في الإمبراطورية بأسرها.

وقد منح والي مصر بعض هذا الإمبراطور سلطانه مطلقًا في الولاية، حتى ليكون أن يقال إنه مارس معظم ما كان للملك البطالي من سلطان (1). بحيث أن جميع ما يقرره كان له قوة القانون في مصر، ولا يجد سلطاته سوى إرادة الإمبراطور وما وضعه من نظم عامة للولاية. فقد كان من سلطة الوالي مثلاً أن يقرر الفقيد، ولكن لم يكن في سلطانه أن يمنع أحداً حاكم الواطنة في مدينة الأسكندرية، لأن ذلك كان من سلطة الإمبراطور نفسه. وإذا عرض الوالي أمر لا يشمل ما منح من سلطان كان يرجع إلى الأسرة شخصياً ليقرر الأمر الأول. وعد ذلك كان له سلطة قيادة الحامية الرومانية في مصر وأن

---

(1) Digest. I. 17.1

(2) ويدو أن من مراعسة منح الوالي هذا السلطان الاستثنائي

Jones Legacy of Commia، أختر: Egypt, p. 288.

يستخدمها مباشرة لواجهة أي ظرف حسب ما يقتضيه، كما كان له سلطة تعين الموظفين وعزلهم ومصادمهم (عدا كبير الموظفين المعينين من قبل الإمبراطور).

ومن الناحية القضائية يعتبر الوالي القاضي الأول للولاية وأحكامه نهائية. وكانت له دوره القضائي، ليتمتع بكاثيه في أجزاء مختلفة من مصر في أوقات مختلفة، حتى لا يضطر الأهل إلى أن يعرضوا إلى الأسكتدرية بأنفسهم. ومن الناحية الدينية كان يجمع بمنزلة كبيرة واهمراء عظيم من الكهنة، وعند زيارته للمابديعمل معاملة تقرب من معاملة الملوك. وبعبارة أخرى كان الوالي هو الرئيس المباشر للإدارة في مصر بكل ما في كلا الرؤية من معنى، لأن الإدارة الرومانية في مصر كما أراداها أغسطس كان طابعها الرسولي إلى أقصى حد (1).

بقي أنذكر كلمة أخيرة عن الحامية العسكرية الرومانية في مصر: يسبق أن بينا أن أهمية مصر الأساسية بالنسبة لروما ترجع إلى الفتح والثال الذي كان يرسل سنويا إلى روما على سبيل الجزية وإذا أضافنا لذلك ما استهله الصليبيون في ذلك الوقت من كثرة ثرواتهم وخاصة في الجزء الأخير من حكم الأسرة البيزنطية بسبب ضعف ملوكهم؛ لذلك وجدنا أغسطس يقيم في مصر حامية احتلال كبيرة تسببا إذا قورنت بالحامية الرومانية في كثير من الولايات الرومانية الأخرى، وذكر استراوب أن هذه الحامية تكونت من ثلاث فرق وتمس سرايا وثلاث وحدات من الفرسان (2). وتقدر قوة هذه الحامية بحدود 8000 رجل.


Strabo, 17: 1. 12, (2) وясь عصر أعلان

118
طبيعة الكهنة المصريين الذين يثابون القبادة المنظمة الوحيدة للأماه (1).

تبيونوس: هذه هي أهم الأحداث التي حدثت في الأعوام الأول بعد فتح مصر زمن الإمبراطور أغسطس. ولي خلفه الإمبراطور تبيونوس بعث أحد أفراد الأسرة الإمبراطورية البارزين المرفوع باسم جرايمينيكس كحاكم جمهورية الشرق في آسيا، وانتهت جرايمينيكس فرصة وجوده في الشرق وقام بزيارة مصر في سنة 19. وكان يقصد من القيام بهذه الزيارة التعرف على آثار مصر، ولو أنه أدعى الحرص على مصلحة الولاة سبيلاً له. ولكن جرايمينيكس حين ذهب إلى مصر لم يستأذن من الإمبراطور، حسب قرار أغسطس بعدم السياح لأعضاء مجلس السناتو بدخول هذه الولاة دون إذن الإمبراطور. وزيادة على ذلك، وصل الأخبار للإمبراطور أن جرايمينيكس أثناء زيارته للأسكندرية لم يحافظ على المنظر الرسمي للحكم الروماني. بل سار بين الناس بغير جرس خاصة مرتفد الملابس الإغريقية، وانتشلا صدماً، كما فتح صواعف الغلال ورخص أسمار الفتح، لأنه صادف أن كانت مصر تمثل من قبل الفتح، وارتفاع أسعاره بسبب أخفض الفتيان في ذلك العام. كل ذلك قربه إلى قلب الناس، وجعلهم يشعرون عليه من مظهر التطيع والتجميع، مما يثير بشخص الإمبراطور فقط، حتى اضطر جرايمينيكس إلى إصدار أوامر ينهام عن ذلك.

ويسع أن الإمبراطور تبيونوس لم يرض على هذه الزيارة وجسميع ملاسائها، ولعله ضاقت ب أعمال جرايمينيكس وسلكائه الذي زاد من شمته بين الأهل. ويسع أن تبيونوس هذه الزيارة كانت تحقيقًا، حتى أنه أثار موضوعها في الحال في مجلس السناتو وهاجم جرايمينيكس، ولا شك ما.

Milne, Egypt, p. 11; and Camb, Anc. Hist. X, 290 (1) 

123
لمسلمك من حيث أخلاقه الزي الإغريقي وإنهاءه للظهر الروماني، ولكنه
أتخذ من عدم استذائه ذريعة لتوجيه أعنف النقد له لأنه قد خالف قاعدة من
قواعد الحكم التي وضعها أغسطس (1).

اشته تيريروس عامة بالجزم في الإدارة والمناية بشؤون الولايات خاصة،
ومن ذلك ما يروى أنه والى مصر في عهده بلغ في جمع الجزية حتى زادت على
البلغ المقدر سنويا، فلاعمه على ذلك، وقال له ك وجهه الشهورة «إذا أرسلتك
لتجزور الأغنم لا تساهها» (2). وهكذا من الدلالات ما يبين أن مصر قد
بدأت تدخل في هذه مرحلة النظام والاستقرار الاقتصادي وأن جهود أغسطس
لإحياء اقتصاد البلاد قد بدأت تؤتي مثمارها. وأهم دليل على هذا الاتجاه هو
إصدار عملة جديدة في مصر. ذلك أن أغسطس منح إصدار عملة فضية في مصر,
وأكنت من نصب رمزة في الأسكندرية دراهم بزنية فقط. و في
الوقت نفسه حدد قيمة العملة البرنزية بالنسبة للدينار الروماني الذي على أساسه
تقدر الجزية السنوية. أدركت تيريروس التهديد الذي ينجم عن نظام العملة في
مصر، ولذلك نظر إصدار عملة فضية جديدة من فئة الأربعمئة دراهمات (3)، و يبدو
أن هذه العملة كانت خليطاً من الفضة والبرنز، وكان لهذه العملة الجديدة
قيمة الدينار الروماني (3) ذاته.

Tacitus, Ann. II. 59. (1) أخى مصر من زيارة جرومانيسوس لمصر هو
(2) توجد ترجمة عربية للنص الذي في مكتبة مصر والإمتدادية الرومانية للدكتور
(3) تقدم دراسة نظام العملة المصرية في العصر الروماني من أعقاب الدراسات ويكنيها
Abd el-Fattah أحمد على س. 71-73. (7). وتوجد إشارات متبادلة أخرى لهذا الزيارة في Pliny, Nat. Hist. VIII. 173; Josephus, Contra Apion, II. 63; Suetonius, Tiberius, 52, 2; S. B. 3924; p. OX, XXV. 2435, early 1st. cent. A. D. (؟)
Dio Cassius, 57, 10. 5,

C. West and A. C. Johnson, Currency in Roman and Byzantine Egypt (1944) Chaps i—ii: Johnson, Roman Egypt, pp. 424 ff; and
id.: Egypt and the Roman Empire (1951) pp. 174.

124
ويعتبر إصدار هذه العملة أهم عملية قام بها تيريوس في مصر وخاصة من ناحية تنظيم علاقة مصر الاقتصادية والإمبراطورية الرومانية. فهو من ناحية نظم أمر تحديد الجزء السنوي ويست طريقة تبادلها وجمعها، ومن ناحية أخرى وضع أساساً ثابتاً للتبادل التجاري بين مصر والإمبراطورية، مما يسر عملية الدفع بالدينار أو تحويل الدينار إلى عملة مصرية جديدة مباشرة أو بالعكس.

وقد ظهر أثر هذا جلياً في مدى الانتشار العالى الذي أصابه تجارة الأسكندرينة في مصر الروماني.

فتنة عام 38 بين الأسكندريين واليهود:

ذكرنا من قبل أن الرومان نظروا إلى اليهود في مصر على أنهم جالية أجنبية يمكن إصلاحهم إلى جانبهم، فهي تختلف عن المصريين أصحاب البلاد الأصليين، وعن الإغريق الذين أكسبهم الفتح للقديم والاستعمار البطيء حقاً وقوة تشرأتهم بانتظامهما إلى البلاد. لذلك عامل الرومان اليهود معاملة فيها كثيرة من الخطابة، وبدأت هذه السياسة أغصان أثر جميع حقوق اليهود وامتيازاتهم، ومن بينها مجلس شيوخهم السامي جيروزيا (gerousia) في حين أن الأسكندريين - أرقى قوة بين الإغريق - لم يناما مثل هذه المعاملة وسلمو مجلسهم التشريعي السامي بولي (boulê) في الوقت نفسه كان الأسكندرانون يفوقون بالحكم الروماني أشد الفضيحة لأن سلطتهم محددة سياسياً، فأصبحت عاصمة لولاية رومانية بعد أن كانت عاصمة إمبراطورية مستقلة. ويبدو أن اليهود لم يتعوا بما كان عليه حالهم، وحاولوا أن يزيدوا من امتيازاتهم، فاعدوا لأنفسهم مواطنة الأسكندروية، وراحوا يترددون على يحاورهم المدينة ويعمون أنفسهم في مباراتهم وتدريباتهم. ويبدو أن خلافاً عنيفاً نشأ بين الأسكندريين واليهود حول مواطنة الأسكندروية وحق اليهود.
فيها. وراح كل فريق يفند أسائدة الجانب الآخر. وقد وصلنا في هذا الصدد كتابات بوسيفوس للإيوخ اليهودي الذي تولى أمر الدفاع عن وجهة النظر اليهودية. ولم يقتصر فيدفاعه على محاولة إثبات حق اليهود في موانعة الأسكندرية بسخاء الأساليب فحسب، بل جأ إلى مواجهة قادة الأسكندرية وأهلهم بزيج Contra Apionem انسجامًا إلى الأسكندرية، كافه في هجوم بري على أبيون في كتابه، ولكن لا ينبغي أن نأخذ ما يقال في هذه الاتهامات مأخذًا جديداً، فهي لائدة أن تكون نوعًا من الاتهامات السياسية التي تشكل أيام الحن والزمات السياسية.

لم يكن مستغرباً إذاً أن يضيق الإسكندريون بموقف اليهود ومحابة الرومان لهم، فأنقذهم هدفًا للتلفيق عن سخطهم على الحكم الجديد. وأخذت بوادر النزاع بين اليهود والاسكندريين تظهر جليًا منذ نهاية حكم الإمبراطور الثاني تيبريوس، حين اضطر الوالي على مصر ويسى فلاكوس أن يقوم بعملية جمع الأسلحة من الأهل. ولكن ذلك لم يجد شيئاً، وما إن تولى العرش الإمبراطور الثالث جابوس الملقب كاليجولا حتى شهد صراع مسلح بين اليهود والأسكندريين، فيفتب تختيم عام 283. وذلك عندما مرس الأسكندرية أريبيانا الملك اليهودي أثناء عودته من روما بعد أن وقع كاليجولا ملكاً على إيطاليا، وهي إمارة صغيرة إلى الشمال الشرقي من يهوداً (أي فلسطين).

وكان هذا الملك معاوقاً من قبل لدى الأسكندريين بأنه ريب القصر الإمبراطوري في روما، حيث تباهت العلاقات بينه وبين الإمبراطور الجديد كاليجولا، وأوسم اجتمعت معًا إلى درجة الإفلاس. فعجباً إذ رأوه يصبح ملكًا فجأة، فأطلقوا عليه أسسهم الحداد بالسخرية والتجريح. وما
كان أجريا صديقا للكاليفولا، خذوا أن ينضم الإمبراطور لسأ أصاب صديقه من إهاناته. فاخروا بلفسون على بيرون بها سمالكم، ووجدوها في إعراض اليهود عن عبادة الإمبراطور ورفضهم,Eقامة التماهي له في دور عبادتهم. فهاجم الأسركون اليهود واقتحموا دور عبادتهم محالين إقامة تماثل الإمبراطور بها. وذالك أحوجوا الولاء فلاكون أشد الإرهام. وقد سبق أن استشهد هذا الولاء الأسركونين وأغلق أندبرهم ومنهم من حمل السلاح. فإذا حاول هذه المرة قم الأسركونين، فارى يفسر ذلك بأنه عدم ولاء من جانبه للإمبراطور. وبذلك نجح الأسركونين في استكالة فلاكون إلى جانبهم، ولمهم تمكنوا من رصونه أيضا، فسلط على النحالي يدود جند الجيش الروماني يعذبهم الأسركونن بالقتل والسبل والرحب والتدوير. أمام هذه الخطة سيأتي اليهود إلى أجريا لبتوسط لدى صديقه الإمبراطور فتما نجح السعي وكان الإمبراطور قوة عسكرية إلى الأسركونن، دخلت إلها وأتقت القبض على فلاكون وأخذته إلى روما حيث حكمو وقثل في منفاه. عند ذلك أرسل كل من اليهود الأسركونن وفروا تمتامهم إلى الإمبراطور وتبرى ساحتهم من الأمه المتوجهة إلهم. وقد نص لناصف لهذه السفارات في كتاب، "سفارة إلى جايوس" للطوفان فيكون، رئيس الوفد اليهودي، ومنه نعرف أن هذه السفارات لم تسفر عن نتيجة ذات بال، لأن الإمبراطور شغل عنها بعض ستونه الخاصة

P. OX. 1089. 57 = Musurillo acts of the Pagan Martyrs, No. II.

In Flaccum, 2: وردت أخبار هذه الفتحة في كتاب الفيلسوف اليهودي ليابون، ed by Legatio ad Gaum; Box.
الإمبراطور كلاوديوس:

استمر النزاع بعد ذلك بين الأسكوندرين واليهود، بينما اجتهد الوالي الروماني في مصر قمع بشى الوسائل، حتى تولى كلاوديوس عرش روما عقب اغتيال جابيوس كاليجولا في 24 يناير عام 69. فأنهار الجانبان فورًا تولى إمبراطور جديد العرش وأرسل كلي منهم بعونًا تهت به الحمك وعرض عليه القضية برمتها.

ومن حسن الحظ أنه قد عثر حديثاً على بردية يونانية تحتوي على الرد الكامل لـ كلاوديوس وهو عبارة عن رسالة من الإمبراطور موجهة إلى الأسكوندرين (1) وكل عبارة فيها تتعلق بما اتصل به هذا الإمبراطور من الازن وسمة الحيلة. فهو في هذه الرسالة يتناول مطالب الأسكوندرين واليهود جميعاً ويرد عليها واحداً واحداً، على نحو يضع الأمور في نصابها وورى كلا من الأسكوندرين واليهود موقف الإمبراطور النهائي.

ومن دراسة هذه الرسالة نعرف كثيراً من الأوضاع الداخلية في الأسكوندرية. وبعض ما كان يعاني منه كل من الأسكوندرين واليهود وما كانوا يسعون للحصول عليه. فالإمبراطور كلاوديوس يضم رسالة إلى ثلاثة أقسام رئيسية (عدا المطلوب والردة والملتقطة): الأول للرد على ما رفعه إليه الأسكوندرون من آيات الوالد والتحديد، والثاني للرد على مطالب الأسكوندرين، والثالث خاص بمسألة اليهود في الأسكوندرية.

في القسم الأول من الرسالة يعلن كلاوديوس قبوله لبعض الاقتراحات الأسكوندرين بتكريره وتبديله، عن طريق الاختلاف ببعض ميلاده وإقامة عديدة تماثل له ولأفراد أسرته في أنحاء مختلفة من مصر، وإطلاق اسمه على إحدى

(1) H. I. Bell, Jews and Christians in Egypt, P. Lond. 1912.
قبول مدينة الأسكندرية، ولكن يرفض رفضًا تاماً اقتراحهم بتعمين كاهن خاص لعبادته وإقامة معابد خاصة لذلك، وينبغي إلى أن مثل هذه الفكرة تمس مشاعر معاصره، لأن الناس جميعًا أثروا أن يكون الكهنوت والمعابد للآلهة فقط، وهذا الواقع من كلا ديوس بين لنا مدى إثرائه وأنه لا يضع أمام الملابس والنيح.

وفي القدم الثاني يتناول كلاوديوس أمورًا أكثر أهمية تتعلق بنظام مدينة الأسكندرية، فمن ذلك مثل ما يتعلق بمواطنة الأسكندرية، التي كانت تمنح صاحبهاامتيازات جمة مثل الإعفاء من ضربة الرأس، وإمكان الحصول على المواطنة الرومانية مباشرة فضلاً عن المركز الأدبي المتزاى الذي كان يتمتع به الأسكندريون. من أجل ذلك حرص كثير من فئات السكان المختلفة على إقتحام أفسهم ضمن مواطني الأسكندرية دون وجه حق. ويدعو أن هذه المشكلة قد أصبحت مصدر قلق شديد للشعران على أمور المدينة، حتى أنهم اضطرلا آخر الأمر إلى رفعها إلى الإمبراطور شخصيًا. وكان رد كلاوديوس هو تثبيت المواطنة وامتيازاتها على كل المواطنين في عهده، استنادًا إلى كل من نسل جارية. وكذلك بوافق كلاوديوس على اقتراحات الأسكندريين بأن يكون اختيار كاهن العبد الإمبراطوري في المدينة يتم بطرق الاقتراح، وأن يكون مدة تولي الوظائف المدنية ثلاث سنوات. ويدفع الإمبراطور إلى ذلك قوله "سوف يتصرف الموظفون على نحو أكثر حذراً واعتدالًا حسب بقرب تقديم الحساب عن أي إساءة أرتكبها وهم في الوظيفة". ونفهم من إدخال نظام الاقتراح على وظيفة الكاهن أن تولي الوظائف الأخرى كان يتم بطرق آخرين ولم يعترض بأي شيء.

P. S. I., 1160 (early empire);
الوظائف بثلاث سنوات أنها كانت قبل ذلك غير محددة أو أطول من ثلاث سنوات على أي حال.

وفي ختام هذه الفترة يتناول الإمبراطور مطالباً إعراضاً على الأسكندريين طلساً سموا للحصول عليه منذ عهد الإمبراطور أغسطس نفسه، ألا وهو إنشاء مجلس تشريعي للمدينة، وهنا يجب على كلوديوس أن يكون على خدر فيا يقول، فهو يعرف مدى حرص الأسكندريين على تحقيق هذا المطلب، ولكنه يعرف أيضاً أن الإمبراطور أغسطس قد سبق أن رفض إجابتهم إلى رغبتهم، إن لم يكن هو الذي سلمهم مجلسهم التشريعي، ولكل ما صدر عن أغسطس من نظم وتشريعات لا يجوز كلويديوس أن يتناولها بالنقض أو التغيير، ولذا وجدناه يرد على طلب الأسكندريين بأنه سوف يتصل بوليوي على مصر ليبحث له الأمر، وفي الواقع كان معنى هذا الرد هو تأجيل النظر في السؤال إلى أجل غير مسمى كما يقول الآن:

بعد ذلك ينتقل كلويديوس إلى القسم الثالث من رسالته الخاص بالسالة اليهودية، وهنا تبدل لبيته في الحديث كل التبدل، فبدلاً من أصلب الجمالية والسياسة نجد صماع الكلامية والحزم، ويحكي كلاً من الأسكندريين واليهود، أنه لن يستك عاستير منازعتهم، فإنها يتضمن الأسكندريين بحسن معاملة اليهود بيوهيلود إلى حقيقة وضعهم في المدينة، لأنها ليست وضعهم الأصلي وليست وضعهم، وأن عليهم أن يممموا بما أتتح لهم فيها من وحد الوهيب ولا يسعوا إلى نيل أكثر مما لهم، ولعله يقصد مواطن الأسكندريه، ولا يثيروا القلق بإحضار مزيد من اليهود إلى المدينة من خارجها سواء من مصر أو من سوريا.

هذه هي رسالة الإمبراطور كلويديوس إلى الأسكندريين، وتبت من أهم

١٣٠
الوثائق التي وصلتنا عن مصر في العصور الرومانية، ونحن لا نعرف مدى ما أحدثته.

هذه الرسالة الحكيمة من تأثير في الخليفة بين الروم والروماني في الأسكندريه
ملىء بردات الجماعة المعرفة باسم أعمال الشهداء الوثنيين أو أعمال الأسكندريين الذين أن في عام 45 على أغلب الاحتفالات تدثب إليزدور وليميسون
من زعماء الأسكندريين للمحاكمة أمام الإمبراطور كلايدوس في روما، وكان
الطرف الآخر في القضية أجرياً في ذلك الوقت وصديق الإمبراطور (1).

البرديات التي تحتوي على أخبار هذه المحاكمة ناقصة ومبتورة في أكثر من
وضع بحيث لا يمكن الاسترخى معرفة دقيقة للدفعتين من أهلها حكّم إليزدور وليميسون،
ومع ذلك فإنه الوثيقة أهميتها الخاصة لأنها تعززنا مثال من أمثلة ذلك الأدب
السياسي الذي روج له الأسكندريون في جهادهم ضد الحكم الروماني وهو الذي
يطلق عليه إصطلاءًّ «أعمال الشهداء الوثنيين أو أعمال الأسكندريين» للتشابه
بينه وبين «أعمال الشهداء السGRESS» فيما بعد. وأدب الشهداء الوثنيين يمثل
زعماء الأسكندرية ومما كون ويعتبرون دفاعاً عن مدينتهم، مظاهر عن
ذلك ألوان من الجرأة والبطولة مما يضعهم في مصاف شهداء أصحاب البابا،
فإن النسخ المختلفة التي وصلتنا عن محاكمة إليزدور بفضل هذه المواقف المذكورة:

إليزدور: مولى قيصر، أرجوك أن تصنع مني قصة مأسى وطني.

الإمبراطور: صائبَ هذا اليوم.

وإذن قبلك على ذلك جميع أعضاء السنواد الحاضرين كمساعدين للإمبراطور
لعلهم من هو إليزدور.

كلايدوس قيصر: لا تقل شيء ضد صديق (أي أجريا). لقد سبق أن


131
 قضية على اثنين من أصدقائي، يُون رئيس المدينة (أ.ك.يجيبس)... لا مسون لإيزيدور: لقد أتت الموت بعده... كلويدوس قيصر: إذيدور، لقد قتلت كثيرين من أصدقائي.

إيزيدور: كنت أطيع أوامر الإمبراطور حينئذ. وكذلك بالنسبة لك، فآنا مستعد لإدانة أي شخص تشاء.

كلوديوس قيصر: أحق أنت براقة إذيدور؟ إذيدور: أنا لست عبداً ولا ابناً لراقة، وإنما جنابارخه مدينة الإسكندرية العظيمة. ولكن أنت ابن منبج، الناس اليهودية، ولذلك...

لا مسون لإيزيدور: قد لا تملك سوى الإذاعة لإراقة ملك مجنون (بند ذلك يتحدث كلويدوس، وتتهم أن الحكم قـد صدر بإعدام إذيدور ولا مسون).

وفي نسخة أخرى من المحاكمة ذاتها، يهاجم إذيدور الملك أجرياً؛ وذلك عندما يدافع عنه الإمبراطور، فيقول إذيدور: «مولاي قيصر، ماذا يملك من أمر أجرياً، وهو ينوي لا يسارى شروى نفر» كلويدوس قيصر:

ماذا تقول؟ إنك لأوقع الناس جميعاً...

هذا مثال من الأدب السياسي الذي استبد الأسكتندريون مادته من مواقف حقيقية في تاريخ صراعهم ضد السيطرة الرومانية. وهذا هو سر أهمية ذلك الأدب بالنسبة المؤرخ، فرغم البالغة التي قد تسببه السبب في وصف الوقت إلا أنه يعترف في أغلب الأحيان على معلومات حقيقية. ولذا فنحن لانشيك أن هذه المحاكمة حدثت في عهد الإمبراطور كلاوديوس وأن إذيدور ولا مسون

١٣٢
لقياً حققنا نتيجة للمحاكاة، كما توأيد ذلك بردية أخرى من القرن الثاني (1).

نيرون (44 - 98) 

بعد كلوديوس الحازم المعتدل تولى حكم روما نيينون الذي تميز شخصيته بالطرف والدمع والانتزاع في معظم مايصدر عنه. ورغم كثرة جرأته في روما، فيبدو أن ميله المحدود نحو الفن قد حمله يكن لمرأة كثيرة من الإعجاب بها ورغبة قوية لزيارة آثارها. ويقال إنه أراد أن يصيغ عصفورين حجر واحد، فاعتزم القيام بحملة عسكرية إلى إثيوبيا وراء حدود مصر الجنوبية، وفي الوقت نفسه يزور مصر ويشاهد آثارها الجميلة (2). وبذلك يكون قد أدى واجبه كحاكم من ناحية، وكذلك أرضى رغبته الشخصية من ناحية أخرى. ورغم الشروع في تنفيذ هذه الخطة الهائلة، إلا أن شيئاً من فعالية لقيام ثورة يهودية كبيرة في فلسطين، شغلت الإمبراطور وجوشه، وجعلته يحاول استعداداته من إثيوبيا إلى فلسطين. وما كان من الممكن أن تحدث مثل تلك الثورة في فلسطين ولا يكون لها صدى في مصر، حيث العلاقات بين الإغريق واليهود دافئة الثورة. وفموا نشب فتنة بين الفريقين في الأسكندرية، وكان يرون في عام 66 قد عين والياً على مصر تيبريوس بوليوس إسكندر، وهو من حيث النشأة يهودي مصري من الأسكندرية، ولكنه ارتد عن دينه واكفلت المواطنة الرومانية وأمكنه التدرج في سلك الوظائف الرومانية. وقد حاول تيبريوس إسكندر أن يصح رؤساء الجالية اليهودية التزام الحكمة، ولكن دون جدوى، فاضطر إلى أن ينقل قوات الجيش الرومان للعسكر في مسرك نيقورليس (مصطلح كامل برمل الأسكندرية) وأن يوجهها إلى مصدر الثورة.

Musurillo, acts, No. XI. 78–80.
في منطقة اليهود، حتى ليقال إن خسرين أكانا منهم هلكوا في تلك الفتنة.

ويبقى مع هذا كله أن مصر لم تضرب عن فكر نيوم، فهنا يسمع بثورة الجند ضدّهما، واختيار جاليا إمبراطوراً، فكر رأى أن ينزل في مصر، أو أن يطلب أن يعين والياً عليها.

فسيساني (69-79)؛

كان العام الذي أعقب مقتل نيرون (68-69) عاماًً فوضىً وتواجد فيه على العرش أربعة أباطرة: جاليا وأوتو وفينيسيوس وفسيساني. وقد عرف هذا السبب بعام الأباطرة الأربعة، فلم يكن الإمبراطور يستقر على عرشه سوى أسبعين أو أشهر قليلة وذلك بسبب تدخل الجيش الروماني في النزاع بين السلطة والملك. فكان الجنود ينتحلون ويعزلون الأباطرة حسب أهوائهم المفترضة. ولم تتدخل الجيوش في الولايات الشرقية في علامة تعيين الأباطرة وعموماً في أول الأمر، حتى إذا كان عام 69 أعلن فسيساني قائد الجيش في سوريا نفسه إمبراطوراً، وقد بقي مركزه غير مؤكد حتى أول يوليو حين أعفر والي مصر مناصراه له واخضاع له بين البرية من الجيش الروماني في الأسكندرينة، وكان لازال فيهما إمبراطوراً آخر له وراء الجيوش الشرقية. عند ذلك أوجه فسيساني نحو الأسكندرينة ليعزز الإمبراطور القام في روما وهو فينيسيوس من هناك، عن طريق منع إرسال قُم مصر إلى روما. ولكنهم لم يضطرون إلى تنفيذ تلك الخطوة لأن الجنود في الولايات الغربية وقُم روما أعلانوا ولاهم فسيساني بسرعة لم تكن متوافقة. هذه الحادثة تدل على مدى خطورة مصر بالنسبة لروما، وليس أدل على ذلك من أن فسيساني اعتذر تاريخ بعده حكم منذ أول يوليو عام 69 وهو تاريخ إعلان والي مصر وراءه له، رغم أن الإمبراطور نيوميس بقي متربعاً على عرش روما حتى 21 ديسمبر من العام نفسه.
وقبل أن يذهب فسبيان إلى روما حضر إلى مصر لأخذ البيئة نفسه.

فاستقبل الناس في الأسكندرية استقبالاً رائعًا، وعانوه معاملة الاله. وسرعان ما أظهرت له مجعات فائدة ضريرًا، ورد ذا عادة سليماً عمارًا. ولكن بعد أيام النشوة والفرح الأول باستقبال أول إمبراطور بحضر إلى مصر شخصيًا منذ أغسطس، سرعان ماتبين الأهل أن إمبراطورهم المؤلف ليس سوى رجل أعمال دقيق، يعرض صالح خزائه قبل كل شيء، فزاد الضرائب وتشتد في جبايتها إلى آخر دهم. وهنا أطلق الأسكندرىون عليه ألمتهم الحداد بالسخريه، وأطلقوا عليه من الأسماء كل ماهو ساخر لاذع حسب ماتوفي الناسبه. من ذلك أنه طالب أحد الأفراد بمبلغ ستة أوبيل (وهو مبلغ زهيد لا تحديده على ثلاثة قروش)، فأطلق عليه أهل الأسكندرية لقب «أبو ستة أوبيل» فاقتم منهم فسبيان بأن فرض على مواطني مدينة الأسكندرية ضريبة الرأس بنفس القدر وهو ستة أوبيل. وهو مبلغ تافه، ولكن مجرد إخفاق الأسكندرىين لضريبة الرأس. كان يعتبر إهانة ومناسكاً بمكانهم، نظرًا لأنهم كانوا من الأثرياء وكانوا يعتبرون بهذا الامتياز كل الاحترام على أي حال يقال إن تيوتوس ابن الإمبراطور شفع للأسكندرىين وألقى الضريبة.

ومن مصر أرسل فسبيان ابنه تيوتوس مع جيشه من مصر لбитولى أمر حصار بيت المقدس. وقد انها هذا الحصار بسقط بيت المقدس وتدمر المدينة نهائيًا سنة 70، الذي يعتبر تاريخ نهاية دولة بيت المقدس في فلسطين. ويدعو أن بعض عناصر من يهود فلسطين فرث إلى مصر وحاول تأليب اليهود بها الثورة ضد الرومان، ولكنهم لم يصنعوا نجاحاً كبيرًا. وبعد عودة تيوتوس إلى مصر، أظهر كثيرًا من التوتو والعطف نحو الأهل، كما شهد حالة تكريس.

Milne, Egypt under Roman Rule, 28 ff.

(1) من فسبيان في مصر أظهر 28 ff.
عجل أيس إلهًا، مما زاد من تعلق المصريين وجبهم.

وإبعد أن ظاهرة الإجلال التي أبذاها تتوسع نحو آلهة مصرية تمثل أجاها جديدا في السياسة الرومانية نحو الدولة المصرية، لأن الإمبراطور دوميتيان من بعده (98-117) أنشأ معابد في روما ذاتها لكل من أيزيس وسرايس. ورغم أن هذه الآلهة - وخاصة إيزيس - كانت معروفة ومعبودة من قبل في روما وإيطاليا، إلا أن إنشاء الإمبراطور مادب خاصة لها في روما كان بمثابة اعتراف رسمى بهذه الآلهة، بعد أن استمرت تمد هنالك بصورة غير رسمية.

ترجان (98-117)

تنشط الحياة السياسية من جديد بصورة جديدة في عهد الإمبراطور تراجان. وتتألف عدة عوامل لإثارة الشموع العام وبحث روح الثورة، من ذلك سوء إدارة وسلوك الوالي الروماني في ذلك الوقت، ولكن أخطر من ذلك حدوث مجاعة بسبب اختناص النبيذ، وأخيراً تجدد الصراع بين اليهود والعرب.

وبدأ تاريخ مصر في عصر تراجان بالحادثة الأولى الخاصة بالوالي الروماني، إذ قد وصلت لنا منها بردية على جانب كبير من الأهمية. هذه البردية هي إحدى وثائق أعمال الشهداء الوثنيين (1). وهي تصف محاكاة الوالي لمصر أمام الإمبراطور في روما؛ وتولى أمر مهابته التحدث باسم وفد الأسكندريين للمائتر أمام الإمبراطور لهذه المناسبة. وما تتكون هذه البردية تعريف أن الهم للوجهة إلى الولاي المحم، ويسمى فيبيوس ما كسيموس؛ متعددة متشابهة، وهي الإمبراز والري واستغلال السلطة والتصبح مع خالفة القانون إلى جانب

Musurillo, acts, No. VII.

136
الفساد الأخلاق والأخراف الخلقية. ويدل المتحدث بأقواله في قوة وثبات، وفِ
كل مرة يأتي بالأذلة التي تدين الوالي، ويقف وقفة طويلة عند موضوع الفساد
الخلقية ويفص في حال الوالي يغلم وظهوره معماتن. يبي إلى الشعور المام
ورغم أن النبهة الأصلية هي نبهة الإيطلاف، فإن إيراد النسائ الآخليات كان
القصود منه إثارة الإمبراطور ضد الوالي وكبه إلى جانب الأسكندر،
ولا يبد أن كاتب البردية قد أهمهم في اللبلان أيضاً بعض الشيء ليزيد من
المنصر الروائي للمحاكمة، مما يتفق وطابع أدب الشهداء الوثنيين، خاصة وأن
المهذف الأساسي من حفظها ونشرها هو الدعاية ضد الحكم الروماني في مصر،
وما لا شك فيه أن هذه النعم والشكاوى أنهم أنغما ولية ما كيسيوس على مصر
في شيء كثير من الخزى، حتى أن اسمه أزيل من ثلاثة قوشي عثر عليها(1).

ولعل ما سمعه تراجان من سوء الحكم في مصر حفزه على الاهتمام بأحوال
هذه الولاية، فأن أنتب بمصر الجامحة بسبب أخفاض فيفان النيل، اهتم
تراجان بالأمر كل الاهتمام، فأرسل إلى مصر أسطولاً عظماً بالفلاح ما كان
محفوظاً لحاجة روما، وبذلك خفف من ضعف البلاد(2).

ولكن سبابات اضطراب جديد أخذت تتجمع في أحياء البلاد، إذ أخذت
النزاع التقليدي بين اليهود والبرطيق يظهر من جديد، ولكن يبدو أنهما
كانت حركة قصد اليهود من ورائها إجماع الحكم الروماني عموماً، بدأت
من الأسكندرية ثم أصبحت هناك(110 أو 115)، وأرسل بعض زعماء اليهود
والاسكندريين للمحاكمة أمام الإمبراطور الروماني، كما توضح إحدى برديات
 أعمال الشهداء الوثنيين المعروفة باسم "Acta Hermaica"(3).

I. G. R. 1148; 1175; 1357 = C. I. L. 14148a. (1)
Pliny Jun. Paneg., 31–32. (2)
Musurillo, Acts, No. VIII. (3)

137
ومن هذه الورود نفّذ أن أفلاطونا، زوجة الإمبراطور، كانت متشعبة إلى جانب اليهود، وأنها سعت للتأثير على تراجع ليكون في جانب اليهود. وبدرك هرمسكوس هذه الظاهرة، وبهرها في حده إلى الإمبراطور، إذ يقول له إن مجلس الخاص باليهود، في ضبط الإمبراطور، ولكن هرمسكوس يستمر في تجربة الإمبراطور في نبأ تام أن، إن أن ذكر اليهود إذا كان الأمر كذلك؟ فأولى بك أن تساعدني قومك وأن لا تتصدى للدفاع عن اليهود المذكورين.

وتلقي الوردة بعد ذلك دون أن تذكر نتيجة المحاكمة ولكنها تذكر أن معجزة حلت حينئذ، وهي أن تمثال الإله سرابيس الذي كان يحمل الأموك الأسكندرى تسب عرقاً في يده؛ فذهب الإمبراطور وصباح الناس في روما وهرعوا إلى الجبال خشية نذير الإله.

وبدو أن الاضطرابات لم تحدث في الأسكندرية بعد ذلك في عام 114خم.

أغدت في الحال. ثم أتى اليهود فرصتي انشغال الإمبراطور في الحرب ضد البارثيين في الشرق حتى أشعلوا نار ثورة جايرة في أنحاء مختلفة من مصر وبرقة: واستطاع أن يسيطروا على البلاد ببعض الوقت. وعجزت الجيوش الرومانية القليلة الموجودة في مصر عن مواجهة الوقت، فاضطر والي أن يبني إلى تجديد الآهالي في فرق محلية في كل نوموس أو مقاطعة تحت قيادة الحاكم المحلي (Strategos) وخم حسن الخط أن لديها مجموعة كبيرة من أوراق الوردة خاصة بأبولونيوس (1) استراتيجوس إحدى مقاطعات الصعيد وتلقى ضوءاً على ظروف


138
هذه "الحرب ضد اليهود" كما أسموها الأثرياء. ونعرف من أوراق أبولينيوس أنه لم تحدث معركة فصلة بين الجانبين؛ وقام استراتيسوس كل نوموس بحماية الأثرياء المسلمين لتأمين منطقته وتصيد الثوار المارين من اليهود حتى قضى عليهم تمامًا.

ومن الإجراءات العسكرية التي تمت على عهد تراجان في مصر إدخال بعض التعديل في الحامية الرومانية، وإقامة حصن جديد عند رأس الفناء وهو المعروف باسم حصن بابلون؛ ومنذ هذا التاريخ بقي هذا الحصن من أهم نقط الدفاع عن مصر.

هادريان (117 – 138): وفى هذه شهدت مصر ثلاث زيارة من إمبراطوراً رومانياً؛ إذ حضر هادريان إلى مصر في شتاء عام 130 عن طريق فلسطين والفرما إلى رأس الفناء ثم سرد في جنوب مصر إلى طيبة ثم عاد إلى الأسكندرية. وما بين ذلك أن الهدف الرئيسي للرحلة هو التقييم على ولايات الإمبراطورية الشرقية، ولكن هذه الزيارات في مصر تأخذ عادة طابع الرحلات السياحية فقد اهتم هادريان أثناء وجوده في السياق بدراسة أحوال البلاد قدراً ما اهتم زيارته معلماً آخر ومصر النهرين وكان من أجبه إلى تفسير الرواة حيث ذكر زيارته مماثلة ممنون الذين كان يخرج منها صوت جليل عند مشروق الشمس بفضل تبخر الندى وهبوب نسيم الصباح.

ومن أعمال هادريان في مصر هو إنشاء مدينة يونانية جديدة؛ وهي مدينة أثينيوبوليس؛ فكانت أول مدينة يونانية ينشئها الرومان في مصر إلى جانب المدن الأربعة السابقة. وقبل أن هادريان أسس هذه المدينة مُخالفًا لأحد أفراد حاشيته الذين إلى الذي يسمى أثينيوس والذين توفي أثناء الرحلة المصرية. ونظرًا لمثل هادريان القوى إلى الحضارة اليونانية فقد أراد أن

139
تكون هذه المدينة بمثابة مركز جديد لنشر الحضارة الإغريقية في صعيد مصر، ولذا جعل موطنها من الإغريق في مصر، الذين نقلهم من مدينة بطلية ومن الجالية الإغريقية في القيم المروفة باسم «القرن 4» إغريقيا لستهريين في مقاطعة أرسنو، وقد تمت مواطن هذه المدينة بجميع النظم المألوفة في المدن اليونانية كما كانت في مدينة قبرات القديمة. بما في ذلك مجلس تشربي الذي كان يتعين عليه كل الاعتراف ومن بين ما يميز به موطن أثينوبوليس أيضًا هو تتميم بمجرد الزواج من مصريات، وهو ما لم يتمتع به المدن اليونانية الأخرى في مصر (1). ولعل هادريان أراد من وراء ذلك محاولة إيجاد جيل يجري في عروقه الدم المصري ومثقف ثقافة يونانية، ولكن بسر المدينة الجديدة سبيل الازدهار الاقتصادي مد طويلاً أسندها وبين بروتسية على البحر الأحمر، وزوّد هذا الطريق بمجلات للحراسة والموارد (2). وهو مشروع عاد على المدينة بالخطر العميق، لأن تجارة مصر الشرقية كانت في ذلك الوقت قد بلغت ذروة من القوة والنشاط وشملت الهند، وبذلك استطاع هادريان أن يربط مدينة الجديدة منذ نشأتها بمجلة الاقتصاد المصري.

بعد رحلة الصيد ذهب هادريان إلى الأسكندرية حيث أعلم حمته للسكتبة والوسوء، وجلس مع العلماء وتحدث إليهم، كما زاد عددهم في إضافة عدد من العلماء المنقليين إلى سجل علماء الوسائي (3). وكان لاهتمام هادريان بالثقافة اليونانية في مصر أثر واضح في بعض نشاط في ذي طابع يوناني جلي في الرسوم الجميلة لوجه الأفراد التي وجدت

على عدد من النوميات المحفظة، والتي عثر عليها في منطقة القيروان، وبلغت أوجهاً
الفتي في منتصف القرن الثاني (1) .

Antoninus Pius (138 - 161)
رغم طول مدة حكمه فإن تاريخ مصرف السياسي في عهده يكاد يكون خالياً
إلا من ثورة جاهدة في الآسكندرية تجاهل إصابتها، ولكن نعلم أن الوالي الروماني
ذهب ضحيةها (سنة 153) . وقد قام الآسكندرية كثيراً جزء ثورتها،
ولكن الإمبراطور بعد ذلك حضر لزيارة المدينة وأقام بها بعض النشاط مثل
ميدان السباق، وباب الشمس في الشرق، وباب القمر في الغرب.

Marcus Aurelius (161 - 180)
في عهد هذا الإمبراطور الحكيم الفيلسوف بدأت الإدارة الرومانية في
مصر تتكشف عن عوبيها الحقيقية. فقد ثورة المصريين ضد جبة الضراب
الرومان في عصر الإمبراطور أغسطس لم يشترك المصريون من أهل الريف
اشتراكيًّا في حركة ضد الحكم الرومانى وظلت الفتن والثورات قاضية
على أهل الآسكندرية واليهود. أما منذ منتصف القرن الثاني لم يستعل المصريون
احتلال شدة وطأة الحكم الروماني ونظام الضراب، ورهق ضريبة الضراب، وضرائب
الأراضي المطيدة، وضرائب التجارة، وضريبة الوعو، وضرائب الملح، وضرائب
الخدمة والعمل الإجباري، فكانت ضريبة القمع وضربة الرأس، وضربة الضرائب
الأرض المطيدة، وضرائب التجارة، والصناعة النموذية، كانوا على الأهل.
أن يقوموا بأعمال الإجبارية خانة تتدرج من قيود وأوامر مختلفة في الإدارة
المحلي إلى تسخير ما يملكه الأفراد من دواب وفي سبيل نقل الفنادق من القرى
إلى الآسكندرية، وحتى بعد ذلك في السفينة إلى روما . وتأتي في الدرج الأسفل

Edgar Cairo Catalogue, Graeco-Egyptian Coffins, (v)
p. XIV; Hilde Zaloscer; Potrats aus dem Wusten—Sand, (1961)

148
من هذه الخدمات الأعمال اليدوية مثل بناء السدود والمجريات وتوهيد الأرض، وتشييد الطرق والقرى والمدن. وكانت هذه الأعمال تفرض على الأهل كرها دون أجر، كل حسب منزلته وأملاكه. فالعمل الأخر للاكتمال والعمل الأحرق أكثر قربا. ولكن جهود الأباطرة الأوليفنى شق الطريق العمل على إصلاح الأراضي وتحسين الحالة الاقتصادية عموما إلى جانب، وجود الجيش الروماني الذي أشرف على تنفيذ غزوات الإدارة الرومانية، كل ذلك كان كفيلة باستمرار سير العمل ومنع الفساد من التنصهر في القيام بمسؤولياتهم نحو الإدارة الرومانية. ولكن حين أتمت التغذية والصرف وتعاقد بعض الفنادق والأسواق مثل الأبراج في عند الإمبراطور تراجع ساءت ظروف الزراعة كثيرا ولم يقبل الأهالي على استيرادهم لعملهم بدء جذورا جهودهم وأن لم أعملهم يستهلك الرومانيون أن يبيعهم من موادهم يبدكون. ولا يد أمل في خطرة الأحوال الزراعية من أن كثيرين من أصحاب الأرض لجأوا إلى الفرار من أرضهم لجذبهم عن دفع الضرائب. وكانوا يلجأون إلى البلد الكبري وخاصة الأسكندرية حيث يمكنهم الاحتفال والإيجار على عل في خضم حياتهم التجارية والصناعة النشطة. فإذا أدرت أمهام سبيل الحياة في الأسكندرية لجأوا إلى أراضي شمال الدلتا ومستنقعاتها ليخربحية تشرد فتراً.

هذه هي الحالة التي واجهتها الإدارة الرومانية في مصر في الجزء الأخير من القرن الثاني، وكانت أول نتيجة لهذه الحالة السيئة أن انتهى المصريون إرسال الحامية الرومانية للحرب في منطقة الدلتا، فقاموا بشورى عنفية تحت زعامة أحد السبائيين بعثا إلى الإيطاليا سنة 172، وكان مركز الثورة هو منطقة شمال الدلتا. ونشير أن حركة إيطاليا كانت من القوة بحيث أن القوات الرومانية

١٤٢
الموجودة في البلاد عبرت عن مواجهتهم حتى كانت الأسكندرية ذاتها تتوقف في أيدي الثوار. وإيقاف الوقف في مصر اشترطت روما إلى إرسال قوات من سوريا بقودها الحاكم هنريملك النسي أفيديوس كاسيوس (Avidius Cassius)، وبدلاً من أن يقابل الثوار في معركة فاصلة، لجأ كاسيوس إلى الحيلة والمكيدة وإحداث الفرقة بين صفوف الثوار، حتى يجع في استيائها بعضهم، ثم يسحب من تبقى منهم في شكل جماعات صغيرة حتى قطع على الثورة.

ولكن ما إن أخذت ثورة المصرين حتى واجهت روما في مصر نتائج أخرى، أشد خطورة، صاحبها ومدرها هو القائد الروماني المنتصر نفسه أفيديوس كاسيوس. وقال إن كاسيوس تأمر مع الإمبراطور فوستينيا على احتدام الحكم بعد موت ماركوس أوريليوس، ولم يثبت نياً كاذب بموت الإمبراطور، اندهس كاسيوس في التفكك عن مؤامته وإعلان نفسه إمبراطوراً وأخذ البيعة من الجنود في عام 175. ولم تتردد مصر كثيراً وعلى رأسها مدينة الأسكندرية في مناضلته لأن المصريين في ذلك الوقت كانوا يؤيدون كل انشقاق أو فتنة ضد السلطة المركزية في روما، وليس ذلك عن حب في الثائر أو التشكيك ولكن كرا للسلطان الروماني عموها. ويبدو أن مثل هذا الشهور كان شائعاً أيضاً في الولايات الشرقية، إذ سرعان ما اعترف به السوريون وغيرهم في الولايات الشرقية. ولكن ثورة كاسيوس فشلت بنفس السرعة التي قامت بها، إذ ألغائه أحد ضباطه بعد مضى ثلاثة أشهر من قيام ثورته.

وفي العام التالي (176) زار ماركوس أوريليوس الولايات الشرقية بما فيها مصر، وبديلاً من أن ينتقم منهم لانصرتهم ثورة كاسيوس عفا عليهم وأظهر
من ضروب الرجفة والشفقة ما يتفق وما اشتهر به هذا الإمبراطور من الحكمة والفلسفة. لقد أكنى بعزل الوالي ونفيه وكذلك أفراد أسرة كاسيوس ذاته وكان التوقع أن يصدر عليهم جميعًا الجزاء التقليدي القتل والتشقين وهو الإعدام.

Commodus: (176 - 192)ـ

لم تستمر طويلا سياسة المسألة وروح العطف والتسامح التي تابعتها ماركوس أوريليوس، إذ كان ابنه خليفته كومودوس على النقيض من ذلك، ميلاً إلى العنف والانتقام. فأثار الأحكام القديمة وصمم على تعقب أسرة أنيبيوس كاسيوس وقضى عليهم جميعًا، كما انتقم من الأسكندريين فأكم زعماءه وقتل كثيرين منهم، وقد وصلنا بردية من عهد الإمبراطور كومودوس تعتبر مثالاً من حماسة أعمال الشهداء الوثنيين. وتعتبر هذه القيادة على أجزاء من محض محاكمة هليودوروس (ابن كاسيوس؟) وأبيانوس رئيس جنائزوم الأسكندرية. وبين الحوار الذي دار بين أبيانوس والإمبراطور مصلى الكركاوية التي احتفظ بها أهل الأسكندرية ومصر عامة تجاه الحكم الروماني، كما تكشف عن جوانب من سوء الحكم وكذلك عن شخصية كومودوس نفسه. ولعل من الناسب أن نورد ترجمة القدرات الراهنة من هذه الوثيقة:

أبيانوس: . . . الذين يرسلون القمع إلى الدين الآخر، فيجرون باربعة أضف منهم، حتى يعفوا ما ألقوا.

الإمبراطور. ومن الذي يأخذ هذه الأموال؟

(1) من ثورة كاسيوس وملك أوريليوس الملم حياها أنظر: Historia Augusta, Marcus Aurelius Antoninus, 25-26; and ibid, Avidius Cassius, VII.
أيبانوس: أنت
الإمبراطور: أوافق أنت من ذلك؟
أيبانوس: كلا، ولكن سمعنا ذلك.
الإمبراطور: ما كان ينبغي أن نشر هذه الدعوى قبل أن نستيقظ من النوم؟
(إلى) البجلاد
وفي موضوع آخر، حينما يعذب أيبانوس إلى ساحة الإعدام يرى هليودوروس
يفعل له:
أليس لديك ما تقوله على هليودوروس بيننا أنت أساسا إلى الموت؟
هليودوروس: لن يكنا أن نتكلم، إذا لم يكن هناك من يسمع اليتا؟
فاضم باني إلى الموت، ذلك المجدد، إذا أنت تموت من أجـل وطلك
البجلاد، فلا تبتش.
عند ذلك يستدعى الإمبراطور أيبانوس مرة ثانية ويقول له:
ألا تعرف إلى من تحدث الآن؟
أيبانوس: (أجل) أيبانوس يتحدث إلى طاغية.
الإمبراطور: لا، بل إلى ملك.
أيبانوس: لا تقلن أنت هذا! كان يقت ووالدك أنطونيوس للوله أن
يكون إمبراطوراً. ولتعلم أنه كان أولاً فلاسوفاً، وثانياً زاهداً، وثالثاً خيراً.
أما أنت ذلك عكس هذه الصفات: طاغية وشرير وفاسد الأخلاق.
فأمر قيصر بأن يساق أيبانوس إلى الإعدام. وبينما كان أيبانوس يؤخذ
بعداً قال:
امتحني شيئاً واحدا، يا مولاي قيصر!}

145
الإمبراطور: لماذا؟

أبيانوس: امتنع أن أعدم وأنا أرتدى شارات الشرف الخاصة بي

الإمبراطور: لك ما سألت (1)

هذه قوات من هذه المحاكم الهامة، لم تشمل عليه من إشارات لها
دلائها التاريخية. من ذلك ما يهم أنه أبيانوس الإمبراطور من أن الرومان
كانوا يمارسون تجارة خفية وهي أخذ القمح من مصر ويبيعه في الخارج بأربعة
أضعاف مبيعه الأصل. كما تكشف كتابات أبيانوس عن مدى التقدير والحلم الذي
احتفظ به أهل الأسكندرية لذكرى الإمبراطور أوريليوس، فوصف بالفلسفة
والزهد والطيار، وهو ما لم يوصف به الإمبراطور روماني آخر. جميع أعمال الشهداء
الذين يرغب عليها، كسبب أن ذكرناه طابعها وجاهزية الرومان عموماً.
ويتضمن
من هذه المحاكم أيضًا التي حدثت حوالي العام 190، أنه تحدى أكثر من مائتي سنة من
الحكام الروماني أن جذوة المقاومة لازالت متوقفة في نفس النصوص للمصريين؟ بل تلاحظ
في هذه المحاكم أن الوقف أزداد صرامة إذ غاب عنصر النزاع مع اليهود
وأصبح الصراع ضد الرومان وحدها. ولعل وجيزين للسياسة في روما قد
بدأوا يخشون من ازدياد تفاوت الأحوال في مصر، وخاصة بعد ثورة الريعة في
شمال الدلتا وثورات كاسيوس بعد ذلك وضعت الحصود، فقام كومودوس ببناء
أطول جدير لنقل العجل من شمال إفريقيا إلى روما، لكي يكون مواجهة الوقف
إذا أتى قمح مصر (2). هذه الخلوة الهامة لم تقدم على الرومان إلا في نهاية
القرن الثاني مابين مثل أن الأحوال في مصر لم تدم تبعث على الإطاحة الكامل.

مسيويلو. أكتسابو، No. XI "Acta Appiani".
Historia Augusta, Commodus, 17. 7.

146
يعتبر القرن الثالث للميلاد من أخطر فترات التاريخ لأنه يمثل مرحلة الانتقال - السكروى من الحضارة القديمة إلى حضارة العصور الوسطى. وكما يحدث في فترات الانتقال السكروى تكاثر الأزمات المختلفة في المجتمع من سياسية وإقتصادية واجتماعية ودينية، وذلك لأن النظام القديم تتكشف عن عيوبه وقصوره أمام الظروف الجديدة فتنهار، بينما تأخذ نظام جديد أو متطور عن النظم القديمة في الظهور. وهذا ما حدث في القرن الثالث في الإمبراطورية الرومانية. لكن ليس هنا مجال الحديث عن أوضاع الإمبراطورية عامة، وإنما سنكثني من ذلك بما يمس مصر فقط.

ومن أبرز معالم التاريخ السياسي لهذه الفترة كثرة الانقسامات السياسية، والتنافس حول العرش وتدخل الجيوش في هذه المسافات السياسية، يمينون الأباطرة ويعزونهم أو يضعفونهم حسب انتصارات وانجازاتهم ونتائجهم. وتلاحظ أنه كان المصريون موقف بلغهم يكون موحداً في أثناء ذلك كله، وهو مناصرة لكل وعي للعشر أو ثائر على السلطة المركزية في روما. وكان السبب الأساسي لهذا الموقف من المصريون هو كراهيتهم الشديدة للحكم الروماني. وقد رأينا منا من ذلك في ثورة أفيديوس كاسبيوس ضد الإمبراطور الحكم ماركوس أوريليوس. وسوف تتكرر الأمثلة بعد ذلك في خلال هذا القرن.

سيتييوس سفيروس (Septimius Severus) بعد موت كومودوس تولى العرش برتيناس كي (Pertinax) في أول يناير (193-211)
سنة 1936، ولكن لم بЙق في الحكم سوى ثلاثة أشهر حتى تزامن معه على أيدى بعض فرق الجيش في 28 مارس سنة 1936. بعد ذلك تنافز الحكم عدد من الأفكار، ورشحت الجيوش المختلفة من سينيروس سيفيروس باوليوس (منطقة الدانوب) وأليينوس في شمال القالة ونجاح في سوريا. وقد ناصرت مصر حاكم سوريا فصدرت بإنهام العملة كما استخدم اسمه في تاريخ الوثائق أيضاً، ولكن سرعان ما تمكن سينيروس من القضاء على منافسه الواحد بعد الآخر.

وذلك للامبراطورية بأسرها.

وفي سنة 199-200 زار سينيروس مصر وقام بالجولة المألوفة للساحل الرومأوي في ذلك الوقت، وهي زيارته بعض معالم الأثار المصرية ومنها تثبيث ممنون بطبيعة الحال. ويقال إن سينيروس أصلح قاذف جزء أفلاطون، ولكن تتوج عن هذا الإصلاح توقف صدور الصوت الذي كان يبث منه عند شروق الشمس، ولكن زيارة سينيروس لمصر لم يكن مجرد الزهوة أو السياحة والتوريج عن النفس، بل كان هدف ونتاج على جانب كبير من الامور. فلا بد أن سينيروس كان على علم تمامًا، وصلت إليه الأحوال في مصر، فقد ساءت الحالة الزراعية كثيرًا في الجزء الأخير من القرن الثاني، وأصبح الخراج الإداري بعجل كبيرة تأثرًا تأثرًا إذ تُذكَر وجود عدد كاف من أصحاب الأراضي لترتب جميع مناصب الإدارة المحلية في الفئات المختلفة. وكان لا بد من القيام بإصلاح أساسي لتعزز الحالة قبل أن ينهار النظام الإداري في الولاية تمامًا، وهذا أقدم سينيروس على إدخال أول إصلاح جذري على النظام الذي وضعه أغسطس لمصر منذ أكثر من قرنين من الزمان. ويتخلص إصلاح سينيروس في أنه قرر إنشاء مجلس تشرعي (بوني) في الأسكندرية وفي مراكز الفئات (نيوتروبوليس وجمعية متروبوليات) ووصف تناول أهمية هذا الإصلاح في معرض الحديث عن الإدارة، ولكن يمكن هنا أن نقول إن الهدف الأساسي...
من هذا الإصلاح لم يكن العمل على تقوية النظم السياسية الحرية في المدن، بل جعل هذه الجماعات التشريعية الجديدة مسؤولة عن ملء الوظائف الإدارية في المدن، وبعبارة أخرى ألقى عبء الإدارة المحلية على كاهل أعضاء هذا المجلس التشريعي. بدلاً من سلطات الإدارة المركزية. يجب أن نذكر هنا أن المدن في الولايات الرومانية الأخرى كانت تحت من قبع نظام المجالس التشريعي، وكانت مصراً ثانياً من هذه القاعدة. وهذا يعتبر إنشاء المجالس التشريعية في مدن مصر محاولة لتوحيد نظم الإدارة والحكم بين مصر وسائر ولايات الإمبراطورية.

(211 - 217) Caracalla

كان تشريع سيفيروس الخطوة الأولى في محاولات إصلاح النظم الرومانية. وقد أعقبتها خطوة ثانية على جانب كبير من الهمة. ذلك أن ابنه وخلفاه الإمبراطور كاراكلا أصدر في عام 212 تشريعاً هاماً لحماية محياً لمواجهة الامية الرومانية جمع سكان الإمبراطورية من الأحرار. وفقاً من المصادر الأدبية والقانونية القديمة - كا ورد عند ديون كاسيوس وأوسليان - أن هذا النحو كان عاماً شاملاً. ولكن عبر حديثاً على برودة تحتوى على نص

(1) المصادر الأدبية جعل منح المجال التشريعي قاصراً على الأسبردسية:

(2) Dio Cassius, 77: 17 Романо qui sunt ex constitutione imperatoris Antonini (j. e. Caracalla) cives Romani effecti sunt"
قانون كارا كلا، ونظراً لأن هذه الجريدة مشوية ونافذة في أكثر من موضوع صعب تفسير عبارة وردت بها تؤخذ بأن منح الوطأة الرومانية لم يكن شاملًا وأن هناك استثناء معينًا ينص على عدم تمنح الطبقة الهامة (الخاضمين) (dediticii). ورغم أن القصيدة بلغت خصائص الخاضمين (dediticii) هم الأعداء الذين حملوا السلاح وحاربين الشب الرومان ولكنهما خضعما (3) فقد اختلف المؤرخون المحددون فيما إذا كان قانون كارا كلا المعروف ظاهراً باسم (Constitutio Antoninana). أنهم كانوا ضمن طبقة الهامة الدEDITICII ولذلك ظلوا خارج الوطأة الرومانية، وأن قانون كارا كلا طبق في مصر على أهل المدن وعوام النومات (متروليات) فقط. ورغم استمرار الاعتقاد بين العلماء حول هذه المشكلة إلى الآن، إلا أن الدراسات الحديثة المتقدمة على الوطأة البردية وصفة خاصة قد أثبتت أن تطبيق قانون كارا كلا في مصر كائن عامًا داخل المدن المصريين. وهما، من أهل المدن أو الريف (4). (وينبغي الآن أن هذا القدر عن قانون كارا كلا، وسومه نموذج للحديث عنه وعن نتائجه في مصر في فصل الإدارة).

في عام 215 زار الإمبراطور كارا كلا مصر، وأي بعد ثلاثة أعوام بين صدور قانون الوطأة الرومانية، ولمه كان ينظر أن يستقبل الأهالي بالحناوة

P. Gissen, 40
Gauis, Inst. I. 14. "Vocantur autem peregrini dediticiu (2)
hist quondam adversus populum Romanum grmis sus-
ceptis pugnaverunt, deinde victi se dediderunt.

Christoph Sasse, (3) أعمل دراسة حديثة موضوع قانون كارا كلا هو كتاب: Die Constitutio Antoniniana (1958).
E. Bickermann, Das Edict des Kaisars Caracalla in P. Giss.
ded. 40 (Berlin, 1926): H. W. Beratio, The Dediticum of the
Constitutio Antoniniana, in Transactions of the American
والإكبر، شكراً وتقديراً لقانونه، ولكن يبدو أن الأسكترين لم يعتزوا بهذا القانون ولم يعدوا بصورته كما سنبين فيما بعد، ولذلك خرجوا من الإمبراطور الذي شبه نفسه بالإسكندر الأكبر، وأخروا فيها أطلقوا عليه من أسماء أنه قاتل أخيه جيباً، الذي كان شريكه في الحكم. فلم يتحمل كارل كلا هذه السخرية وانتقم من الأسكترين شر انتقام، فاجتمع بهم في الجنازوم وخطبهم بلبيجة قاسية وأمر بأن يجند شبان الجنازوم هم جميعهم. ثم أرسل جيشه في المدينة بالقتال والسلب والدمير (1). كما أمر بإخراج جميع السريين الذين ازدواجوا في الأسكترية فارين من قرائم، حتى يتجنبوا دفع الضرائب أو القيام بالخدمات الإجبارية. ولم يستثن سوى بعض السريين الذين لم يلأسوا في المدينة (2).

* * *

الجزء الأكبر من القرن الثالث بعد ذلك بين كارل كلا ودقليانوس يعتبر من أصعب فترات التاريخ، كثرت فيها الحروب والمؤامرات والثورات السياسية والحروب الأهلية في معظم أجزاء الإمبراطورية الرومانية. وكان من الطبيعي أن تضعف السلطة المركزية في روما نتيجة لذلك، فكانت أذاعية العرش، كما كثرت محاولات الاستقلال في الولايات، قام بها زعماء محليون تارة أو قواد الجيش الروماني ذاتهم تارة أخرى ولم يشتك تاريخ مصر في تلك الفترة عن هذه الصورة العامة للإمبراطورية. وسوف نتناول الإيجاز قدر المستطاع في تناول تاريخ هذه الفترة، نظرًا لأن أي إفادة في دراستها ستتحدد في تاريخ روما ذاتها وخرجنا عن حدود موضوعنا وهو مصر في العصر الرومان. وهذا

Dio Cassius 77, 22–23; Historia Augusta, Caracalla, 6. (1)
P. Giss, 40 (2)
سانتصر على الإشارة إلى أحداث الإمبراطورية التي شملت مصر، فأثرت بها أو أثرت فيها.

في الأحداث التي اقترنت بها محاكمة الضغوط من أجل السلطة الخلاف الذي نشأ بين مارقينوس (Marcinus) الذي خلف كارا كلا-by كاملة سنة 217 وإيلاجالوس (Elagabalus) الذي ادعى أنه ابن كارا كلا، واعتز الأسكوندران إلى جانب مارقينوس ضد ابن كارا كلا حكمهم القديم، بينما أنغ المحيين جانب إيلاجالوس، وعمرت الأسكوندرية نتيجة لذلك لعيرة بين الفرقين قاسة المدينة من جراءها أهوالا كثيرة. ويذكر أن مارقينوس حين قادا الجيش مصر من بين أعماق الأداد، خلافا بذلك لأول مرة قاعدة وضعتها بعد حوالي بين وتسعين ونصف قرن (1). ولكن يجب أن نبالغ في أهمية هذه الحادثة ولدتها، فإن نظام أغسطس لحكم مصر قد ترض نقاط في أركانه الأساسية بحيث فقد صفاته وملاحة الأصلية، وخاصة على يدي سيئوروس وكارا كلا.

وعن الحتم أن الإمبراطور سيئوروس أسكوندر زار مصر عام 268/269 وحاول التخفيف عن الولاية بالتنزيل عن بعض الضربات. ولكن باطرأ تلك الأيام كانوا تحت سيطرة الجند، وكان سيئوروس أسكوندر من هذا النوع من الأباطرة، رغم طبي طريقة لم يتمكن من أن يمنع الجنود من الفضاء على اثنين من خبراء رجال هذا المصر وهما أوليانوس القاني القاني الشهير، وديون كاسيوس آخر مؤرخ روما الكبير، وأخيرا راح سيئوروس أسكوندر نفسه ضعيفه مؤامرات الجند وقتل في عام 275.

وتلاحت على مصر أخبار الأباطرة وأحيانا تضارب هذه الأخبار، دون

Dio Cassius. 78. 35.

(1)
أن تشارك مصر في صنع هذه الأخبار، ولم يزد تأثير هذه الأحداث في مصر على تغيير اسم الإمبراطور في كتابة تواريخ الوثائق. وكتبت ما سبقت أسماء بعض الأباطرة من هذه التواريخ لعده قصر الفترة التي قضوها على العرش في روما. حتى إذا كان منتصف القرن الثالث تزوج على عرش روما الإمبراطور ديفيدوس، وكان المسيحيون قد بدأوا يظهرون كثرة يحسب لها حساب في الحياة العامة، فقرر هذا الإمبراطور القيام بعملية شاملة لقضاء على جميع أتباع الدين الجديد قضاء تاما في الإمبراطورية. وكانت خطته هي أن يفرض على جميع الألمان أن يعطوا تعويضاً بعقدته في الله القديمة عن طريق العبادة والتضحية لها، وأن يبنوا أمام الموجودين المستحيلين، وعلى كل فرد أن يتحمل على شهادة من هؤلاء الموجودين استياء هذا الاحتكار، ومن يرفض القيام بهذا الاحتكار كان جزاؤه الموت. وكانت فترة حكم هذا الإمبراطور (249 - 251) سخريت للسيكين عموماً، وقد وجدنا ناجحاً من هذه الشهادات على بعض البرهان التي ترجع إلى هذا التاريخ.

وكذلك الفوضى السياسية والعسكرية في القرن الثالث أوجها في الفترة التالية (268 - 268) حين كثر الصراع بين أدياء العرش وائم وراء الجانب وانعدمت السلطة المركزية في روما، مما أدى إلى إعلان كثير من الولايات استقلالها عن روما، بما ذلك مصر في الواضح أن مصر في سنة 360 اعترفت بمرقسوس وكويتوس الأباطرة في سوريا، وكلها بعد ذلك أعلنت الولايات إيليايوس الإمبراطور بها، حتى تمكن أحد ممثلى السلطة المركزية في روما من القضاء على هذه الفتنة المحلية، وألقى القبض على إيليايوس ورد مصر إلى حضرة الإمبراطورية الرومانية. ويبدو أن كثيرة من المكتلين واحضارية.

هذه الأحداث حتى لقد قبل إن الأسكونيدبة قد تُائه من ثلاثة أهلها (1).

زينبى ملكة تُبشر سلطانها على مصر:

في أثناء القرون الثلاثة الأولى من الإمبراطورية الإزهبت في الشرق إمارة تدمر (Palmyra)، الواقع في الصحراء التي تفصل بين سوريا ودولة أبل. وكان محور نشاطها ومصدر ثروتها الأساسي هو نقل التجارة بين الشرق الأقصى ووابل من ناحية وسواحل سوريا من ناحية أخرى. كما مدتها نفوذها التجارية جنوباً ونافست الأسكونيدبة في التجارة البحرية الأخرى، ومدما القرن الثاني كثيرة ما تعاونت مع تجار الأسكونيدبة في العمل مما في التجارة الشرقية، ويشهد على ذلك عدد من النقوش التي تثبت وجود تجار تدريبيين مستقرين في مدينة قط في صعيد مصر، ومركز النقل التجاري من البحر الأحمر إلى الأسكونيدبة (2).

هذه الجمهورية التجارية في الشرق دخلت سلطان الإمبراطورية الرومانية منذ عصر مبكر، ولعله يرجع إلى زمن الإمبراطور تيبريوس (3)، ولكنها عوامل المقاومة وتمتعت متنوعة من الاستقلال الداخلي، واستطاعت أن تُقيك كثيراً من ظروف النشاط التجاري في الإمبراطورية الذي تزعمته الأسكونيدية في القرنين الأول والثاني، مما مكنها من أن تلعب دوراً سياسياً إيجابياً في القرن الثالث. منذ انتخاب أحمد حكاماً... أودينات... يستخدم تروتمديته في تكوين جيش قوي ساعد فيه الإمبراطورية الرومانية جالينوس (4)، حتى أن هذا الإمبراطور عينه قائداً عامة على

p. 17; C. I. S., II. 3. 3910; O. G. L, S. 639; S E G. VIII. 703

(1) يذكر جودي أن تدمر أُضيفت إلى الإمبراطورية زمنًا ترابيًا، ولكن جودي بين أن ضده بال
(2) Precis de l'Histoire d'Egypte, p 398)
(3) Jones, Cities, 267 and notes.
(4) الإمبراطورية كان أعلم من ذلك كثيرًا. 
(5) 104
ولايات الشرق. ولما توق أودينات خلفه ابنه الطفل وهب اللات (Vabalia) (Thus) المروفة باسم زينوبية. هذه الملكة لم تقع بالمركز الممتاز والثراء العريض الذين كانت تتمتع بهما تدمر وإنما أرادت أن تكون لها إمبراطورية، وبدأت تبسط سلطاتها على الولايات الشرقية، بما فيها مصر، فأرسلت إلى مصر جيشًا ضخمًا عام 329 واحتلتها، بناءً على اتفاق سابق مع بعض الزعماء المحليين السبب.

تيجينيس (Timagenes) ورغم مقاومة الحامية الرومانية في مصر وصولها ضد حيوش زينوبية في أكثر من موقع إلا أنها فشلت في الاحتفاظ بمصر من أيديهم. حتى إذا تولى عرش روما الإمبراطور أوريليانوس عام 270، لجأ إلى أعمال السياسة في مواجهة الخطر التدمرى فأشرف أولاً بيهب اللات ابن زينوبية شريكًا له في الحسم، وصدقت الحملة في الأسكندرية تحمل صورة الإمبراطورين على الوجوه، ولكن بعد مرور عام واحد رفض وهب اللات الاستمرار في هذا الحسم المشترك وقرر الاستقلال وأعلن نفسه إمبراطوراً بما أودى إلى قيام الحرب بين روما وتدمر. وصدقت الحملة في الأسكندرية تحمل طوروفة وهب اللات زينوبية فقط، مما يكشف عن مدى نفوذ الملكة في توجيه السياسة في تلك الأيام. على أي حال في الحرب التي نشب بين تدمر وروما، هاجم الإمبراطور بنفسه من الشمال في آسيا الصغرى، بينما أرسل القائد برويوس (Probus) إلى مصر، وسرعان ما استمرت مصر في أيدي الرومان من جديد في عام 271. ورغم انتصار الإمبراطور أوريليانوس على تدمر أخيرًا وأخذ زينوبية أسيرة في موكب نصره إلى روما، فإن فواد هذه الولايات الشرقية لم يسهله تمامًا، وسرعان ما قامت ثورة في كل من تدمر والأسكندرية عام 272. وكان قائد الثورة في الأسكندرية أحد كبار المجاهدين يسمى فيروس (Firmus)، الذي يقال إنه جمع قوة طائلة من مغارة البردى.

105
والصين العريبي، واستطاع أن يجمع شيئا من ماله الخاص. إن قيام تاجر مثل فيرموس بثورة الأسكندرية يوهي بأنه كان على علاقة مع ثوار تدمر أيضًا. أمام هؤلاء الثورتين في وقت واحد، أظهر الامبراطور أوغيليانوس إلى تدمر أولاً، وقضى على الثورة هناك، ثم تعود إلى مصر حيث اقتنص على فيرموس وحاصر الثوار في حي البروفين في الأسكندرية؛ حتى اضطروا إلى التسلل.

ولكن بدأن دمر هذا الحلي ثمانا وكان مركزا لأهم مبانى المدينة (1).

بعد ذلك غادر أوغيليانوس مصر وتركها في أيدي قائدته بروبوس (Probus) لإخضاع قبائل البليبي في الجنوب، الذين استنفاو فرصة الثورات المحتالية وتوغلوا في مصر الجنوبية. وبينما كان بروبوس يعمل على إخضاع مصر الفولقي أوغيليانوس، قاتلوا الجيش في مصر هذه الجزيرة وأعلنا قانونهم إمبراطوراً. وقد استطاع بروبوس أن يفرض نفسه على الإمبراطورية بأسرها، وأن يبني في الحكم مدة خمسة أعوام (286 - 282)، ف그래ا في نشاط جم في حروب ومواجع مستمرة على حدود الإمبراطورية المختلفة. ولكن كل قت جام 282 بواسطة الجنود، الذين قتالوا ثلاثة من الأباطرة أيضًا؛ في العام التالي، حتى تولى عرش الإمبراطورية دلفيانوس الذي سينى مهمة بناء الإمبراطورية من جديد على أسس جديدة تمت تأطير طور جديد من أطوار الإمبراطورية الرومانية.

(1) عن مصادر هذه الفترة أشار:
Historia Augusta, Firmus.
وأم مصدر عن فيرموس وثورته
يذكر المؤرخ جوزيفوس في نهاية القرن الأول أن عدد سكان مصر
باستثناء سكان الأسكندرية كان سبعة ملايين ونصف مليون (1)
فإذا قدرنا للأسكندرية نصف مليون من السكان (2) أصبحت المجموع ملماتين نسما
تقريباً. وهو رقم تقريبي يجب أن تكون عليه حذر من تطبيقه على مصر في
جميع عصورها القديمة، فنحن نعرف ما يصيب السكان من الزيادة والنقصان
حسب ظروف الرخاء أو ظروف الأزمة والفجوة والحروب. أما من حيث
تكوين هذه الملايين الثانية، فهو لم يختلف كثيراً عن تكوينها في عصر الأسرة
البطامية، فلا زالوا غالبية من الصربين وأقليات متوازنة الحجم من الإغريق
واليهود جماعات مختلفة من السورين والفينيقين والليبيين وغيرهم. ولكن أم
تغير طراز المجتمع المصري هو وجود عنصر جديد هام، والمهاجرين الرومان
الذين جاءوا مع الحكم الجديد سواء من جاءوا للعمل كموظفين في إدارة
الولاية أو جند في الجيش الروماني، أو من رجال الأعمال والتجار. وكثير


(1) يذكر ديودور المخلص (6. 52. 6) أن عدد الرجال الأحرار في
الأسكندرية في عام 60 ق. م. يزيد على 30000000، فناها أشتهى إلى مؤلأ النساء
والأطفال والبعيد. فان افتتاح نصف مليون سكان الأسكندرية في المتوسط - يكون
رقاً عائضاً لا مبالغة فيه.

157
من هؤلاء استقر في مصر وكونوا بيروز الزمن حالية رومانية وجدت في مناطق مختلفة من مصر بعد ذلك.

ومن وجه النظر القانوني الروماني قسم سكان مصر إلى قسمين أساسيين رومان ومصريين، ثم اعتبر الأسكندريون طبقة ممتازة من المصريين أحييت بكثير منامتيازات خاصة. ومن ثم أصبح لفظ المصريين يطلق أصلحا على جميع سكان مصر عدا الأسكندريون، من إفريقي ويهود ومصريين وغيرهم (1).

ومقياس هذا التقسيم هو ضريبة الرأس Laographia والذة فرضت على المصريين، ولما فيه لاقع على الموطنين الرومان في مصر، أما الأسكندريون فقد ألقوا منها (2)، أما سائر السكان فكانتا بدفع ضريبة الرأس. ومع ذلك فقد حرص الرومان على إبقاء المجتمع المصري مقصدا تطبيقًا في فتح بين فشات المصريين في المقام، فتفاقم مقدار ضريبة الرأس بالنسبة للمساكن (Metropolites) الإفريقي أو التأخيرة من سكان عوام النومات (الترافليين) بالنسبة للمصريين

وبالتالي للمصريين الفلاحين من أهل القرى والريف.

ولنبدأ بالحديث عن الطبقة الجديدة في المجتمع المصري وهي طبقة الرومان، أثرى طبيعة في مصر في ذلك الوقت وتمتعت بأكبر قدر منامتيازات. من حيث تكوينها، تجدها تتكون أساساً من الموظفين الروم الذين عيهم الإمبراطور في المناصب الكبرى بالإدارة للسورية ومن رجال الأعمال الرومان.

E. Bickermann, in Archiv of Papyrsforschung, (1927) 239; (1428) pp. 40 ff.

P. S. I. 1160 Musurillo, No. 1; and No. IV, col. 15-30; Dio Cassius, 66, 8. 5; cf Wallace, Taxation, pp. 118 ff.

(1) بدأ الضربة التي فرضها فسيان علهمGI

Wallace, Taxation, pp. 121 ff.
الذين حضروا إلى مصر من أجل عقد صفقات تجارية في الأسكندرية، ومن جنود الحامية الرومانية. ومانع شكل أن الحامية الرومانية كانت أم مصدر لإحضار الأجانب إلى مصر، ذلك أنها كانت تضم أصلاً أفراداً من جميع أنحاء الإمبراطورية في أعداد كبيرة. وعند تزويدهم كانوا يمنحون الجنسية الرومانية، وكثيراً ما عادوا البقاء في مصر بعد ذلك لأسباب مختلفة. ولكن نعرف مقدار ما أسهم به الجيش الروماني في تكوين الطبقه الجديدة يجب أن نذكر أولاً أن عدد ذلك الجيش في عصر الإمبراطور أغسطس كان 1000 جندي، ثم خفض إلى 127 جندي في عصر الإمبراطور تيبريوس، ثم خفض آخرًا في القرن الثاني إلى 100 جندي (1). ورغم أن الجيش الروماني كان يسمح لمواطني المدن اليونانية في مصر بالاختراق في سلكه، إلا أن العدد الأكبر من أفراده كان يؤخذ عادة من مواطن الولايات الرومانية الأخرى، وخاصة في أثناء المائة وخمسين عاماً الأول من الحكم الروماني، وبدل ذلك ازداد عدد من الجند المحلي في مصر حتى أصبحوا النادرة في جيش مصر البيزنطي (2).

ولم يبق جنود الحامية الرومانية معزولين عن الأهل داخل مسكوناتهم، لا يظهرون أمام الناس إلا وقت الثورات والعنف. بل على العكس من ذلك، فإن ثورات المصريين في ذلك الوقت كانت في معظم الأحيان في فترات متبقعة.

J. Les quier, L'Armée Romaine d'Egypte, esp. pp. (1) 101—114


كوثيرًا مطالت فترات الهدوء والاستقرار، فسكان من الطبيعة أن يبحث الجنود لأنفسهم عن مجالات أخرى لنشاطهم، خاصة وأن فترات الجدية في الجيش الروماني كانت توجد عادة إلى خسية وعشرين عامًا، وهي سنوات شباب وفظائف الإنسان. ولذلك لم يكن مستغربًا أن يخرج من مساراتهم وأن يتصادموا بالأهل في مختلف وجهات الحياة الاجتماعية والاقتصادية، رغم خلافة ذلك لقوانين الجيش الروماني، ففي الناحية القانونية مثلاً، كان محظورًا على الجندي أن يزوج طوال مدة خدمته العسكرية، ولكن في الواقع كثيرًا ما أنشأ الجنود علاقات خاصة مع النساء من أهل البلد وخاصة في الإسكندرية وأجبروا منهم أطفالًا غير شرعيين.
وكان من المستحيل أن تتقن السلطات الرومانية في مصر من هذه الحالات موقعاً مزراً، وإذا أعقبت أعينها عما كان جارًا، وعند تسريح الجنود كان يعرف بزواجهم (Epigamia) الذي تم بصورة غير قانونية أثناء الخدمة، وكان الجنود وزوجاتهم وأبناؤهم يدفعون المواطنة الرومانية.

وبتين لنا أوراق البردي كيف كان هؤلاء الجنود يقلدون هذه الزيجات أثناء الخدمة العسكرية، ففي إحدى البرديات بجد خطابًا موجهًا من شخص في الإسكندرية إلى والده يذكر فيه أن جنديًا قد طلب الزواج من أخته وهو يستشير والده في الأمر. ولكن ماذا أنى هذا الزواج معبرًا غير قانوني لأن عقد زواج حقيقي لا يمكن تسجيله. ولذلك لجأ男人 إلى حيلة قانونية في لفظ الاتفاق بين الجندي والمرأة. في صورة عقد يكمل للزواجة ضايقًا كافياً.

(1) كان يتم ذلك على الأقل بالنسبة لوحدات المعروفة باسم auxilia، وخبر مثال على ذلك هو اليوت من العصر.

Lequier, L'armée Romaine, pp. 263-279.
P. S. I., VIII, 967 (1st or 2nd Century A. D.)
وذلك عن طريق اعتبار "المهر" الذي كانت تقدمه الزوجة عادة عند زواجها. بمتنا، وداً للزوج، ووقع الطرفان عقدودعية. وقفو، كلما ناؤل أوراق البردي إحدى هذه العقود الذي تم بين جندى في الجيش الروماني يسمى جايوس بوليوس أبوليناريوس وأمارة تسمى بترونا. وفي هذا العقد يترف الجندى أنه استلم بترونا ملابس نسائية من ثلاثية دراخىة إلى جانب على من الذهب المشفى (1).، ورغم أن جميع الشروط الوداعي في هذا العقد يتبينه تماماً شروط عقد الوداع، إلا أن الأشياء الوداعة تكوف وجه التحالب على القانون، إذ من المستبعد والمستحب أن تودع إمارة ملابس نسائية لدى جندى يقيم داخل مسكونابيه. خاصة وأن هذه الأشياء الوداعة هي نفس الأشياء التي يرد ذكرها عادة في وصف مهر المرأة في عقود الزواج العادية (2).

ويدو أن مثل هذا الزواج مُعَّرًّ وتكوين منه أسرات لها أبناء وعبيد أيضاً، ولدينا أدة كثيرة نثبت أن هؤلاء الجنود كانوا يرغون أن ينومن من زوجاتهم غير الشرعية رعاية جميع الآباء لأبناؤهم. ففي عدد من الوثائق البردية نجد جنوداً يتناقرون مع مروضات لأطفالهم وأطفال عبيدهم أيضاً (3).. كأ أن أبناء هؤلاء الجنود كانوا يجدون عادة في فرق الحامية الرومانية، وكان يذكر رسمياً أمام أمثالهم أنهم من موالي المعسكرات (باللاتينية Kastresios) و ex castris (باللاتينية) (4).

لم يقتصر نشاط جنود الجيش الروماني في مصر على الزواج وتكوين

B. G. U. III. 729 (144 A. D.) (1)
B. G. U. IV. 1050-2 (Augustan Age). (2)
B. G. U. IV. Nos 1105 ; 1107 ; 1108 ; 1109 (Augustan age). (3)
C. I. L., III. 6627; and the above references in the text. (4)

كتاب Forni, II Recrutamento, Appendice B: 161.
الأسر، بل كثيراً ما اقتنعوا في وثائقنا في مجالات مختلفة من النشاطات والاقتصادية، وخاصة في الأراضي (1) ومملوءين بقرور المال نظير فوائد جزية. وهي تجارة مربحة مارستها كثير من الأثرياء في مصر الرومانية (2).

يتشابه من هذا العرض أن جند الحامية الرومانية في مصر لم يهوا الحياة العسكرية كل وقته، وأنهم، بالتدريب، امتصوا بالحياة في البيئة حولهم اجتماعياً واقتصادياً. ولعل الواجب العسكري لم يحتل المكان الأول من أهليهم ويبدو أن هذه الحالة لم تكن فاقدة على الجيش الروماني في مصر، فإن ظروف السلام والاستقرار الذي سادت الجزء الأكبر من تاريخ الإمبراطورية في القرنين الأولين شجعت الجنود الرومان في الولايات المختلفة على الانخراط في أوجه النشاط السري في البيئات التي وجدوا بها (3)، ولعل نجاح هذه الحقيقة هو الوصف الذي يورد المؤرخ تاكيوس لجنود الحامية الرومانية في سوريا في الإمبراطورية البيزنطيون، عندما عاد إلى كورنال (Corbula) أن يقوم ضد البارثيين: «نقد وجد خول جنوده أشد خطرًا عليه من مكيدة أعدائه»، إذ أن جيشه كان يكون من فرق أثبتت من سوريا؟ كسائر من جراء

(1) اعتقاد السائد أن أغسطس انتهى إقطاعات عسكرية Colonia الدور الروماني في مصر. انظر: Soc. & Ec. Hist. of the Roman Empire, 2nd ed; P. 287, P. Giss. وقد ورد ذكر إقطاعات العسكرية في بعض الوثائق البردية مثل: 60. Col iii, 6 (119 A.D.); Wilcken, Chrest. 461, 26 (beginning of 3nd. cent. A.D.); of also P. Ryl.II. 202 (late 1st cent. A.D.) and the remarks of Rostovtzeff. op. cit, vol. II, p. 669, note 44

P. Hamb. No. 1(57 A.D.); P. Lond. II. 142, p.203 (65A.D.) (2) B, G. U. III, 741 (193-4 A.D.); p. Found, 45 (153 A.D)

(3) فن نفخ الإفريقيا ملأ تجارة من نصف للجهان من الفرقة الرومانية C. I. L. VIII 18067 Legio III. Augusta (Castra)
السلام الذي استمر طويلاً لا يكادون يحتفظون حياة المقاومات. وكان من بين هذا الجيش أيضاً جنود لم يقوموا بالحراسة أو الملاحظة، فكانوا ينطرون إلى الأسوار الخنادق على أنها نوع من غرائب الوجود، ليس لديهم خوذات أو دروع، وإنما عرض الرجال أعلام الهراءون قضا خدمتهم العسكرية داخل المدن.

هذه كلمة مختصرة عن أفراد الجيش الروماني كعنصر من عناصر المجتمع المصري أثرت فيه ونثرت به ثم اندمجت في صفوفه آخر الأمر. لأن هؤلاء الجنود، بعد أن ارتبطوا بالبيئة المصرية اجتماعياً عن طريق الزواج واقتصادياً عن طريق ملكية الأرض والملاك، لم ينادروا مصر بعد أن قضوا بها خمسة وعشرين عاماً تحت اسم اللدمة العسكرية، واسترموا بالبلاد نهائياً، أصبحوا الأساس الذي تكوّنت منه الجالية الرومانية في مصر. ويمكن أن نضيف إليهم: كما أن ذلك كان من الطموحين الذين حضروا من روما للعمل في إدارة الولاية، وكذلك بعض من حضروا من أجل الاستفادة من عمليات التجارة الجيدة، ولكن هؤلاء كانوا يتسللون لأعداد الجنود الذين استرموا في مصر. على أن الجالية الرومانية لم تبقى قاصرة على هؤلاء، وإنما انضم إليهم عدد كبير من أبناء الطبقات المتزايدة في مصر الذين سمع لهم باللذمة العسكرية في الجيش الروماني واكتسبوا الجنسية الرومانية عن هذا الطريق، وكذلك عدد من طبقة الأسكندردين الأستقرطلا الذين استطاعوا الحصول على المواطنة الرومانية. وقد زاد عدد الجالية الرومانية في مصر كثيراً من هذا السبيل فوجدنا كثيراً من الرومان يحملون أسماء مختلفة، الجزء الأول عن اسم روماً وهو عادة اسم الإمبراطور الذي اكتسبوا المواطنة في عهد هذه المواطنة الرومانية والجزء الأخير من اسم يوناً، مما يكشف عن أصلهم من بين

Tacitus, Annales, XIII. 35.

١٦٣
صفوف الإغريق في مصر وخاصة من مواطني الأسكندريّة.

هؤلاء المواطنين الرومان - ربما كان أصلهم والطريقة التي حصلوا بها على المواطنة الرومانية - كانوا يمثلون الطبقة العليا في مجتمع مصر الروماني. فكان من بعدهم كبار موظفي الإدارة، كما كانوا يتمتعون بامتيازات كثيرة مثل الإعفاء من بعض الضرائب أو دفع ضرائب مخفضة، والإعفاء من القيام بالخدمة الإدارية وتوسيع الوظائف المحلية - في بداية العصر الروماني على الأقل. وحيث وجد الرومان في مصر أعداد كبيرة لكون الأنظمة رابطة Conventus Civium Romanorum؛ ساهموا كجامعة مستقلة في حياة المدينة أو البلدة التي يعيشون فيها. ومن ذلك ما تكشف عنه بردية من البسما) في عصر مصر، إذ تتحدث عن اجتماع عام لأهل مدينة أو كسيرخوس البسما، وتذكر أنه اشترط في هذا الاجتماع موظفو المدينة وشيمها والمواطنون الرومان والأسكندريون المستقرون بها.

وقد بقي المواطنين الرومان في مصر متمتنين بهذا الوضع المتزايد حتى بداية القرن الثالث عندما صدر قانون كارا كلا بمنح المواطنين الرومانية جميع سكان الإمبراطورية.

********

إذا ما نظرنا إلى عناصر المجتمع الأخرى التي كانت موجودة من قبل،

Sabina Apollinarion, Marcus Antonius Heliodorus, and Marcus Antonius Aper, in P.S.I. No. 1325 (176–180 A.D.) B.G.U. 180 (172 A.D.) Wilcken:
P, Ox. III. 73 (138–160 A.D.)—Wilcken, Chrest, No. 33 (2)
نجد على قمة الحرم الطبقي المصري طبقة الأسكيدينرين، وقد بقيت محتلة هذه السكنية أيضاً وثلى الرومان مباشرة. فجربوا على عادة الرومان في حكم الولايات من اصطناع أقليات أوراقية في الولاية، بمنحها امتيازات خاصة، لذا فعلوا في مصر وحافظوا على وضع الأسكيدينرين الممتاز. بل يمكن أن يقال إن الوضع القانوني لمواطني الأسكيدينريزا أكسب أهمية خاصة في مصر الرومانية فمنذ بعض الانتهادات التي تمت بها مثل الإعفاء من ضريبة الرأس التي فرضت على جميع المصريين، وحق الاحتفال بالجيش الروماني جملة الرومان حتى أكتساب المواطنة الرومانية مباشرة. (وليس عن طريق الخدمة العسكرية) قاما على الأسكيدينرين، بحيث أن أي مصري آخر كان عليه أن ينال مواطنة الأسكيدينريزا أولاه حتى يصبح له كماترمواطنة الرومانية. (1) وقد اكتسب هذا الوضع الممتاز للأسكيدينرين بالسبة لهم سكان مصر في لغة الوثائق الرسمية الخاصة بالضرائب وقواهم أصحاب الأراضي فنجد هذه الوثائق في بداية المصري الروماني تضم الملك إلى تمتين سكراسيا الأسكيدينرين و«الخلبيين» (2) والقصور باللغة الأخيرة هم سائر الملك من أهل المنطقة التي بها الأرض. هذه القابلة بين الأسكيدينرين وسائر الأهلاء في وثائق الضرائب تبين قوة الأسكيدينرين كطبقة اقتصادية؛ وفي الواقع بسبب تحكمهم في وسائل الإثراء عن طريق التجارة العالمية أصبحوا أقوى طبقة في مصر وأكبر ملاك للأراضي.

ولكن الأسكيدينرين لم ينتموا بكل هذه الامتيازات، ولعلمهم كانوا يشتبهون بوجود طبقة أخرى أرق منهم رسمياً داخل البلاد وهي طبقة المواطنين.

---

Pliny, Epist. X. 6–7

P. Lond. II. 192, p. 222, l. 82 ff Augustus or Tiberius; (1)
and in the edict of the Prefect Tiberius Julius Alexander,
O. G. I. S. II. 669 = S. B. V, No, 8444.
الرومان؛ فعملوا على الدخول في دائرة المواطنين على أوساط نطاق ممكن. وقد تمكنا من تحقيق ذلك بفضل بعض الامتيازات القانونية التي منحت لهم، أولاً عن طريق السباحهم بالاتصال بالجيش الروماني. ثانياً، يجعل حق اكتساب الوطن الرومانية مباشرة قاتراً عليهم في مصر. وسرعان ما أصبح عدد كبير من المواطنين الرومان في مصر أسكاندريين أصلاً. وإذا هذا التطور ينعكس أيضاً في لهجتهم الرسمية، وأصبحت قوام الضوابي تُقسم أصحاب الأراضي إلى فئتين: 1. «فئة الرومان والأسكاندريين» و 2. «فئة الملييين».

ظهر هذا الربط بين الرومان والأسكاندريين في الوثائق لأول مرة بعد منتصف القرن الأول بقليل، واستمر استخدامهما خلال القرن الثاني، ما بين أن الرومان والأسكاندريين كانوا في نظر الإدارة المركزية يكونون طبقة اقتصادية واحادية.

ويوضح ظاهرة هذا الترابط الطبقي ويؤكد وضعهم المتزايد وثقيته بردية ترجع إلى عام 139 وتُشفى على خطاب من إسبريتاجوس قنط إلى الوالي، ويُشكو إليه أن المواطنين الرومان والأسكاندريين والجنود القدماء المستقرين في نوموس قنط والمكلفين بجميع الضرائب قد عصوا أوامره، ويدعون أنهم لا يخضعون لسلطان الإسبريتاجوس مشل جامع الضرابي الملييين (enchorioi) ومن الشرب أن رد الوالي على هذا الخطاب يأتي مؤكداً لوقف الرومان والأسكاندريين والجنود القدماء، إذ يأمر الوالي بأن يرفع الإسبريتاجوس هذه السائبة إلى موظف أرقي منه مرتبة وهو الإسبريتاجوس (epistrategos)، الذي كان من اختصاصه الإشراف على عدد من النعمات مما. هذه الوثيقة الهامة توضح مدى ما تتمتعوا به من امتيازات إلى درجة عدم خضوعهم للموظفين الملييين.

P, Merton, II. 63, 7ff. (58 A.D.); Stud Pal. p. 62 ff., (1)
i, 331 f. (72—3 A.D.); B. G. U. IX. 1894 (158 A.D.)
B. G. U. III. 747 (129 A.D.) (2)
غير أن الإصلاحات التي تمت في خلال القرن الثالث من نشر نظام الحكم المحلي في النومات ومنح الامناة الرومانية للجميع في أول هذا القرن تم إلقاء امكانيات الأطياف وتثبيت الامكانيات من خلال تطبيق الامكانيات على بيد دقلبيانس في نهاية القرن نفسه، قضى امكانيات الأسكيدينريين والرومان ما، إذ أصبح الجميع مواطنين رومانيين، بدفون الضرائب على قدر سواء ويتداولون نصيبهم كاملاً في الحكم المحلي، كل حسب قدرته المالية.

* * *

عدا الرومان والأسكيدينريين بأن سائر السكان الذين كانوا يسمون « مصريين » (1). وليس منى هذا أنهم جميعاً كانوا يكونون طبقة واحدة، فقد كانوا ينقسمون بدورهم إلى طبقات وفروع مختلفة امكانيات والمكانة، ولكن الصفة المميزة لهم جميعاً هي خضوعهم لضريبة الرأس، مع ذلك لم يعاملوا كلهم بخصوص هذه الضريبة معاملة سوية. فوجدنا الفئات الأكثر رقياً وأكثر تأثر الإدارة بالعوامل من أهل الارض يدفعون ضريبة الرأس مخفضة إلى اثني عشر درجة أو اثني عشر درجة، حسب منزلتهم الاجتماعية. أما الغالبية الكبرى من قراء الفلاحين المصريين فكانوا يدفعون الضريبة كاملاً وهي أربعون درجة (2).

وقد حرص الرومان منذ البداية على هذا التقسم الاجتماعي واللغة الطبقية (3). فأظهرت في مناطق مختلفة جاعات عرفت باسم الميلينيين وخاصة


Wallace, Taxation, pp.

B.G.U.V.I. Johnaux, Roman Egypt. No. 444.

167
في الدانة والفيوم، وكان أرقي منازلهم جامع مدينة أثينوبوليس التي أنشأها هادريان، وكانوا يسمون «بايثيلينيج بسنتا» (1). وقد كان هادريان
شدد العطف على مدينة جديدة ومنح مواطنيها كثيراً من الامتيازات، كما
سبق أن ذكرنا في هديتنا عن هادريان ومن هذه الامتيازات أنه أعنى مواطنيه
هذه المدينة من القيام بتوالى الوظائف خارج منهم (2)، ومن المعتقل أنهم
أعقوا أيضاً من ضريبة الرأس ولا أن أتراك ناصراً في هذا الصدد.

ووجدت كل نوموس بعد ذلك طبقة ممتازة من أهل عاصمتهم أثينوبوليس،
وعرفوا باسم الباثيلينيج (metropolitai)، وكان الحال العام على هؤلاء
هو الطابع الإغريقي سواء في اللغة أو أساليب الحياة، رغم أن كثيرين منهم
 كانوا مصريين متأققين (3). ويدعو أنه وجدت بين هؤلاء الباثيلينيج طبقة
 ضيقة ممتازة تعبر باسم أبناء الجنائزوم (4) وهم
المواطنون الذين تعلموا وخرجوا في معيده مدينة. وكان أبناء الجنائزوم، يكونون
ما يشبه بطبقة أرستقراطية محلية في الريف وكان منهم موظفو الحكم المحلي.

أما خارج الباثيلينيج يوجد ملايين الفلاحين وصفار المزارعين من المصريين
المنشرين في القرى والسكنور، وكانوا أكثر الغالبة قراً وآكرها
أوعياً، يدمون ضريبة الرأس كالمادة (أربين دراية)، ويكونون جميع
الضرائب الأخرى، كما كانوا يفسرون لأعمال السحر، مثل بناء الجسور
وتعميب وشق النجوع، وحفر المصاريف، إلى غير ذلك من أعمال الحراسة والنقل.

(1) ورد ذكر الباثيلينيج في الدانة وطليطلية وأثينوبوليس في 709
P. M. Meyer, Jun. Pap., No. 48; and P. Tebt. II. (أوستري)
566 (131-2 A. D.).
B. G. U. IV. 1022 (196 A. D) = Wildeem, Cluest. 29. (2)
Bickerman, in Archiv für Papyrologie (1928)
p. 356.
Ibid. p. 376.

168
وقد استمر هؤلاء المصريون على أصول حياتهم القديمة التي أثروا بها منذ آلاف السنين. يتحدثون اللغة المصرية القديمة (التي وصلت إلينا في حروفها démocratique) ويبدون آلهة المصري القديمة، وبقمون بالواجبات نفسها نحو الأرض و نحو سادة الأرض. ولكن لما استندت وطاعة الحكم الروماني على البلاد وكثرة اتباع الفلاحين وصنف المزارعين مع أخر الأحوال الاقتصادية ضاق أفراد هذه الطبقات بالمال ولجأوا إلى الفرار من أراضيهم، باحثين عن نعما في مستعمرات الدلتا الشمالية وأحراشها، أو ملجأ في مدينة كبيرة مثل الأسكندرية حيث يمكنهم الإختفاء في زحمة سكانها وربما وجدوا بها عملًا يقيمون به أودهم. وليس أدل على خطورة الفرار من الوطن الأصلي على هذا النحو من الثورة المروعة باسم ثورة الرعية عام 172 في عهد الإمبراطور ماركوس أوريليوس. وكان النائب الرئيسي للفرار من الأرض هو شدة وعزة الفرارين الذي يجر كثير من الزراع عن دفنهما، وخشوا وخشية محاولة جامع الفرارين فأظهروا الفرار دون أن يخبوه أحدًا. ولكن جامع الفرارين كانوا يذكرون أهل المزارعين الذين أسوا أنواع المذابج، يعرفون منهم مكان خيام أو لايأخذون منهم السرية. وقد وصلت درجة من القرن الثاني تحتوي على خطاب من صبي علم بإعتراف والده الفرار سرا، فكتب إلى أحد أقاربه يطلب منه أن يحصل له من والده على مبلغ من المال يكفيه هو أيضًا من الفرار إلى الأسكندرية خشية أن يقبض موظفو الإدارة منه بعد اكتشاف والده.

P. Princ. 1, 9; III, 8, 16 (31 A. D.); and 14, III, 20, V, (1) 21 (23—40 A.D.); P. Graux, nos. 1 (45 A. D.); 2 (55—9 A.D.); and 3 (51 A. D.); P. Uppsala, 7 (163 A. D.)

P. Philadelphie. No. 33 (2nd cent. A. D.)

وقد عبر المؤلف لهذه البرمجة في الفصل الذي كتب عن الأسكندرية في المصري الروماني في كتاب تاريخ الأسكندرية منذ أقدم المصادر الذي قام بنشره محافظة الأسكندرية (1913) 81.
وبدور أن حالات الفرار هذه ناتجة كثيرة ومتكربة بحيث أنها كانت
نصيب الحياة في الريف بضرورة شديدة لقلة الأيدي العاملة، بقدر ما كانت تنفس
الحياة في التدفق الكبيرة حين تكتسب بالمتعلمين. وهذا وجدنا الولاء يقودون
بيانات خاصة بهذا الشأن، يطلبون فيه من كل شخص أن يعود إلى موطنه
وعمله الأصلي. وقد وصلنا بيانان من مصر الرومانية بهذا الشأن، الأول
أصدره الرولوص موسى عام 104، يعلن فيه أنه بمناسبة الإعداد
لإجراء إحساء عام للسكان يجب على كل من ترك موته لأي سبب من الأسباب
أن يعود ثانية وأن يستأنف عمله في زراعة الأرض. ومع ذلك يتضمن البيان
إستناء، واحدا بشأن الذين تحتاج مدينة الإسكندرية إلى عملهم، وهؤلاء كانوا
معرضين ومسجلين لدى السلطات الرسمية (1). أما البيان الثاني فهو بيان
الإمبراطور كاراكلا الذي أصدره عند زيارته لمصر سنة 215، وصاحبها
اضطرابات عنيفة في الإسكندرية، أدى إلى قتل الكثيرون من أهلها. وسواء
أكان إصدار هذا البيان عالقة باضطرابات الإسكندرية أو أنه محاولة لإقامة
الناس على موطنهم الأصلي لإزاحة الرف، وخاصة بعد تصميم المواجهة
الرومانية وإلغاء التفرقة بين فئات المجتمع المختلفة من الناحية القانونية،
فقد أمر كاراكلا بأن يطرد من الإسكندرية المصريين، واستثنى من ذلك
فئات معينة، مثل تجار الخضراء، وأعمال القوارب النيلية، وجالبو الحطب لوقود
الأحمر، ولم هذه هي الفئات التي استنذالها بيان موسى السابق، لأن
الوقود واللحم (من بينها وأهمها للمدينة لمعرفة الخضراء) كان المواد الأساسية
التي كانت تجلب إلى الإسكندرية من داخل البلاد، وأعمال القوارب هم الذين
يقومون بالاتصال بين دفنتها بين الريف والعاصمة، ويتعلق هذا البيان

(1) لديماً من مصر البطحائي المنشور العام الذي أصدره الملك بوغاشين الثاني.
بطبيعة الحال بالصبرين الذين لم يكن مقرم الأصل الأسكندرية، أي المصريون الغرباء، بها، الفارين من الريف اضطرابهم أو آخر. فقد كان من بين سكان الأسكندرية الأصليين كثير من الصبرين، وهؤلاء لا يشتهون قرار الطرد. وبينهم إلى ذلك الجزء الأخير من البيان حيث يقول: من اليسير التميز بين عمال النسيج الصبرين (من أهل المدينة) وبين النافدين عن الصبرين (الفارين من الريف). وهو بين ما سبق أن ذكرنا من أن الصبرين وخاصة من أهل الريف ظلوا محافظين على أصاليهم حياهم ومتعلمون وتفايعا ولم يتأثروا كثيراً بالأجانب الذين حكوا مصر في المصريين البطلاء والرومان.

**

خالية أخرية يجب أن نتحدث عنها وهي جالية اليهود في مصر الرومانية.

عرفنا في دراستنا للسكان في العصر البطلمي أن اليهود كانوا من أقدم الجاليات الأجنبية في مصر وأكثرها عددا، ولا شك أنهم استمروا كذلك في العصر الروماني. فن نرى كبر حجم هذه الجالية بذكر فيولان أن عدد اليهود في مصر في بداية العصر الروماني بلغ المليون (1). ورغم أننا لا نستطيع تحقيق هذا الطلب، إلا أن ذكر فيولان مثلاً هذا الرقم يدل على ضخامة الجالية اليهودية في مصر في ذلك العصر، بل لعل عدم زاد في الأسكندرية فأصبحوا يشعرون اثنين أو أكثر من أحياء المدينة المنفس، بعد أن كانوا يقطعون حياً واحداً.

وهو المعروف باسم "دنا" (2).

P. Giss. 40, lines 16 ff. = Wilcken Chrest 22.

Filo, In Flaccum. 6. 43 (1)

Filo, In Flacc. 55; and Legatio, 20, 132; Joseph. Bell. (2)

Jud. II. 487; Apion, No. 33.
وقد وجد الرومان في اليهود فئة أجنبية عن البلاد يمكن استعمالها واستخدامها لصالحهم، ولذلك سارع الإمبراطور أغسطس إلى الاعتراف بجميعامتيازات وال느مة التي تتمتع بها اليهود في مصر البطلي (1). فأثرى حريتهم الدينية وسمح لهم بالمحافظة على رابطتهم المعروفة باسم بوليتياوما (politeuma)، بما لها من رئيس (politeuma)، وهو أمر اعتززا به كل الاعتراف نظرا لأن أغسطس رفض السماح للأسكندرى بحرية سياسية عن طريق مجلس تشريعي، وكان وضع اليهود المتواضع وعطف الرومان عليهم، مصدر إثارة لعقد الأسكندرى عليهم، مما أدى إلى كثير من حوادث الفتن والاضطراب بين الفتيقين في الأسكندرية في مصر الرومانى، كا بسبب أن بنيا في الفصل الخاص بالتاريخ السياسي.

ويبعد أن اليهود لم يقوموا بما عل ذلك من عطف ورعاية الرومان، فأخذوا بدعون لأنفسهم مزيداً من الحقوق والامتيازات. فمن ذلك أنهم ادعوا أن يهود الأسكندرية كانوا مواطنين أسكندرى، متمتين بمواطنة المدينة كاملة. وقد اقتصر العمل قدماً وحديثاً بتثن أهدى القضية. وأشد أنفسهم، وليس هنا مجال العرض التفصيلي لمجوع جوانب هذه المشكلة التاريخية، وإنما سنتكلمي بالعرض لما باختصار، خاصة وأن حدة الخلاف قد بدأت في الأعوام الأخيرة وإن الرأى السائد الآن هو عدم صحة دعوى اليهود القديمة. وأنهم لم يكونوا مواطنين أسكندرى.

---

(1) عن مسالمة أغسطس لأقر أنظر: 
Joseph. Antiq XIV, 7, 2; XIX, 5, 2; P. Lond. 1912, 85 ff. in Jews and Christians, by Bell; Strabo, 17, 1; Philo, Legatio, 10.

ظهرت هذه المشكلة في بداية العصر الروماني، ولم يكن في قيامها أن مواطنة الأسكندرية أكسبت في ذلك الوقت امتيازات جديدة، وها أرب مواطنة الأسكندرية أصبحت الطريق المولى إلى الحصول على المواطنة الرومانية بالنسبة للمصرى، (وهي أورود مصرى كنا مصريين من وجهة النظر الزمنية) ومن ناحية أخرى تتمتع مواطنو الأسكندرية بميزة هام آخر وهو إعفاءهم من ضريبة الرأس التي زحفت على المصريين جميعًا. فأراد اليهود أن ينتظروا فرصة عطف الرومان عليهم واكتساب هذه الامتيازات عن طريق اعتبارهم مواطنين أسكندريين. وراح زعماء اليهود وكتابهم قليلاً من أئمة جوزيفوس ينتون صدق هذه الدعوى ويدعون عليها، أو حتى الح징 والأساليب، وأن يعتمده بهذا الحق قديم للمدينة ذاتها. (1) وفي الوقت نفسه ابتنى زعماء الأسكندريين بفندو حجيج اليهود ويدعون دعوىهم. (2) وبذلك غاب وجه الحق في هذه المشكلة، وأقسم العلامة المخدوش بشأنها انسجام القدماء، ولم يخلق إنساءهم من ميل إلى زعمة عنصرية أو دينية أحيانًا. وظل الأمر كذلك حتى مطلع القرن العشرين حين نشرت بردية على جانب كبير من الأهبة. (3) وبالرغم من أن البردية مشهورة في بعض أجزائها، إلا أن ما بقي منها واضح المعنى ولا أهمية كبيرة. فإن البردية تحتوى على شكرى مقدمة إلى وال مصر من شخص يهودي من مدينة الأسكندرية يسمى هيلينوس، وطلب أن يعين من دفع ضريبة الأراضي نظرًا لبلوغه من السنين. وأهمية هذه البردية ترجع إلى الطرفية التي وصف بها هيلينوس وضعه الرمزي في المجتمع، فوصف نفسه أولاً بأنه مواطن أسكندرى (Alexandreus)؛ ولكن موفقًا رسمياً في يبدو أصل هذا الوصف يجعله

Joseph. C. Apion, I, 189; II, 37; Bel. Jud. II. 487; (1) Antiq. XIV. 188; XIX, 281; Philo, In Flacc. 8. 53. (2) Joseph. C. Apron, II. 38. B.G.U. IV 1140 (Angustan age); ef Archiv Pap. V. (3) pp. 118—120.
نهال عنصره (1). (2) .

ثالثاً: من أهم ميزات المواطنين الأسكندرية أنه كان من عصر حكم الرمسي بين الأب والولد، وهو أن الأب ولد قبل أن يدخل وليده على المكتبة، ولذلك نستطيع أن نكتب الوضع الاجتماعي لولده الذي ولد فيه، ولما حصل الوالد على المكتبة فيها بعد لم يكتسبها هيلينوس هذا السبب.

من هذا يتضح أن اليهود في مصر الرومانية استمروا في الوضع الاجتماعي نفسه الذي كان لهم في مصر البطحائي، وأن أغسطس والأباطرة الرومان من

Bell, Jews and Christians. p. 14 ;
Jouguet, La Vie Municipale . p. 21.

(1) أطر
(2)
بعده أقرّوا لهم الامتيازات التي منحها لهم الملك البطالمة. فكانت له حرية العبادة الدينية ورابطة خاصة بهم تسمى يوليتيوما، وجلس شيوخ، ورؤس جالية، وأن هذا الرئيسي وجلس الشيوخ كانوا يكونون محكمة خاصة باليهود تفصل في القضايا التي تتعلق بالشؤون الدينية، كما أن لهم مكتب خاص لتسجيل الوثائق المتعلقة بهم. ورغم المعطى الذي ناله يهود الأسكدارية على أبدي الرومان إلا أنهما لم يصبحوا جزءًا من جماعة مواطني الأسكدارية وظلا من الناحية القانونية في نظر الإدارة الرومانية بعض «الصرينيون» يدعمو ضريبة الرأس (1)، كما كان يدفعها سائر سكان مصر عدا المواطنين الرومان والأسكدريين.

عرصنا فسبيق لعناصر الأساسية الكبيرة التي تكون منها المجتمع المصري في ذلك الوقت؛ وقد وجدت أيضًا فئات أخرى من الأجانب من بلاد آسيوية مختلفة أو بلاد إفريقية مجاورة أو من الولايات الرومانية المختلفة. منهم كان يتم في مصر أو في الأسكدارية إقامة مؤقتة من أجل التجارة أو أي سبب آخر، ومنهم كان يتم إقامة مستديمة. هذه الأقلات الأجنبية التي استوطنت مصر لم تبق طيلة محتفظة بخصائصها القومية وسرعان ما تأثرت واصطحبت بالطبع الإغريقي في اللغة والطقوس، وأصبحوا ضمن الفئة المصرية اليونانية.

(1) هناك برديات أخرى تتعلق أيضاً بدفع اليهود ضرائب الرأس هي مصادقة (Musurillo, Acta, IV) فيما إشارة غير واضحة من جانب إيزيدوروس إلى أن اليهود كانوا مثل المسلمين، وساهموا في الضرائب. فيرد أجيري ملك اليهود قائلاً إن الحكام فرضوا الضريبة على المسلمين، أما (اليهود) فلم يفرضوا عليها أحدًا. وقد تبين عن هذا التناقض الظاهر في السياق بين الدماء، ولكن يبدو أن التفسير الصحيح هو ما يقترحه روبريتس (C. H. Roberts) وهو أن أجيري يحدث عن اليهود خارج مصر وأن ضريبة الرأس لم تفرض عليهم. أما اليهود في مصر فقد فرضوها لأن هذه الضريبة قد فرضت في مصر ( أنظر الاقتراح الذي ورد في Musurillo, Acta, pp. 139-140

176
الذين سكنوا عواصم النومات، وكانوا يمثلون الطبقة البوغوازية في الريف المصري.

وأخيرا يجب أن نتعلق هنا على اصطلاح وجد في وثائق مصر اليونانية الرومانية وكثيرا ما أسمى فهمه، وهو لقب «فارسي من السلالة» (Perses les epigones) معلوماننا عن أصل هذا الاصطلاح قليلة جدا، ولا نكاد نعرف الظروف التي نشأ واستعمل فيها بادئ ذي بدء، وأول ما قد يتبادر إلى الذهن أن لقب لأفراد من سلالة الجالية الفارسية كانت موجودة بصرف النظر في الاستراحات الفارسية قبل الفتح الفيندسي. وسواء أكان هذا هو المعنى الأول لهذا الاصطلاح أو لم يكن فالوثائق البردية التي نشرت حديثا تثبت أن لم يدع مجالا للشك أن لقب «فارسي من السلالة» لم يكن منذ نهاية القرن الثاني قبل الميلاد فوريا أو جنسا أو طبقة اجتماعية كما ظن بعض الدراسين (1)؛ وأن استخدامه، اقتصر في نهاية العصر البطلي والصر الروماني على كونه تعبير قانوني يستخدم اختياريا في العقود بواسطة الأفراد الذين يقع عليهم الإزام المادي، وخاصة في حالة الدين، وقد أمكن إثبات هذا التفسير عندما لا لاحظنا في عقود الدوين أن أفرادا من طبقات وجماعات مختلفة يستخدمون هذا التعبير عندما يكونون مدينين فقط وأهمية استخدام هذا الاصطلاح في المعد، أنه بتباعد ضوابط إضافي للدائن، إذ يصبح له شخصية حتى اعتقال الدين في الحال أي (agogimos) (إذا ما أخجل بشروط المعد.

T. G. Tait, in Archiv Pap. VII. p. 180
P. Reinach, 25 (105 B. C.); P. Ryl. IV. 588 (84-78 B. C.) esp. Introduction to it by Turner; P. Hamb 1. 2 (59 A. D.).
Taubenschlag, Law, p. 407, 4

(1) أظهر مثلًا: agogimos

(4) حول دلالة الاصطلاح
الأسماء والألقاب:

من وسائل التنظيم الاجتماعي في أي دولة ضبط أسماه ومواطنيه حتى لا ينطرب الحقوق. وقد كان هذا التنظيم ممارسا في مصر القديمة، فكان كل فرد يسجل عند ميلاده ووفاته. وفي المصريين اليوناني والرومان، ازداد الاحترام لهذه الناحية، فكانت هناك نظراً لوجود جنسيات متباينة تمثلت بعضها بامتيازات خاصة. كما وجدت الكن اليدوية التي تتمتع مواطنيها ببوانس وحقوق خاصة.

وفي العصر الروماني زداد الأمر تعقيداً نظراً لأن حق الاحترام إلى الجنس الروماني كان قاسياً على مواطني الكن اليوناني، كما أن ضرورة الرأس التي فرضت على السكان طبقت بنسب مختارة للفئات والطبقات المختلفة. كأطنب بها الأسندرون نهائياً. لذلك كان ضبط النسب الاجتماعي والطبق أفراد واللتحيم من الناحية المالية بالنانية بالنسبة للذين يُشاركون في الإدارة والحكم. فوضعوا قواعد دقيقة جداً لمواجهة كتابة الاسم واللقب والوضع الاجتماعي بطريقة وافية. وأي محاولة للتوزير بتسخير الاسم أو الوضع الاجتماعي كانت تجازى بأشد العقاب.

وفيما يتعلق بأسماء الأفراد، كان هناك ميل متزايد بين المصريين نحو اتخاذ أسماء إغريقية. فذكرت هذه الظاهرة دون تنظيم فلا يبد أنها سنتهي إلى حالة من الفوضى؛ لهذا عهد إلى رئيس الإدارة[N] لمثله في العصر الروماني المعروف باسم «إيروس لوجوس» للإشراف على مسألة تسجيل الأسماء، وكان على كل من يرغب في تغيير اسمه أن يقدم إليه طلبه. والاسم المختار لذي تقابله في الكنيا (مصرية ورومانية) تبين أن أصحابها قد اكتسبوا أسماء

(1) يوضح من مرسوم ملكي أنه في العصر البطلي في بعض حالات التزوير قد

B.G. U. VI. 1250 (II b. C.)

Wièken, Chrest. 52 (191 A.D.); Of Suetonius,

Claudius, 25.

177
يودونية مؤخرًا، فاستخدموا أسماء المصريين القدماء إلى جانب أسمائهم اليونانية الجديدة للدلالة على شخصياتهم. من هذا يتضح مدى اهتمام البطالمة أولاً والرومان من بعدهم بضبط الأسماء والألقاب؛ ولا غريباً أن قاسم واللقب يميزان الوضع الاجتماعي للفرد في البنية الطبقية للمجتمع، والوضع الاجتماعي يميز مسئولية الفرد والطريقة التي يعامل بها فيما يتعلق بعض الأعمال والضرائب وخاصة ضريبة الأسد.

فيا يتعلق باختلاف الدم بين عناصر المجتمع المختلفة، فما لا شك فيه أن ذلك تم عن طريق الزواج بينهم. فلا بد أن الدم الذي جرى في يرتفع فئة المتروبولين من أهل عوالم الرومان كان مختلفاً أشد الاختلاف من إفريقي ومصرى وأسودين وغيرهم ؛ إذ لا يمكن القانون زواج هذه العناصر بعضها من بعض. وحتى مؤسسة هادريان الهيلينية في مصر مدينة إلنتوبوليس، منح لمواطنيها "الهيلينيين الجدد" امتياز حق الزواج من المصريات. أما المسند اليونانية الأخرى في مصر فقد حظر على مواطنيها الزواج من المصريات، ومع ذلك فنصت بعض مواد قانون الإيدوس لوجوس بأنه إذا حدث زواج بين مواطني الأسكندرية المصريين، "على جهل منهم بحقيقة الأمر"، فإن الدولة كانت تمتزج بالأمر الواقع وتعتبر أبناءها مواطنًا الأسكندرية.

أما الزواج بين الرومان والمصريين، فيبدو أنه من خبر المبدأ.

يتبين من ذلك على أي حال أن العناصر الأجنبية اختلطت بالصربين، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك الأجناس بمرور الزمن هو زيادة تصرف الإفريقي وغيرهم بالتدريج، حتى إذا العصر البيزنطي بعد ذلك غالب الطابع المصري في كثير من أوجه النشاط في الدولة، وخاصة في المجال المذهبي الدينى.

Wilcken, Grundz., p. 23.
P. Gnomon, articles, 45–47.
P. Gnomon, article, 52.
ب- نظرة الإدارة

كانت السياسة الرومانية في مصر ممثالة إلى حد بعيد، ولم تدخل النظام الإداري الممتد من التعديلات إلا ما كان ضرورياً جداً في أضيق الحدود في بداية الأمر. ففيما أن يقال إن التعديل الأساسي الذي أدخله أغسطس في نظام مصر هو إقامة موظفين جدد ليقوموا بهما منصب الملك البطليطى السابق، أما سائر الموظفين والنظام فقد بقي كما هو، حتى أن الأسماء والاصطلاحات الرسمية بقيت دون تغيير هام في معظم الأحيان (1).

فيما يتعلق بمنصب الملك، فقد أصبح الإمبراطور الروماني هو الملك الشرعي وفرعون مصر؛ فعلى المبدى، كان البطالمة يعتبرون من قبل في زي الفراعنة المصريين، ووفق رأسه الناحز لدوج مصر العليا والسفلى، وأمامه اسمه محفوراً داخل "خرطوشة" بالحروف الفينيقية. ولكن كان ذلك كله ضرورة من ضرورات الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية المصرية، التي لا تستثنى إلا بوجود فراعنة على رأسها، ولو كان مجرد رمز بعيد، كما كان الإمبراطور الروماني.

أما من الناحية العملية فقد أقام أغسطس موظفاً جديداً ليمارس جميع سلطات الملك السابقة وسمي Praefectus أو ولي. وكان اسمه الرسومي والمصر

---

(1) قام عدد من الماء بدراسة النظام الإداري لمصر الرومانية مثل:

Jouguet, La Vie Municipale; Oertel, Die Liturgie;
U. Chapot, L'Egypte Romains, pp. 271 ff.; Mlune.
Egypt Under The Romans Rule, pp. 120 ff; A. H. M. Jones, Cities of the Eastern Roman Provinces, pp. 311 ff,
(1) Praefectus Aegypti
(2) Praefectus Alexandreæ et Aegypti
(3) Ulpianus in Digest, I. 17. 1
(4) O.W. Reinmuth, Prefects of Egypt from Augustus to Diocletian (1935); and Stein, Die Praefekten Von Aegypten in der römischen Kaiserzeit (1950),
(5) O.G.I.S. 654
وزير العدل (diciodites أو juridicus) الذي يعتبر مع الوالي أهم تجديد أدخل الرومان على نظام الموظفين في مصر. ورغم قلة مالدينا من المعلومات عن منصب الرئيس القضائي (juridicus) وخصائصه، إلا أن الهدف الأساسي من إنشاء هذه الوظيفة الجديدة هو تزويد الإدارة الرومانية في مصر بخبير قانوني، نظرًا لأن الوالي من طبقة الفرسان التي يشتمل أفرادها عادة بالأيام والقانون في روما، وإنما كان معظمهم من رجال الجيش أو السلك الإداري أو الأعمال التجارية والمالية، لم تكن لديهم خبرة خاصة بالقانون الرومانى.

وهذا أنشأ أغسطس وظيفة الرئيس القضائي ليكون بمثابة مستشار قانوني ورقيب في نفس الوقت على تصرفات الوالي حتى لا تمارس أحكامه وإجراءاته بمبادئ القانون العام في روما. وفي كثير من الأحيان كان الوالي يستطيع في الأحكام قبل إصدارها أو أن يئبه عن نفسه في النظر في القضايا الكثيرة التي كانت ترفع إليه. الرئيس القضائي (juridicus) على هذا النحو قام في بعض اختصاصاته بمهام قاضى القضاء (archidicaes) في مصر الباطل.

عدا هذه النصيحة الجديدة بقيق النظام الإداري لمصر في أساسه دون تغيير هام، ولو أن اختصاصات بعض الموظفين أصابها شيء من الزوايدة أو النقصان حسب أجناس الحكام الجدد. فها يتعلق بالإدارة المالية للبلاد استمر يشرف عليها الشرف السال (Dioicetes) ورئيس المحاسب الخاص أو الإدريس لوجوس (diciodites) ولكن الأول (idios logos) فقد كثيرًا من أهميته السابقة في مصر الباطل، وأصبح الآن مجرد موظف إداري يساعد الوالي في الجانب الاحتجدي من المالي، وهو تقدير الضرائب سنوياً وجمعاً. وذلك لأن الوالي أصبح المسؤول الأول عن مالية البلاد، أما الإدريس لوجوس فقد زادت أهميته كثيرًا وأصبح هو الشرف على الجانب غير الاحتجدي من المالي.

ونظرًا لاضطراب الحياة الاقتصادية للبلاد في نهاية مصر الباطل ومحاولة الرومان
إصلاحها على أسلج جديد فقَدَعَد إلى الإدِيوس لوجوس بمهمة تنفيذ القوانين الجديدة. ومن أم وجُبَته الإشراف على إدارة الأراضي والمتلكات إلى قَرْر القانون مصادرها باسم الدولة سواء لأن أَجاحها قد هجورها أو تأخرها في دفع الضرائب المستحقة عليها أو لأنهم ارتكبوا خلافة قانونية إجراها استيلاء الدولة على أملاكهم أو جزء منها (١). ثم زيد في مهام هذا الوظيف مرة أخرى حين استولت الدولة على ممتلكات العبد وجعلت الإدِيوس لوجوس الكهنة الأكبر للعابد والشرف الملك على ماليها ومتلكاتها (٢).

وَفِيَا ينقُل بالإدارة المالية للبلاد عين عدد من الموظفين يُحملون لقب الإشراف على إدارات فرعية مميتة. ومن أهم هؤلاء الموظفين بروفانتوس مهناز الغلال في الأسكندرية (وعرف الحلي الذي وجدت فيه هذه المخازن باسم نابيوس) ومن اختصاصات الإشراف (Neapolis) على جميع الغلال ونقلها إلى الأسكندرية حيث كانت تخوض استعدادا لشحنها إلى روما. وهناك موظف آخر من هذه الطبقة وهو الشرف على أملاك الإمبراطور خاصة (Procurator usiacus) وكانت هذه الأماكن تشمل على مساحات كبيرة من الأراض الزراعية، وكان للإشراف عليها أهمية خاصة للإمبراطور شخصياً (٣). وكان هذا الموظف مسؤول عادة من بين عبيد الإمبراطور الحررين، وهيئتها استخدمها أغسطس وحققاً في كثير من مراكز الإدارة في شرق أجزاء الإمبراطورية، وذلك نظراً لولا الأجواء التي يرتبت عبر عبد الإمبراطور المُفرد بهم الإمبراطور.


١٨٢
عدا هؤلاء الموظفين الكبار في الإدارة المركزية في الإسكندرية والذين كانوا يختارون بواسطة الإمبراطور شخصيا من الموطنين الرومان من طبقة الفرسان عادة، وجد موظفان نعرفهما من المصري البطلي أيضًا وهم قاضي القضاة (hypomnematographos) والسكرتير العام (archidicastes).

بعد أن هذين الموطنين كانت عاملان كمساعدين للوالي، يستشيرا في الشؤون الفنائية والإدارية المصرية المحلية، ويمكن أن يلعبهما في تقرر بعض الأمور. ولكن يبدو أن وظيفة قاضي القضاة (archidicastes) قد طرأ على طبيعتها بعض التغيير، إذ استولى الرئيس القضاة الرومانى الجديد (juridicus) على اختصاصاته القضائية، وأصبحت وظيفة قاضي القضاة إدارية قبل كل شيء، وهي رئاسة دار المفوضات الرسمية التي تحتفظ بها نسخ من جمع الوثائق والعقود التي تمتد في أنحاء مصر جميعها، وكان مقر عملهما الإسكندرية، وترفع إليه الوثائق من جميع الأهل في النومات المختلفة وكانت وظيفتها قاضي القضاة (archidicastes) والمفوض العام (hypomnematographos) يمثلان أوقى منصب يستطيع أن يشغلها مواطن في مصر، ويبدو أنه كان يعين فيما عامة موطنون من مدينة الإسكندرية.

وظيفة أخرى أصبح يتولىها مواطنون رومانيون من طبقة الفرسان هي وظيفة الإبستراتيجوس (epistrategos)، وهي تعتبر حلقة الوصل بين الإدارة المركزية في الإسكندرية والإداراة المحلية في سائر البلاد. ذلك أن مصر كانت مقسمة إلى ثلاث أجزاء إدارية كلها هي الدلتا ومصر الوسطى (Heptakomia) ومنطقة طيبة في P. Ox. XXII. في تطبيقه على 2349 Turner. كما اقترح تيتر A. Calaki. أن تكون ثلاثة موظفين، يُقامون على البريطاني Aegyptus, 32, (1952). pp. 408 ff.
الجنوب (Thebaid) ، ويشرف على إدارة كل إقليم موظف كبير هو الإيستراتفيجوس. ومن التأبين أن هذا التقسيم وهذه الوظيفة ترجع إلى العصور الباطلية (1) ، وأن المينيكي نظامها الروماني هو أن من تولوا كانوا من المواطنين الرومانيين ؛ وفي حين أن إيستراتفيجوس طبقة في العصور الباطلية كانت له سلطة عسكرية وإدارية فإن هذا الوظيف في العصور الرومانية أصبح موظفاً إدارياً فقط. فالإيستراتفيجوس كان الرئيس الإداري لمعد من التوامون تنقسم إليها منطقته ، وكان مسؤولاً المباشر هو الإيستراتفيجوس ، رئيس التوامون ، ولكن يبدو أن الإيستراتفيجوس لم يكن يقيم في منطقة إدارته ، بل في العاصمة بالأسكددرية ، وكان يكفيف بتعيين جزاء إدارية وتجهيزية في التوامون التي تقع إدارتها ؛ كما كانت ترفع له التقارير في المقام في مقرر العاصمة بانتظام ، أما عن طبيعته ووظيفته فهي الإشراف على حسن سير العمل في منطقة اختصاصه من الناحية الإدارية ، والقيام بأي تحقيقات إدارية ، إلى جانب رفع ترشيحات الموظفين في الإدارة المحلية ليتم تعيينهم بواسطة الوالي. وقد بقيت هذه الوظيفة حتى نهاية القرن الثالث حين ألغاه الإمبراطور دقلديانوس (2).

هذا من حيث الوظائف الرئيسية في الإدارة المركزية في العاصمة والتي تولاها عادة مواطنون رومانيون أو مواطنون أسكندريون في الوظائف الأقل أهمية ؛ أما عن الإدارة المحلية بدرعاتها المختلفة في الريف فقد تقيمها إلى طبقات ثلاث . الأولى هي إدارة المدن اليونانية والتي بقيت متمتعة بنوع من

P. Tebtunis. (1) كان هناك خلاف حول تناول هذه الوظيفة وتاريخها ولكن قد أثبت أنها ترجع إلى الأقل إلى بداية القرن الثاني في م. ق. No. 778 (1788) c. م. م. الوالي أيضاً.


184
الحكم المحلي المستقل كما كانت في العصر البطلمي، والثانية هي إدارة الديموقراطية التي كانت تنقسم إليها البلاد إدارياً، والأثرة هي إدارة القروي التي كانت تنقسم إليها كل نوموس بدورها.

ولنتناول أولًا إدارة الديموقراطية التي كانت أساسًا جزءًا من الإدارة المركزية العامة. ويمكن تقسيم إدارة الديموقراطية إلى نوعين من الوظائف: النوع الأول يشمل وظائف تمتل الإداري التك彩 الأولي، وأهمها وظيفة الاستراتيجوس (Basilico—grammateus) والكاتب المركزي (strategos). وهو الرئيس الفعلي لإدارة الديموقراطية وملحول الأواف، ويشمل إشراف جميع النواحي الإدارية والمالية. فهو الذي يصدر توصيات الضرائب السنوية، والظروف حسب الإحصاءات التي يجمعها بهدف تحصيلها من الوظائف المختلفة.

كما كان مسؤولًا عن نظام الشرطة في الديموقراطية، ولكن لم تكن له سلطة النظر في القضايا وإصدار الأحكام إلا بناءً على توجيه رئيسي من الوالي أو أحد كبار الموظفين القانونيين في الإدارة المركزية في العاصمة. ولكن كان يجوز له أن يقوم بتحقيق أولى فيما يرفع له من مسائل، أو يقع من خلاف في منطقة اختصاصه ثم يرفع الأمر إلى الوالي ليفصل فيه في الأسندادية أو أثناء القيام بجولته القضائية في الأقاليم. وكان لكل نوموس استراتيجوس واحد، باستثناء القاهرة، حيث يوجد بها أثاثون، وذلك أنها قسمت إلى ثلاث مراكز، فتون إدارة المنطقة تنتهي إلى إستراتيجوس، آخر المنطقة الثالثة. وكان الإستراتيجوس تنتهي من بين أفراد الطبقة الإغريقية المصرية من أهل العاصمة الديموقراطية (متروبوليس)، وكان يراعى ألا يعين الإستراتيجوس في الديموقراطية التي ينتهي إليها.

وكان التعيين لهذه الوظيفة يصدر من الوالي بناءً على ترشيح الإستراتيجوس، ويستمر لمدة ثلاث سنوات عادة، كما كان شاغلاً يتلقى راتباً سنوياً، ولاأنا
لاعرف مقدار هذا الراتب (1).

أما عن الكتاب الملكي (basilicogrammate) فهو الساعد الأيمن للإسترئيغوس، وقد احتفظت وظيفته بالاسم الباطل رغم جلال الملكة، ويُعتبر الكتاب الملكي من أهم من يمثل البيروقراطية المصرفية في ذلك العمر، فجميع الإحصاءات والتقارير التي كانت تكتب عن النوموس وترفع إلى الإسترئيغوس كانت تخرج من مكتب هذا الوظيف، ومن ثم تظهر أهميته الإدارية وخاصة في مسألة الضرائب وتدريبها، ومسألة التشريح للوظائف الأخرى والأعمال الإجبارية، لأن الكتاب الملكي كان الوظيف المعتمد على قوائم الرشحين المناسبين للأعمال المختلفة، كل حسب ماتمتلك من عقارات، ونظراً لأهمية هذا الوظيف فقد كان له راتب سنوي، وكان يختار مثل الإسترئيغوس من بين أفراد الطبقة الإغريقية المصرفية في المتروبوليس، وكان يوجد في كل متروبوليس دار لحفظ الوثائق والأوراق الرسمية يشرف عليها مصروف أرشيف كما تقول الآن، ولقبه الرسمي bibliophylakes ويعتبر الساعد المباشر للسكرتير الملكي (2).

إلى جانب هذه الوظائف التي تمثل السلطة المركزية في النوموس وجدت منذ بداية العصر الروماني وظائف أخرى ذات صبغة محلية في عاصمة النوموس (المتروبوليس) (3)。

الغرض الأساسي من وجود هذه الوظائف هو أن يهم مواطن كل


(1) أُنظِر المرجع السابق.


186
مترودوبلس يثمنون مدينتهم الخاصة، مثل الإشراف على الجنازيوس أو تموين المدينة، بمواد الغذاء الأساسية من القمح والزيت مثلاً، أو الإشراف على سوق المدينة، ومراقبة عاليات البيع والشراء حتى لا يحدث تلاعب. هذه الوظائف لم تتمكن ماجورة وإنما اعتبرت تشريعاً لمن يتجاوزها، ومن هنا، سعي أصحابها "حكامها" (archontes) و"مسجل الجنازيوس أو جمهورياً رئيسي"، و"لاعثياً و"executees"، و"الشرف على القصور و"archieus" (archierenches) و"الشرف على التموين (agoranomos)". وكما يضح من ألقاب حكوات العليا، هي نفس الوظائف التي تعرفها المدن اليونانية، فقبل في نظام حكوات العليا، وعليها اقتبس من مدينة الأسكندرية، التي كانت الملأ الأعلى للمدن في مصر. ولكن يجب أن نذكر أن المترودوبلس في مصر لم تعرف هذه الوظائف جمعاً دفعة واحدة، لأن الغرض الأول من ترشيح هذه الوظائف المحلية في عواصم الريف كان للتفنن في القضاء، ولم يسموا، وراء تطبيق نظام الحكم المحلي فيها. ويمكن أن يقال إن الإدارة الرومانية لم تشرع في تطبيق نظام الحكم المحلي في القرى إلا تحت ضغط الظروف الاقتصادية والإدارية السيئة في الولاية كا سينبين عند السكالام عن إصلاحات الإمبراطور سيفيروس والقرن الثالث.

المرحلة الأخيرة في نظام الإدارة الرومانية في مصر هي إدارة القرية، إذ كانت كل نوموس تنتظم إدارياً إلى قرى. وهذا أيضاً نجد النظام الإداري المركزي ممثل أيضاً، فالإدارة المركزية ممثلة في شخص كاب القرية (komogrammateu)، وهو الوظيف المسؤول عن إعداد الإدارة المركزية بالمعلومات الضرورية عن القرية فيما يتعلق بالضرائب أو الخدمة الإدارية. فهو
المستوطنة على قسم بأهل القرية وعدد الرجال البالغين بها، ومقدار ملكية كل شخص وفقه عليه من شرائبهم أو القيام بالخدمات الإجبارية مثل بناء الجسور وحرث الفروع وتنظيف الأراضي وغيرها. وهو الذي يرفع القناعات السنوية على حالة الأراضي في القرية وهل رؤيتها مياه الريضان أو لم تروها ونوع المحصول الذي تنتج كأرض وهكذا حتى يمكن تقدير الضرائب السنوية تقريباً صحيحاً. أما عن سنوائية الأهل في الإشراف على شؤون قريتهم فكانت ممثلة في لجنة "شيوخ القرية"، اختلاف عددهم حسب ظروف كل قرية. ومهمتهم الرئيسية هي قيامهم بدور الوسطاء بين الدولة والأهالي في مسألة جميع الضرائب وإمداد الدولة بالآراز المختلفة عند الضرورة، وبدور أن الضوضية في لجنة شيوخ القرية كانت ضمن الأعمال الإجبارية (leiturgia) التي كانت تقع على طبقة ملوك الأراضي من الأهلاء، وتستمر الضوضية لمدة سنة واحدة.

المدن الإغريقية:

لم تكن الإدارة الرومانية أكثر حرضاً من الحكومة اليونانية على نحو نظام المدن اليونانية في مصر، ولذا اكتسبت بأن تركت للمن الأربعم كانت موجودة زمن البطالة، ولم تقدم على زيادة عددها إلا بعد مفاصلما يزيد على مائة وخمسين عاماً على حكمهم، أي في سنة 130 حين أنشأ هادربان مدينة أنتفوبوليس في الصعيد. ورغم ندرة معلوماتنا عن ثلاثة من المدن الأربع القديمة وهي نوقراطس وبطليسا وبرتونيوم، إلا أن مالدينا منديل يكتب لإثبات أنها جميعاً احتفظت بنظام المدينة اليونانية، فكان لها حكم مماثل:

Wilcken, Chrest. No. 272 (136 A.D.); and id. Grundz (1) pp. 43 and 217. Also of. Milne, Egypt, 129 f.
أما عن مدينة الإسكندرية فقد أُصاب نظامها ووضعت بعض التغييرات. لقد سبق أن أوضحنا في العصر البطلي أن الإسكندرية تتمتع منذ البداية بنظام المدينة اليونانية كاملاً، بما في ذلك Session التشريعي (boulé)، أم أُكرِّرت ذلك النظام. ومن دون أن نستخلص من تاريخ هذا المجلس قليل جداً في العصر البطلي إجمالاً، ومنذ بداية الجزء الأخير منه، مما دفع بعض العلماء إلى إمكان وجود مجلس تشريعي في الإسكندرية وخاصة في الجزء الأخير من العصر البطلي (1). ولكن كل من عيان دراسة التاريخ يفضل خطورة استنتاج حقيقة التاريخ بطريقة الاستدلال من صمت الصادر؛ فلا بد من وجود دليل تأكد للإطمئنان إلى حجة الاستنتاج التاريخي. وهذائيح أميل إلى الاعتقاد بأن المجلس التشريعي استمر في الإسكندرية طوال العصر البطلي، وأن أنه في بداية العصر الروماني (2). فالصادر الأدبي والوثائق البريدية المعتبرة تذكر في غير مواربة أن الإمبراطور أغسطس أمر الإسكندريين ببعض الحياة العامة في المدينة دون مجلس تشريعي، وأن الأباطرة من رفضوا إجابة مطالب الإسكندريين بإقامة المجلس.

---

Jouquet, La Vie Municipale, pp. 115 ff.; and Jones, Cities, pp. 311 ff.

Milne, Egypt, pp. 282 ff.

(1) من هذا الرأي أيضاً:

189
لأن أغسطس أمر نظام المدينة بدون مجلس تشريعي (boule) (1). هذا الإجراء من جانب أغسطس يعتبر طمأنة للكبراء الأسكندريين، وللفرض الحقيقي منها هو إشعار مواطنيها بتبعيدهم الجديدة لروما. ومع ذلك تقلّب الأسكندري المدينة الأولى في مصر والمثل الذي تفتقد سائر المدن. فن ناحية أخرى اكتسبت مواجهة الأسكندريه أهمية خاصة في المصري الروماني كـ " catena " أن ذكرنا - لأن مواطني الأسكندريه أعلموا من ضرورة الرأس، كـ " catena " على كل مصري أن يصل إلى مواجهة الأسكندريه قبل أن يجوز له أن يحصل على مواجهة الرومانية. هذه الاستيكان جمل مواطني الأسكندريه يكونون رسمياً طبقة أرستقراطية بين سكان مصر جميعاً.

أما عن نظام حكم مدينة الأسكندريه وإدارتها، فقد كان مبدأ الازدواج الإداري مثلاً في هذا أيضًا: موظفون مدنيون يمثلون الولاة، وموظفون معيونون يمثلون السلطة المركزية. ولم📖 الأسكندريه في ذلك كانت نسخة من نظام الطرابلس (2). فقد وجدت في الأسكندريه جمع الوفاق المدني الذي وجد في الطرابلس وهي: "الكسيجيسيس" (exegetes) و"جمانيايروس" (agoranomos) وأ"جرالوموس" (cosmetes) و"كوسسيبيس" (gymnasiarchos) وال"سكيجيسيس" (prytanis). كانوا في مجموعهم يكونون لكنس (neorhos) تحت رئاسة "الكسيجيسيس"، وكان يضاف إليهم أعضاء آخرون معيونون من قبل الإمبراطور شخصياً، وكانوا عادة من عبيد الحريم (Kaisarioi).

أما عن طريقه تولى هذه المناصب، فتعلم من خطاب الإمبراطور كارولروس الشهور أنه قد وافق على بيع وظيفة السكاحين فقط بالاقتراع بين المتدرين، مما يدل على أن سائر المناصب تم بطريقة أخرى وهي الاتخاذ بواسطة الولاة.

---

Dio Cassius, 51, 17; P.S.I. 1160; P. Lond. No. 1912 (1) in Bell, Jews and Christians.
Jouguet, loc. cit; and Jones, loc. cit. (2) نظر.
ومما يؤيد هذا الاعتقاد أن رئيس الجنتازيوم أو الجنريارخيس كان يقوم دامًا في العصر الروماني بدور الزعيم الشمالي ضد الحكم الروماني، كما يضح من مجموع العلماء الوثنيين. وفيا يتعلق بدولة تول المناصب فإن كاكاروس في الخلافة ذاته بقر جملها مدة ثلاث سنوات فقط.

وربح وجود هذه الوظائف المدينة يجب ألا ننظر أن الرومان كانوا أرحب صدراً فيها يتعلق بحرية البلد واستقلالها، بل يلعى المصادر من ذلك فقد كان للسلطة المركزية موظفين في المدينة يشاركون ويدخلون في كثير من شؤونها. وقد رأينا رجال الإمبراطور معينين في جلالة حكم المدينة، وفوق ذلك وجد أيضا حاكم المدينة (sbatezos) وقائد للبوليس. ويبعد أخيراً أن النظام القضائي قد تعرض لغير جذري، فلم نبعد نسبي عن محاكم المدينة، وجميع القضاة أصبح الآن بيد السلطة المركزية أو من يمثلها فقط (1). وتحت محكمة موطنية المدينة لم يسكن أبناء الأسكندريين كنتي في يد الإمبراطور (2). وعما كا كان من أخذوا أنفسهم في سجل المدينة بغير وجه حق من سلطة الوال (3).

أما عن المدينة الإغريقية الجديدة التي أنشأها الرومان في مصر وهي أكسيبوليس فقد أسسها هادريان في عام 130 على موقع مدينة مصرية قديمة، تخلباً لأحد أصطباه الذي غرق في مياه النيل. ويعتبر تأسيس هذه المدينة من خلال إقامة هادريان بالمدينة الإغريقية، فقد منحها نظام المدينة الإغريقية المشتركة، وأنها نظمت على مثل أقدم مدينة يونانية في مصر وهي نبراطس، فكان

191

P. Lond. 1912. in Bell. (1)
Jeguet, op. cit, pp. 167 ff. (2)
Strabo. 17. 1. 12 Jews and Christians.
Pliny, Epist. X. 7. P. Gnomon. 40. (3)
لا نظام الحكم المحلي عن طريق الموظفين المدنيين المنتخبين وجلس تشريعي (boule) وهو ما قد حرمته السكدنارية ذاتها فضلا عن سائر الترويقات. أما مواطني هذه المدينة الجديدة فقدجب بهم من إغريق مدينة بطلية في منطقة طيبة ومن إغريق منطقة الفيوم الذين عرفوا باسم "ألف 240 إغريقيا في نوموس أرستوي". وكذلك من الجنود المسرحين من الجيش الروماني. وقد منح مواطني أنتينوبوليس امتيازاً خاصاً لم يمنح للسكن اليوتانية الأخرى وهو حق الزواج من المصريين. وقد قدم المواطنين إلى قبائل وأحياء (phylai, demoi) كأي الأمر في السكدنارية وإن ياما أيضاً. هذه هي أهم ملامح المدينة الجديدة ومنها يتضح أنها قد وردت من حيث النظام مدينة يونانية كاملة، وقد ساعد على ازدهارها المادي أول الأمر، ذلك الطريق التجاري الذي يحده هادريان ليصل مدينته الجديدة بالبحر الأحمر، في فترة بلغت فيها التجارة مصر الشرقية مرحلة من أسرع مراحل نشاطها.

إصلاحات القرن الثالث:

هذه هي الملامح الرئيسية لنظام الحكم في مصر خلال القرن الأول من الحكم الروماني. وقد أمكن العمل بهذا النظام بنجاح خلال القرن الأول وأكثر من نصف القرن الثاني، ولكن في النصف الثاني من القرن أظهرت نقص قصور وعيوب مختلفة أندثرت في نهاية القرن بفترة وسطية. وكان من الطبيعة أن يتعرض مثل هذا النظام للإفلس بعد مضي بعض الوقت، لأن كل نظام إداري أو سياسي مرتبط ضرورة بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية البلاد. وتوضيح ذلك تقول أن سكان

E. Kuhn, Antinoopolis (1913). Bell, Antinooponie. A. Hadrianic Foundatino in Egypt, J. R. S., 30 (1940), 133-147.
كل نوبوس في الريف المصري كانوا في القرنين الأولين يتبعون أساسا إلى فئات أو طبقات ثلاث:

أولاً: أقلية من الرومان والأسكدريون يتمتعون بامتيازات محددة.

ثانياً: أهل عواصم النومات الأصلية (ماريوليون) وهم من أصل إغريقي أو مصرى. ينتمون إلى الطبقة الوسطى في المجتمع المصري.

ثالثاً: أهل القرى والريف من صنار المزارعين والفسلين. ينتمون إلى الطبقة الدنيا في المجتمع المصري.

وقد رأينا عند وصف النظام الإداري في مصر الرومانية أنه كان يقسم إلى قسمين أساسيين: الأول ما يعرف أي تباثي الموظف في سلك الإدارة المركزية مثلاً وظائف الإستراتيجوس والكاتب الملكي. والقسم الآخر غير الموظف في سلك الإدارة المركزية. ويشمل في درجاته العليا مناصب الحكم المحلي في القرى ومستمات الإدارية (leiturgia) بما فيها كاثر القرية أو العلمية في جنحة شيوخ القرية وما دون ذلك من أعمال الحربية والنقل والملى، مما كانت الدولة تفرضه فرضًا على الأهالي حسب قدراتهم المادية.

إذا ما يختلف عن بمثابة كل طبقة من الطبقات الثلاث من هذه المسؤوليات الإدارية أنواعها المختلفة، سبيل عيننا تباثي وجه الخلل في النظام بأسره خلال القرنين الأولين كثيراً ما تولة الرومان والأسكدريون القيمون في الريف للناصب الحامة في الإدارة المركزية في النومات مثل مناصب الإستراتيجوس والكاتب الملكي؛ ولكنهم كما تولاوا الوظائف الدينية الأخرى غير الأجور أو وظائف الخدمة الإدارية، مع استثناء القيام بعملية جمع الضرائب بطريقة

١٩٣
الالتزام، الذي كثيرًا ما كانت تدر عليه الرحب الودير. فيبدو أن المواطنين الرومانيين والأسكندرنيين جاؤوا إلى كل وسيلة ممكنة للقرب من تحميل أى أعباء إدارية في الريف (1)؛ ولا شك أن مواطنيهم ساعدتهم على أتات أنهم لا يمتنون إلى الطرابلس، ولذا لا يجوز أن يتحملوا تبعات وظائفها - لأن المبدأ الأساسي في تولى الوظائف المدنية هو الوطن (origo) (2)، أي أن كل شخص في وطنه. لهذا السبب وضعت الإدارة في الريف على كاهل الفئتين الثانية والثالثة فكانت: وظائف الحكم المحلي في الطرابلس تقع على الطرابلسيين، بينما تحمل الطرابلس الأعمال اليدوية والوظائف螨ية من الخدمات الإدارية العامة. ومن تتبع الحياة العامة في الريف المصري في القرن الثاني يتبين أن الأعباء التي أثنت على كاهل هاتين الفئتين الأخيرتين كانت أكثر من أن تتحملها طاقتهما المادية. فكثر من أهل القرى فوقو من قروهم إلى المدن الكبرى أو إلى مغامرة جمال الدنيا، هربًا من الضرائب والعجزة الإدارية؛ بينما تحوّلت الوظائف الإدارية المختلفة في الطرابلس إلى خدمات إدارية تفرض على القادر من الأهل ضرًا دون اعتبار بأى نظام من نظام الاختبار الشخصي. ونظرًا لتكثيف هذه المناصب، فقد عانى الطرابلسيون كثيرًا من جراحها، حتى أصبح من المتذمر في نهاية القرن الثاني الميلادي على عدد كاف من الأفراد من تتوفر فيهم الشروط اللازمة لشغل جميع الوظائف حتى أوشك النظام الإداري بأسره على الانهيار (3).

زار مصر في ذلك الوقت الإمبراطور سيميون سيفيروس (199 - 280)

(1) وتحت القيام بالالتزام جميع الضريب كانوا ينهبون منه عند الضروره كما يوضح من:
B.G.U. 747 (137 A.D.) = Wilckan, Chrest 35
Jouguet, La Vie Mun. 91 ff. أظهر:
Jones, Cities, pp 319 ff

(2) يوجد وصف واحد للصلة هذا الإهمال في كتاب

194
منحة مدينة الأسكندرية وعوامل النومات (مترروبولات) نظام المجلس التشريعي (boule) الإمبراطورية الرومانية. ولكن هدف سيقيروس الحقيقي من وراء هذا الإصلاح لم يكن تعميم نظام الحكم المحلي وتعزيز الحرية السياسية، بل كان من خلاله إبقاء مسؤولية الإدارة على الأهالي بدلاً من السلطة المركزية. فقد فقد ذلك التاريخ أصبحت طبقة أصحاب الأماكن في كل متربوليس مسؤولة بأجمعها في هيئة مجلس عن شغل وتوظيف المناصب العامة. من أتت نتائج هذا الإصلاح في مصر على أي حال هو زيادة من أهمية المترروبولات بعد أن سووا بالعاصمة الأسكندرية وأصبحوا جميعًا يشتملون بمجلس تشريعي. وبدو من ناحية أخرى أنه لم يسمح للفرات الشاقة من الرومان والأسكندرية الذين في الريف بالهرم من تحمل نصيبها في الإدارة المحلية في ظل نظام المسؤولية الجماعية الجديد. فلم يعمر الطريج أن أول عضو في المجلس التشريعي الجديد في مدينة أوخسرس (البجنسا) في سنة 301 كان مواطناً أسكندرياً.

ومن الإصلاحات الخطرة أيضًا التي جاءت في عقاب تشريع سيقيروس قانون الإمبراطور كارا كلا الذي صدر في سنة 212 تمنح المواطنة الرومانية لجميع السكان الأحرار في الإمبراطورية باستثناء طبقة الخاضمين (dediticii) في مصر، على أي حال، شمل هذا القانون الجديد المصريين جميعًا، وكانت له النتائج التالية:

R. Calderini, Bouleutica, Aegyptus (1951) P.S.I., 13 (1951) P.S.I., XII. Nc. 1328 (201 A.D.)
أولاً من الناحية القانونية، أصبح جميع السكان قانونا مواطنين رومنيين، رغم أنه استمر تطبيق القانون المصري الإخوتي (1). ثانياً من الناحية السياسية، لم يعد هناك تميز رسمي بين المواطنين الرومانيين والأسكندريين من ناحية وتروبوليين من ناحية أخرى. القاعدة الجديدة لتحديد مسؤولية الأفراد هي الوطن (origo)، والذي كان وراثياً حتى أن الأسكندريين القديمين في الريف الذين كان ينتمون لهم أن يدعموا أن موطنهم الأصلي هو الأسكندرية، لم يجدوا قاعدة تجعلهم من تمسك بكرManip جمهم القديم، وكثير منهم تدرجو أخذوا مكان إقامة في الريف جنباً جنبياً موطن هم (origo). يتضح من هذا أن نتيجة هامة لقانون كاراكلا من وجهة النظر السياسية أنه قد تمكنت عملية تسوية هابطة في أ--+هاء إيجابية الفئات القديمة المتنازعة من الرومانيين والأسكندريين وقفة التروبوليين إلى أن قانون كاراكلا أنه جميع الامتيازات المحلية. ويدو أن هذه التغييرات تمكنت قاصرة على مصر وحدها، بل كانت تشمل ولايات الإمبراطورية المختلفة.

ثالثاً من الناحية الإدارية: نتيجة أخرى وثيقة الصلة بالنيتيجة السائدة هي أن الرومان والأسكندريين القديمين في التروبوليات أصبحوا ملزمين بالدخول في عضوية المجال التشريعي المحلية الجديدة ويفتولي مناصب الحكم المحلي، شأنهم في ذلك شأن التروبوليين سواء سواء. ولم تقتصر هذه المؤشرة على أولئك الذين


196
أخذوا من الروم بوليس مؤمنة لهم، ولكن شملت الأفراد الذين كانوا مقيمين فقط في الروم بوليس وكانوا يتلكلون النصاب اللال اللال لتوظيف الوفاق، وذلك لأن الروم والأنسكادرين — كما سبق أن ذكرنا — لم يعودوا فقظ

بمثابة ذو مواطنة خاصة، ولذلك لم يكن هناك سن بديل إلى الترب فب تحم نصيبهم في الإدارة المحلية. ولا تجد استثناء من هذه القاعدة إلا مواطني مدينة أنثونبوليس الذين كانوا يتلونون بامتياز قديم كان قد منح لهم وهو إعفاءً من تولى مناصب الحكم المحلي والخدمات الإدارية خارج مدينةهم. ويبعد أنهم ظلوا يتلونون بهذا الامتياز حتى عام 204، ثم أتى بعد ذلك

مباشرةً، وطبق عليهم المبدأ العام من إمكان تولي المناصب في أكثر من مكان عند توفير الشروط اللازمة. وفيا يتعلق بطبقان الروم والفلاحين الذي علما أيضاً قانون كلا كلا

لكن كان يحدث أحياناً أن يطلب أفراد منهم تولي الوظائف في الروم بوليس،

(1) لقد وردت مسألة تولى الوظائف المدنية في الوطن أو في عل الإقامة في النا القانون: "Digest 50.1.17.4. Sed eodem tempore non sunt honores in duabus civitatibus ab eodem gerendis: cum simul igitur utrabique deferentur, potior est originum causa."

ويتضح أنه لا يجوز أن تتوفر اللجان الواحدة مناصب الحكم المحلي المدنية في مكانين في الوقت ذاته. ولكن عند حدوثهما في مكانين في وقت واحد، فإن الوطن الأصل يكون في مكانين في النستجر من هذا التس عربي المعتقدات المدنية. في إذا لم يكن أن تتوفر اللجان في مكانين في وقت واحد، أن الوطن أن يختار بينهما، ولو أن الوطن يفضل الوطن. ولكن يبدو أيضاً أن القانون يبيح للفرد أن يрус اللجان في مكانين مختلفين إذا حدد ذلك في أوقات معينة.

إلا أن القاعدة العامة أنهم لم يتولوا هذه المناصب إلا لفترات عدوى أو لأنه كان من حقهم أن يدعموا بالنقد في موطنهم الأصلي (origo) فقط وهي القرية حيث كانوا يقيمون (1). وعلى ذلك فيمكن أن يقال إن هذه أنسباً إدارية قانون كارا كلا أن عدد لا يتأت به من أفراد الطبقة الأثرية من الرومان والسكيندريين وغيرهم الذين في الريف قد أدرجوا نهائياً في طبقة أهل عواصم النومات من المرتبة.

نظام الأراضي:

لم يكن الإمبراطور أغسطس وراء بلمطهر التأثير المثير، بل لعله كان أكثر وراء بالإصلاح. دون أن يصبحه بالسبينة التورية، فكم حريصًا على أن يضفي على أعماله مظلا تقلدها، بعيدًا في الظاهر عن مظهر التورة والتبديل، رغم أن أعماله كثيرة ما كانت ثورية في واقع الأمر، جدوى في ظاهرها في عصره.

ومن بعده إلى زمن بعيد. وتتضح هذه السياسة جلدها في الخطة التي اختطها أغسطس بشأن نظام الأراضي في مصر. فحين ظهر تبدو وكأنها استمرار لنظام الأراضي الباطني، إذ أبقى على تقسم الأرض بأنواعها البطامية مستخدمة نفس الإصطلاحات البطامية في أغلب الأحيان. ففيت أرض مصر تنقسم أساسًا إلى نوعين من الأرض: العامة التي تملكها الدولة، والخاصة التي يتعلقها الأفراد. هذا من حيث الظهور فقط، أما من حيث الواقع فإن أغسطس أسس سياسة مختلفة تمامًا سياسة البطالة الرسمية. فبقدر ما كان البطالة باختهاون ببداً ملكية الدولة مماثلة في شخص الملك، أنتجت السياسة الرومانية الجديدة نحو تشجيع الملكية الخاصة والاستثمارات الشخصية بأنواعها المختلفة. هذه هي نقطة التحول في الاقتصاد المصري بين المصريين الباطني والروماني. فبالرغم من أن الملكية الخاصة وجدت وتثبت في العصر الباطني إلا أنها كانت ظاهرة تسير في عكس أتجاه السياسة الرسمية للدولة، أما في العصر الروماني فإن السياسة العامة كانت تدفع نظام الملكية الخاصة دفعًا إلى الانتشار والباء.

في ظل هذه السياسة العامة يمكننا أن نتحدث عن كل نوع من أنواع
الأرض ونبنين ما أصب كل واحد منها من تطور في مصر الرومانية. (1)
وبدأ بالأرض التي كانت تملكها الدولة وكانت تسمى عمومًا الأرض العامة (gē demosia)، وكذلك تكون أساسًا من الأرض الملكية (gē basiliké) المعروفة منذ المصر البطالي. وظل هذا النوع من الأرض كأفضل ينجز في شكل قطع صغيرة إلى الفلاحين الزارعين الملكيين. مقابل إجار معلوم بقدره مبلغ من المبلغ السنوي للأرض.
وفي نطاق أراضي الدولة تم نص على أرض عرف باسم الأرض العامة أيضًا (gē demosia) ولكن معناؤها لم يحدد بعد، وخلال هذا النوع معين من الأراضي كان يتم قطع صغيرة من الأرض مثل شواطئ النهر أو الزوايا التي تطرأ على مساحة الجزيرة النهرية، والتي لم يتم وضعها ضمن قسم معين من أقسام الأرض الأخرى (2).
أما عن أرض المعابد كانت ضمن أقسام الأرض الرئيسية في مصر البطالي؛ فلم يصح أغسطس باستمرارها وسحرها، وأطلقها الملكية للدولة. ورغم أن الإصلاح القديم يظهر أيضًا في الوثائق المصرية، فإن ذلك خطأ. كان يرتكب عمدًا بواسطة الموظفين الذين اعتادوا استخدام هذه الاصطلاحات في أوراقهم، واستشرعوا إطلاق الأسماء القديمة على الأرض بعد أن تغيرت صحتها الرسمية. أما عن طريقة إدارة أرض المعابد بعد استيلاء الدولة عليها، فقد أضيفت هذه السلوتية إلى الوظائف الملائمة المعروفة باسم الإيديوس لوجوس، الذي تولى أيضًا منصب رئيس الكنيسة في مصر. وهي أكبر


Johnson, Roman Egypt, p. 25. (2)
خطوة أخذها أغسطس للسيطرة على العابد والكرنكبة مادبا وسياسياً (1)

ولم يكتم أغسطس الاستيلاء على أرض العابد، بل استولى على أراضٍ أخرى وضمها إلى ملكية الدولة، مثل الأراضي الخفية أو التي كانت هبة من الملك البطالبي فتم فيها أعماها أو محروماً أو قُسواً في دفع ما كان يستحقه عليهم من الضرائب. فكان من حق السلطة المزدامة الاستيلاء على هذه الأراضي وضمها إلى أماكن الدولة، وكان يشرف عليها أيضاً الإيدروس لوجوس (2).

هذه هي الأقسام الرئيسية التي كانت تشمل الأرض العامة؛ وقد وجدت أنواع أخرى ولكنها كانت أقل أهمية من الناحية الاقتصادية، وليس مجال الإقامة منها. وقد يُتبادر إلى الذهن بعد هذه الصيغة المختلفة أن سياسة أغسطس لم تختلف كثيرًا عن سياسة البطالبي من حيث الخطة على جملة الملكية العامة في أساس الاقتصاد المصري في مجال الزراعة. ولكن في الواقع لم تكن هذه الصيغات إلا إجراءات أولية، فبعد ذلك، كانت الحال في الجزء الأخير من العصر البطالبي. لأن كل الدلالات تثبت أنه بالرغم من أن الملكية الدولة ظلت تحكم في قطاعات هام من الأرض الزراعية، فإن الرومان اتجهوا سياسة جديدة أكيدة تهدف نحو تشجيع الملكية الخاصة بشكل لم يسبق له تأثير. وكانت هذه السياسة جزءًا من سياسة أغسطس العامة في سبيل استحالة الاقتصاد البلاد. ومن أجل تنفيذ هذه السياسة لجاء إلى أساليب مختلفة؛ من ذلك ملكية خاصة لأصحابها بعد أن

P. Tebt. II. 302 (71—2 A.D.) = Wilcken, Chrest. No. 368; ef. also Wilcken, Grundz., pp. 300 ff,
Strabo, 17. 12 (c. 797. 12); P. Ox. IV. 721 (13—14 A. D.) = Wilcken, Chrest. 369.
كانت من الناحية الرسمية على الأقل هيئة مؤقتة، كما بيك أن بيكنا(1). وبذلك يمكن أن يقال إن الأطراف العام الذي ظل يدوم في المصري البطلي نحو خروج هذه الإقطاعات من ملكية الدولة تحققت نهائياً في المصري الرومانى، وعلى هذا التحو زاد الملكية الخاصة (gé idiotiké) سيادة كبيرة.

بعد أن أم أغضض فع مصر مباشرة، يبدو أنه منج جنود الذين استقروا في البلاد إقطاعات عسكرية لتكون ملكًا لهم، ولكن التقليد الذي اتبعه بعد ذلك هو منج الجنود مكافأت مالية وتشجيعهم على شراء الأرض من الدولة بسعار إسماة. (2) ولم يكن بيع هذه الأرضى التابعة للدولة قاسراً على الجنود، بل كان مباكاً للجميع، لأن الهدف الرئيسي هو تشجيع شتى الطبقات على استثمار أموالهم في الزراعة من أجل النهوض بجمال البلاد الاقتصادية. فقد كانت أسعار الأراضي المباحة مشجعة للغاية حتى بالنسبة لبسم الأرضى البور التي كان يكون منها معظم هذا النوع من الأرض. ولنضرب على سبيل التال بعض الأسعار التي أمكن جمعها من الوثائق البريدية: 12 دراحة للأورا في أوكسيرغوس، (3) 30 دراحة للأورا في هرموليس، (4) 28 دراحة للأورا في تابتنوا، كذلك في كرنس (وكلاها في النوم). (5) وفي بحرية أخرى من هرموليس تجد أن قطعة أرض صادرتها الدولة والباغها بالزادات الملكى، قد زد سعرها قليلاً إلى 40 دراحة للأورا. (6) ولكن يصبح مدى

Wilchen, Grundz; pp. 303—306. (1)
Les quier, L'Armee romaine d'Egypte, p. 328.
P. Ox. 721 (14 A.D.); P.S.I. 320 (18 A.D.). (3)
P. Amh. 68 (60 A.D.) (4)
S.B. V. 7599 (95 A.D.); B.G.U. 422 (140 A.D.) (5)
S.B. 5675 (147 A.D.). (6)
انخفض هذا الأسعار عمومًا نظرًا أن متوسط سعر الأورا من الأرض الزراعية كان 185 درخة في القرن الأول، و342 درخة في القرن الثاني.

هذه الإجراءات التشجيعية فازت بالملكية الشخصية في الأراضي فئة كبيرة منذ بداية مصر الروماني، (1) ولكن نوعًا مميزة من الملكية الخاصة تستحق مزيدًا من الإفادة هنا نظرًا لأنها كتبت الاقتصادية، وهي الملكية الكبيرة التي عرفت باسم ousia (أو الوسيلة في الاستعمال الدارج الآن). والسبب في ذلك أن الإمبراطور أغسطس، من أجل الإسراع بعملية استصلاح الأراضي على نطاق كبير، جاء إلى أصول شبه بأسلوب الملك فيلادلفوس، وإن اختلفت وسيلة التطبيق العالية، فبدلاً من منح إقطاعات كبيرة من الأراض

(1)

وسيلة التطبيق في الحالين، فيدلاً من منح إقطاعات كبيرة من الأراض

Johnson, Roman Egypt, pp. 14 ff.
رؤساء المجتمع الأسكندري. وبفضل أمواله الطائلة تمكنوا من تحويل كثير
من الأراضي البر إلى أراضي زراعية تنتج ما كانت تتنتج قليلاً من محاصيل.
كانت الوضعية من الناحية القانونية ملكية خاصة لصاحبها، أما من حيث
الضرائب فلم تكن هناك قاعدة محددة، ولكن تمعن أصحاب الوضعية
عموماً بامتيازات مختلفة، تدرجت بين الإعفاء من الضرائب ودفع ضرائب
خفيفة. (1)

وقدنا بردية تلقى ضوءاً عن كيفية حصول أحد أفراد الأسرة الإمبراطورية في
الأسكندري على أرض وسيته، وهو جايوس يوليوس ثيون الذي شغل منصب
كبير في الدولة وابنه باسم ذاته، يبدو من الوثيقة أن جايوس يوليوس ثيون
الكبري تقدم أصلاً بطلب شراء أرض من الدولة، وأن الوالي تورايفوس (سنة
7-4 ق.م) صرح له بشراء أرض من أملاك الإمبراطور على أن يسدد
جميع استحقاقات الدولة. ولكن لسبب غير معروف لم يتم قبول الأرض وتسجيلها
ولم يدفع البلغ للتحقق عليها. وأي حال بعد ذلك بقليل تقدم ابن الطالب
الأول بطلب جديد في عام 10/11 م. وعين له الوالي أكويلا في نوموس
أوكسيروس أرض كانت تتمت أصلاً إلى معبد إيزيس. ونعلم من البردية أن
جميع استحقاقات الدولة من ثيون الصغير زاد على ثلاثين، (2) أى ما يساوي
1200 دراجة. فإذا ما فرضنا أن السعر الذي دفعه ثيون هو متوسط السعر
الذي كان يدفع لأرض الدولة للباعة في ذلك الوقت وهو عショرون دراجة للأورا،
فإن مساحة الأرض التي اشترها تزيد على السيناءة أورا. هذا مع العلم أن من

Rostovtzeff, (1) خبر عرض الموضوع الوسيمة في بداية المصري الروماني هو مؤلف:
Soc. 1 Ec. Hist. of Rm. Emp., 2nd ed., pp. 292 ff.,
esp. notes 45 and 46. See also P. Philad. No. 19
(I-II cent. A.D.).

P. Ox. XII. 1434, lines 6-17 (7-4 B. c.-11 A.D.) (2)

204
المحتمل أن السمر كان أقل من ذلك بسبب كبر حجم الأرض - وكانت هذه الوسائط الكبيرة تعزز وحدات اقتصادية هامشية الريف المصرى، وكان يديرها وكلاً على أصحابها الذين كانوا يقيمون عادة بعيدًا عن أرضهم في الأسكندرية أو روما. وكثيرًا ما كانت علّوسية حركة صناعة نشطة تعتمد على منتجات الأرض، مثل صناعة الزيوت، والمحور من الزيتون والأعشاب التي تنتجها الأرض.

على أن هذه اللوجة من ملكية الوسية لم تسمر كثيرًا بنفس هذه القوة، إذ سرعان ما تنفّذت الظروف الرومانيّة الشديدة نحو اللوكياك الكبيرة التي يمتلكها أفراد لا يقيمون في البلاد، وأتجهت السياسة نحو قصر تملك الأرض على سكان البلاد. وذلِك لم ينته القرن الأول الميلادي إلا وكانت معظم وسائط أعضاء الأسرة الإمبراطورية والأسرة الرومانية قد أتت إلى ملكية الإمبراطور الشخصية فيما عين طريق وراثتها أو مصارفها حين يموت صاحب الأرض أو لأى سبب آخر. تجمع هذه الأراضي التي استولى عليها الإمبراطور أصبحت تشكل قطاعاً جديداً من قطاعات الأرض في مصر الرومانية يعرف باسم (geousiakē) (رغم أن الأراضي استمرت تحمل أسماء أصحابها الأصلين).

ولكن يجب أن نستنتج أن موجة مصدرة الوسية في نهاية القرن الأول قضت على ظاهرة اللوكياك الكبيرة في مصر (1)، فوفائق القرن الثاني الميلادي تثبت أن كثيرًا من اللوكياك الكبيرة استمرت موجودة من القرن الأول؛ مما يدل على أن أثرياء الأسر في الأسكندرية والريف المصري ظلوا محافظين على


205
ملكيتهم الكبيرة التي حصلوا عليها بداية مصر الرومانية (1). نتيجة لذلك،
كالد نستنتج أن سياسة روما الجديدة في مصر وهي بيع الأراضي المقدمة سواء
في مساحة كبيرة أو صغيرة أدت في النهاية إلى زيادة الملكية الخاصة وزيادة لم
يسبق لها مثيل.

أما عن أراضي المدينة الإغريقية، فقد استمرت أيضًا في مصر الرومانية.
وزادت أيضًا عن ذي قبل بسبب زيادة هذه المدينة، أولاً بإنشاء مدينة أتيدوبوليس
سنة 130; ثم بعد ذلك حين أصبحت عواصم المرومات (المرومات) مدناً
لها نظام المدينة الإغريقية، بفضل إصلاح سيفستر سيفروس في بداية القرن
الثالث. تجمع هذه المدن منتشرة على الأراضي خاصة بها وأصبحت تسمى
بالأرض المدنية.

من سوء الحظ أتت لا تمتلك من مصر الرومانية وثيقة توضح مدى انتشار
الأنواع المختلفة في الأرض في مصر، ولكن دراسة حديثة لجميع وثائق هذه
الفترة تبين أن نسبة الأرض الخاصة للأراضي العامة كانت 50%; خلال
القرن الأولين مع ازدياد تضخم مساحة الأرض العامة بصورة متطرفة حتى
تغطي تمامًا القرن الرابع (2).

وتبين دراسة أحوال الأرض في القرن الثالث كيف حدث هذا التطور.
فإن ظروف الاستقرار والروخة التي عمت الإمبراطورية الرومانية في أثناء القرن
الثالث لم تستمر إلى القرن الثالث حيث تعرضت الإمبراطورية الرومانية لأزمات

(1) أمثلة من الملكيات الكبيرة توجد في: 74-5; 78 (c. 118 A.D); P. R. Univ. Milan. No. 28 (162-3
A.D.); P-S.I. I, 31 (164 A.D.) and B.G.U. I. 603-4.
(167-8 A.D.); B.G.U. III. 959 (148 A.D.) and P. Berl.
Leihg. No. 18 (163 A.D.).
A. Segré: The Byzantine Colosseum, in Traditio, 5
سياسة متلازمة أنتجت بالأحوال الاقتصادية كل الضرر مما يجعل المؤرخين يطلقون على هذا القرن اسم فترة الحننة الكبرى. ولم تسلم مصر من آثار تلك الأحداث العامة في الإمبراطورية؛ وبدا ذلك واضحاً منذ الجزء الأخير من القرن الثاني حين بدأ النظام الإداري في مصر يتكشف عن عيوبه، وتحول نظام تولى الوظائف العامة من الانتخاب إلى الإزاء، وطبق نظام الخدمة الجبيرة على معظم الوظائف في الإدارة المحلية. وقد شرحنا في فصل سابق كيف أصبح من المثير أن يقدم عدد كافٍ من أصحاب الأموال على تولى الوظائف في المحافظات بدلاً من رغبتهم الشخصية، حتى اضطر الإمبراطور سفيروس في أول القرن الثالث إلى أن يقوم بإصلاح الشهور، وهو تعديل نظام المجالس boulac، وتعيين تميهم نواب المجالس، وإلغاء نتيجة شغل وتعيين الوظائف المحلية على أعضاء هذه المجالس، على أنهم مسئولون مسئولية جماعية.

وأما كانت الملكية الخاصة هي القدر الأساسي لتولى الوظائف، ازدادت نتيجة لذلك أهمية الملكية الشخصية، فزاد حرص طبقة ملاك الأراضي على زيادة أصلاً كيهم ليتمكنوا من القيام بالمسؤوليات الإدارية التي أصبحت تفرض عليهم فرضاً. فزادت الملكيات الكبيرة بشكل ملحوظ، وأصبحت فروسية من مظاهر الأراضي المألوفة في هذا القرن (1). وقد ساعدت ظروف مختلفة من تمكن الأثرياء من شراء الأراضي على نطاق كبير من بين تلك الأسباب أن القانون يقضي بأن الشخص الذي يرجح تولى أحد المناصب ويرفض توليها كان يفقد ثم ملكيته للدولة، التي كانت تستولي عليها، وتبعيها بالمزاد العلني. ونظرًا لاضطراب الأحوال الاقتصادية العامة فقد كثر من متوسط وصغار الملاك أرضهم عن هذا السبيل، ومن الطبيعي أن يتمكن الأفراد الأكثر ثراء

Rostovtzeff, Soc. Ec. Hist. R. Emp. pp. 489 ff and notes (1) أشار

٢٠٧
من شراء الأرض التي تستولى عليها الدولة وتبيعها بالزاد العلوي (١) وأحيانا أخرى تورط مصطفى وصفر المالك في ديون افترضوها من كبار المالك، فإذا ماعجز هؤلاء الدينون عن سداد ديونهم - كثيرة ما حدث هذا - استولى الدائنون على بعض أملاء كم كم بيد يقدمها الدينون هنا، ضياء لديونهم (٢).
ولقد وجدت كذلك السبيل المادي للحصول على الأملاء عن طريق الشراء واليراث، ولكن كثرة نكراة الظروف التي يضطر فيها الأفراد إلى التخلص عن أملاء كم هي التي تكشف عن عدم الاستقرار في المجتمع، فهى مثل هذه الظروف تمكن الأفراد الطموحون من أعباء الثروة من زيادة ملكيهم على حساب صغار المالك، وهو ما حدث في القرن الثالث لليلودى، حتى إذا ما جاء القرن الرابع رأينا أن الملوكية الكبيرة هي الطابع المميز للحياة الزراعية في مصر.

صناعة التجارة:

لا كان الاحتلال الروماني قد قضى على كل سيادة سياسية لمصر، فإنه لم يصب اقتصاداً بنفس الأثر. بل على العكس من ذلك بذل الروم جهود كبيرة في سبيل إنشاء البلاد اقتصادياً، لأن جزءاً كبيراً من فوائد الازدهار الحياة الاقتصادية في مصر، كان يذهب إلى روما ذاتها سواء عن طريق الضرائب أو عن طريق أرباح كبار المستثمرين من الرومان. وكما شجعت الإدارة الرومانية الملكية الخاصة في المجال الزراعي، كذلك شجعت سياسة الاقتصاد الحر في كثير من أوجه الصناعة والتجارة، ولو أننا لا نعرف معرفة ببينية مدى تطبيقها لهذه

P. Ox. III. 513 (184 A.D.); and XX. 2269 (269 A.D); P. Apokr. lines 16 ff.; P. Giss. 34 (265 6 A.D); P. S. I. (2) XIII. 1328 (201 A.D.); P. Lips. I. 10 (240 A.D); P. Flor. I. 56 (234 A.D); P. Lips. 9 (233 A.D).
السياسة الجديدة نبينها بقيت الناجح مثلاً محتكرة بواسطة الدولة، تركت صناعة الزيت حرة في أيدي الأفراد، في حين أن الإدارة الرومانية مارست درجات مختلفة من التحكيم والإشراف على صناعات أخرى مثل النسيج، والبردي، والطوب والجلبة. ويبدو أن سياسة الرومان من انتظام وظروف الإمبراطورية المليئة التي انتشر فيها السلام مدى قرون من الزمان، ووقوع مصر المتوسط بين الولايات تم مواقها على طريق التجارة بين الشرق والغرب، كل ذلك ساعد على ازدهار الصناعة والتجارة بها على نحو لم تبلغه مصر من قبل، وبصفة أن تكون الأسكندرية أصبحت أكبر مركز للصناعة والتجارة في الإمبراطورية الرومانية بأسرها. ولدينا نص يصف الحياة الصناعية في الأسكندرية بهذه العبارة: "إنها مدينة غنية تتمتع بالثراء والرخاء، ولا يوجد بها عاطل عن العمل، فالبعض يعمل في صناعة الزجاج، وآخرون يعملون في صناعة أوراق البردى وكيارون يملكون إما في صناعة النسيج أو في منحة حرفة أو صناعة أخرى، حتى أصحاب العادات من المجزز والخضائ والسيبان كل له عمل، حتى من فقراء أيدهم لا يضمنون حياتهم عاطلين هنالك. الجميع يجد به أحداً هو المال، هذا الإله يعبده السويسرون واليهود وكل طائفة أخرى في الواقع (1) إن البيئة الصناعية التي تتفاها هذه المعاراة ذات أهمية بالنسبة لاستمتنا، نظرًا لأنها تذكر الصناعات الرئيسية التي عرفت بها مصر وليس الأسكندرية فقط، وهي صناعة الزجاج والبردى والنسج. فنحن نعرف أن المصريين القدماء تخصصوا في صناعة الزجاج منذ

Johnson, Roman Egypt, pp. 325 ff.

(1) ينسب هذا النص إلى الإمبراطور هادران في كتابه "معركة سير الأباطرة الرومان المعروفة " Historis Augusta, Saturnus, VIII. 5-7 هذه النسبة غير صحيحة لأنه من وضع أحد مؤلفي المجموعة، ومن ذلك هذا النص أهميته لأنه يبين ضوءاً على الحياة الصناعية في الأسكندرية.

209
أقدم العصور، وأنهم ارتكروا بصنعته إلى درجة عالية من الإتقان حتى أنهما كانا يصدرا من مناطق مختلفة من البحر الأبيض. ويدعى أن مصر تمكنت من المحافظة على تقواها في هذه الصناعة في العصر اليوناني والرومانى (1). فهذا استراوبن الجغرافى الذي زار مصر في بداية العصر الرومانى يذكر أن صناعة الزجاج في الأسكندرية كانت لهم أسرار خاصة بصناعتها، وأن ثروة مصر كانت تحتوي مادة معينة تصلح لصناعة الزجاج المتعددة الألوان (2). ومن كتاب القرن الثاني يذكر أنيتايوس أن صناعة الزجاج في الأسكندرية ازدهرت كثيراً بصناعتهم ليبقى القليلة في الأسواق الخارجية أمام النافذة الأجنبية، ومن ذلك أنهم صنعوا الزجاج على أشكال مختلفة مما كان في ذلك أشكال الأوان الفخارية التي كانت تروى إلى أم من الخارج (3).

أما صناعة ورق البردى وتصديره إلى الخارج فقد ظل احتكاراً لمصر دون أن تمكن أي منافسة أجنبية في هذا المجال. ولقد أدرك البطالة من قبل مركز مصر الفريد ذلك وتمكنوا من التحكم في أسعار البردى في الأسواق العالمية عن طريق احتكار انتاجه في الداخل وتصديره إلى الخارج. ولكن الرأى انقسام بين العلماء حول سياسة الإدارة الرومانية في مصر من هذه السلمة والسبب في ذلك هو أن مصادرنا الأدبية لم تكن واضحة بها تتعلق بهذه النقطة. فالكاتب الرومانى بلينيوس الكبير (4) رغم الوصف اللصق الذي يورد عن صناعة البردى في مصر -لا يذكر شيئاً عن سياسة الحكومة. وأما الجغرافى استراوبن فله جملة مختلفة عن معاها، وهي قوله «هناك فئة من يعرفون زيادة دخلهم».

Johnson, Roman Egypt, pp. 336–7, and note 3.
Strabo, 16, 2, 25.
Athenaeus, XI, 784. C.
Pliny, Natura Historia, 13, 11–12.
ولذا لا يسمعون بنمو البردى في مواضع كثيرة، مما يؤدي إلى ندرته التي ينتج عنها ارتفاع أسعاره، وبذلك تزداد دخوله، بينما ينبع إلى الصالح العام (1) ومن العلماء من يفسر هذه العبارة على أنها تصف سياسة المستولين الرسوميين، ومنهم من رأى أنها تصف كبار الرسوميين المنتجين للبردى، والفرق الأساسي بين وجهة النظر أن أصحاب الرأى الأول يذهبون إلى أن الرومان أقاموا احتكارًا حكومياً لإنتاج البردى (2)، أما أصحاب الرأى الأخير فيذهبون إلى أن إنتاج البردى في مصر الرومانية كان حرة دون أن يمتنع لاحتكار حكومي (3). ولقد جاءت اكتشافات الوثائق البردية الحديثة مؤيدة لهذا الرأى الأخير وأن زراعة البردى وصناعته كانت حرة على الأقل في بداية المصري الروماني، ويبدو أن الإدارة الرومانية بدلاً من أن تتدخل في إنتاج البردى وتجارة تدخل مباشرة، اقتصرت فيما بعد على أن تفرض ضرائب مالية على البردى (4) (البردى (4) وضرائب نوعية أخرى (5) anabolica species (5) charters (5)). تجمع سنوياً وترسل إلى روما ولهذا كانت من الحجم بحيث تكفي حاجاة العاصمة.

الصناعة الكبرى الثالثة هي صناعة النسيج وكانت من أكثر الصناعات انتشاراً في مصر، وقُلّا على منزل من منزل لتسيج حاجية الأسرة إلى الملابس.

Strabo, 17. 1. 15.
Wilcken, Grundz. pp. 55—6; Walbank, Decline of the Roman Empire, p. 12.
B.G.U. IV. 1121. and 1146 (augustan age).
S.B. 5636 (2nd cent. A.D.)- P. Mich. II. 123 (45 A.D.)
P. Strassb. I. 59 (228 A.D.).
ولكن إلى جانب الصناعة النثلية وجدت مصانع تخصصت في إنتاج أنواع راقية من النسوجات النثلية التي استمرت بها مصر منذ أقدم العصور. ودمرت بليبيوس الكبير عن تقدم هذه الصناعة في مصر أن الأسكندرية استمرت بنوع النيل المزين بالرسوم والذي كان يصنع بنفس عدد من المخيط معاً ويسى لذلك "polimta".

ولكن نعرف أن النسوج المصرية كانت واسعة الانتشار في الخارج وأنها كانت تصدر بكثرة إلى الأسواق الشرقية في بلاد العرب والهند وكذل على مواطن متعددة في البحر الأبيض المتوسط.

ولم تكن صناعة النسيج من أجل التصدير مركزة في الأسكندرية نفسها، بل يبدو أنها وجدت في مراكز أخرى من مصر على قدر عظيم من النشاط والتقدم، وكانت منطقة الفيوم إحدى كبريات هذه المراكز التي تخصصت في تصدير إنتاجها إلى الأسواق الشرقية في بلاد العرب والهند. وقدر ازدياد التجارة الشرقية في النشاط في العصر الروماني ازدادت صناعة النسيج المصرية قوة ونوعاً، حتى أن الكاتب بليبيوس الكبير اعتقد أن مصر دفعت قيمة واردتها من الهند وبلاد العرب عن طريق تصدر النسوج النثلية.

ولكن ماذا كان موقف الحكومة الرومانية من هذه الصناعة اللمامة، هل أعترفها أو تركتها حرة في أيدي الأفراد. لسن نعرف أن هذه الصناعة لما أهمية خاصة بالنسبة للرومان، لذا تم استخدام كهات كبيرة من اللباس لأفراد الجيش، ولذا من صاحبها التحكم في إنتاج النسيج، ومع ذلك فلم تتجاوز إلى سياسة الاحتكار الكامل بل جاءت بسياحة سياسة محكمة تحقق الإشراف الكامل عليها. وتلخص هذه السياسة أولًا في امتلاك الصناع الخاص

Historia Augusta, Aureliani, 45. 1.

Plinius, Natura Historia, XIX. 7 - The Periplus, 8 (See translation of W.H. Schaff). P. Hawara, 208.
أما سائر المشغولين بالنسيج في مصر فقد أضطجعتهم الإدارة لإشرافهم فيهما، عن طريق جميع النسايجين - مثل غيرهم منalles والعصاد - تقاتل خاصة بهم حسب كل مدينة أو قرية (1)، وبعد ذلك عاملتهم معاملة خاصة فيها شبه من الاستحقاق عن كثير من فئات nonlinear الآخرين، وهو إعفاء النسايجين من القيام بالأعمال الإدارية، (2) وذلك نظرًا لفائدة مائدة الفضاءين للاستفادة منهبح حاصل الدولة. ولذلك فرضت عليهم ضرائب مالية ونوعية يدفعها النسايجين وأصحاب الصانع للدولة (3)، وحين لانفي هذه الضرائب بباحة الدولة، كانت تفرض عليهم كيات إضافية أخرى (4).

هذه هي الصناعات الكبرى التي كانت تقوم عليها تجارة مصر الخارجية، ولكن وجدت إلى جانبها صناعات أخرى ذات أهمية تجارية وازدهرت بصفة خاصة في العصر الروماني وهي صناعات التوابل والطمور، وكبضحك الصناعات الفنية الصغيرة. ففي يتعلق بصناعة الطمور فقصر شهرة قديمة فيها وكثيراً ماصدرت الطمور والروائح معبأة في زجاجات صغيرة في العصر الفرعوني. أما التوابل فإن التجارة الشرقية جلبت الكثير منها إلى مصر حيث تم تصنيعها ثم أعيد تصديرها إلى روما وسائر ولايات الإمبراطورية.

Johnson, Roman Egypt, pp. 333.

P. Ox. XXII. 2340, lines 8–10.
P. S. I., IX. 1060 (201 A. D.); Historia Augusta (4) Aurelian, 45. 1.
P. Ox. XIX, 2230 (119 A. D.); B. G. U. VII. 1572. (5) (139 A. D.)
أما الصناعات الفنية الصغيرة مثل صناعة النخاع واللعب والآلات الفوسيقية فين قديمة ولكن في عصر اليوناني والرومانى اكتسبت أهمية خاصة وصنعت للإنتاج الكبير من أجل التصدير للأماكن الخارجية وفي حكم الرومانى حينا فقدت الفنون حياة وتشجيع القصر الملكي وعندما وجدت تمويلاً عقب ذلك من الناحية المالية في زيادة الطلبة من الخارج للمنتجات الفنية. وقد كانت الحفائر الأثرية في منفيس من الموصل في هذا المصري (mass production) استخدام ظاهراً صناعية جديدة من أجل الإنتاج الكبير عن طريق استخدام القوالب في صنع أعداد كبيرة من المضاني البرنزية والجبلية من مختلف الأحجام. (1) وثبتت الحفائر الحديثة سعة انتشار هذه الصناعات الفنية وما تشابهها بين أفراد الطبقة البورجوازية في أنحاء الإمبراطورية. (2) لم تقتصر الحياة الصناعية في مصر الرومانية على الإنتاج من أجل التصدير ولكن وجدت كذلك صناعات قديمة أخرى مثل الأخشاب والطاحن والزيوت والمنى والمعدن، وهي صناعات ضرورية للأستلقاء المحلي الداخلي وهو استهلاك كبير. ونحن نعرف مثلا مدى الاهمية الذي أبداه البطالة في تطبيق إحكار صناعة وتجارة الزيت داخليا، هذه الصناعة استمرت أيضاً في مصر الرومانية ولكن على أسس جديدة، وهي تركز في أيدى الأفراد بعيداً عن احكار الدولة، التي اكتسبت بفرض الضرائب على مثل هذه الصناعات. أما صناعة الخمور فكانت دقيقة الاتصال باستقرار بعض الفواكه والكروم.

(1) أظهر الدروس بي Kliss)
(2) C. C. Edgar, Greek Moulds; and id. Greek Bronzes
Dorothy Kent Hill, An Egyptian Sculptural Type and Mass' Production of Bronze Statuettes, Hesperia, 27 (1958) 311 ff.; of Sir Mortimer Wheeler, Rome Beyond the Imperial Frontiers, 200—201 (Penguin ed. 1955)
إلى أن أقبل الإغريق على زراعتها إقبالًا كبيرًا منذ أن حضروا إلى مصر. وبلغ من وفرة إنتاج الجمور في هذا العصر وخاصة بواسطة أصحاب الملكيات الكبيرة من الأرض حتى أن الخمر كانت تدفع للنافذ والواردين مقابل جزء من أجورهم. (1) ولقد أدى نشاط صناعة الزيت والثروة على هذا النحو إلى ازدهار صناعة أخرى لازمة بها وهي صناعة الأواني الفخارية، فوجدت مصانع لصناعة الفخار وإنتاجها بكيات كبيرة وأحجام وأنواع مختلفة تصلح للأغراض المختلفة. (2)

التجارة:

قامت هذه التجارة الضخمة في العصر الروماني بعد تجارة أصحاب الوجوه. تجارة عالية لم يعرف لها مثيل من قبل، وماسن كشيك أن الإمبراطورية الرومانية التي وجدت العالم القديم وبذرت الانتقال من إقليم إلى إقليم كانت من أكبر أسباب ازدهار التجارة المالية. وكان من الطبيعي أن تفوق مصر مركز التجارة في هذه التجارة نظراً لرفعها للسمك الممتاز على طريق التجارة بين الشرق والغرب، ولما كا دواح طويلة على كل من البحر الأحمر والبحر الأبيض. ولذلك لم يكن مستغرباً أن تصبح الأسقربية، ميناء مصر الأول، "أكبر مركز تجاري في العالم بأسره". (3) إلز تقتصر معركة مصر الخارجية التي تركزت في الأسقربية أساساً على مانحين مصر محلياً، فقد كان يُؤثّر بالبحار إلى مصر من كل قطر خارجي ثم يعاد تصديرها وتصديرها ثانية إلى الأسواق الخارجية، ولذلك حضر إلى الأسقربية تجار من جميع أرجاء.

P. Flor. III. nos 321–322.
Johnson Roman Egypt.
Strabo, 17. 1. 13 (C. 798)
عالم القديم ليعقدوا صفقاتهم من أجل شراء البضائع المصرية والأجنبية.

وكان مصر معددة لقيام بدورها أحسن إعداد بفضل موانيها البحرية وخاصة الإسكندرية. ولقد أدرك القدامى هذه الحقيقة، فقد كتب استراون عن مدينة الإسكندرية فتتبرع من أقوم التعليمات القديمة المعاصرة في مجال الحياة الاقتصادية، فيقول: «تقع الإسكندرية على مجرى من ناحية الشمال يوجد البحر المصري كما يسـ، ومن ناحية الجنوب يوجد مجرى ماريا أو مريوط. وتبعد هذه البحرية عدد من القنوات المفترعة من نهر النيل، سواء من الناحية الماوية أو من الجوانب. وما يرد إلى المدينة عن طريق هذه القنوات يفوق كثيراً ما يأتي من البحر، حتى أن المدينة الواقع على البحر أَقى من النيل البحرى. وكذلك في هذا النيل، البحرى تمت تجارة الصادر من الإسكندرية تجارة الوارد، ويستطيع الإنسان أن يرى بنفسه لو أنه وقف عند الإسكندرية ميناء إيطاليا الرئيسي_Puteoli_Dicewarechian (ويقال هنا بثيوى بايحة) في ذلك الوقت، كيف أن حكمة السفن مختلف ثقا وخفية عند جيهمها وذهبها».

Pliny, Nat. Hist. VI 101 sq.; the
Periplus of the Erythraean Sea, translated by Schott (1912); Strabo, II. 101; XVII. 728.
Wilken, Grundz., 262 ff.; Johnson, Rom. Eg. 325 ff.; L. C. West, Phases of Commercial Life in Roman Egypt, J. R. S. VII. (1917) 95-55; E. Leider, Der Handel von Alexandria (1933); E. H. Warmington, The Commerce Between the Roman Empire and India (1928); M. P. Charlesworth, Trade Routes and Commerce of the Roman Empire (1924) esp. chapters 2 and 4.
Strabo, 17. 1. 7 (C. 793); and 17. 1. 9 (C. 794).
في هذه الفترة يتحدث استرآبون عن الظروف في الأعوام الأولى من الإمبراطورية، وهي فترة جديدة في تاريخ مصر وتاريخ العالم، ولذلك فإن ما يلاحظه عن اختلاف طبيعة النشاط في الشحن بين الموانئ الداخلية والموانئ الخارجية في الأسكندرية له أهمية خاصة. فهو يقرر حقيقة هامة بالنسبة لتجارة مصر الخارجية في التاريخ القديم وهي أن صادرات مصر كانت تزيد كثيرة عن حجم وارداتها من البضائع. ولم تقتصر هذه الحقيقة على مصر الرومانية، بل سادت في جميع التاريخ القديم، والسبب في هذا الظاهرة هو أن مصر تمتعت قديماً بكونها ذاتي في تتعلق بمواد الغذاء، التي توفر لديها مزيد منها، والتي كانت تصدرها وخاصة القمح، وتستورد بدلًا منه فضة وخشnią وبدرج أقما مواد مصنوعة. ولكن تجار التصدير من مصر شملت أيضاً بضائع أخرى، بضائع أخرى من أميريكا، وبلاد العرب والمدن، مثل العاج والبخار والنسجات القطنية وغيرها.

ومما من شك أن مثل هذه التجارة قديمة، ولكنها في عصر الأسرة البطمية ازدادت تركيزاً وأهمية، ومرت جميعها من الأسكندرية، بفضل الشبكة المتزئة من القنوات التي كانت تصل الأسكندرية عن طريق مجرى مريوط بجميع أجزاء القطر المصري وجعلت القنال بين البحر الأحمر والأسكندرية سريعاً ومنتظماً.

أما في عصر الإمبراطورية الرومانية فقد طرأ على هذه الظروف تطورات هامة جديدة. فنهضت مصر بدولة روما، تغيرت طبيعة صادرات مصر إلى البحر الأبيض المتوسط؛ إذ لم تعد جميع البضائع تخرج من الأسكندرية لتباع في أسواق البحر الأبيض، وإنامتى مصر منهم فضة أو عن طريق المبادلة ببضائع أخرى. لأن صادرات مصر الآن اقتسمت إلى نوعين: أحدهما للتجارة، والآخر هو الضريبة النوعية التي كان على مصر أن تدفعها لمجتمعها، وكان أم مقوماتها الأمين، وذلك كانت تتصدر مجاراة مصر الخارجية في البحر الأبيض المتوسط على السفاهات المرتفعة المين، التي كانت تستورد من الشرق وتصنع في مصر

217
تم إعادة تصديرها إلى إيطاليا وسائر بلدان البحر الأبيض.

أما فيما يتعلق بتجارة الجنوب والشرق فقد زادت أضاعاً مضاหมอقة في القرنين الأولين من الإمبراطورية، أولاً بسبب اكتشاف الرياح الموسمية في المحيط الهندي بواسطة هيباروس حوالي القرن الأول م.م. (1) أرى أن هذا الاكتشاف بحار الأسكندرية أن يتخذ حقاً مباشراً عبر المحيط بين خرج البحر الأحمر الجنوبي ومصب نهر السند وملابار (Malabar) بدلاً من السير بسفنه بحذاء الساحل، فان الاكتشاف الجديد على النوم أدى إلى سرعة السفر بحيث أصبح مكاناً الآن إمام الرحلة بين مصر والهند ذهاباً وإياباً في العام نفسه، وهو ما لم يكن ممكنًا من قبل (1).

وثانياً كان نشأة أمستلس نحو حرية الاقتصاد آثار هامة في إنعاش الحياة الاقتصادية في الإمبراطورية. أما في مصر فإن السياسة الجديدة كانت تسعى لإحلال سياسة الاكتبار البطيء بهركة إنعاش ورياضة في مجالات الزراعة والصناعة والتجارة وعلى ذلك فإن اكتشاف الرياح الموسمية الجديد إلى جانب السياسة التي طبقها الرومان في تشجيع الاستهلاك الحر سمعت للأتراك في مصر أن يستمروا إضاعاً في التجارة الشرقية على نحو لم يعرف من قبل. فنتج عن ذلك زيادة كبيرة في حجم التجارة الشرقية. ولقد تركت هذه زيادة الفائدة في التجارة الشرقية آثارها في الحال في جار البحر الأبيض المتوسط ولاحظوها الكتباء المعاصرون وهاذا استمراراً مرة أخرى بدو بلاحظات عن الظروف التجارية الجديدة فقول: "لأن كان دخل مصر السنوي في الماضي (في الورقة

Peripus, 57; Plinius, Nat.-Hist. VI. 100 sqq.; of. (1) Warmington The Commerce, 35 ff.

(2) أنظر وصف الرحلة في 106-101 P. Plinius, Nat.-Hist. VI. 100-101 Warmington, op. cit. 48 ff. حساب السفينة والزمن في المحيط

118
البطالى المتأخر هو 1200 تالبوت، فتراى كم يصل دخالاً الآدن ( زمن الإمبراطورية)، حيث أصبحت ندرة شهير بعثة تأريخاً، وحيبياً زادت التجارة مع الهند والصومال زادت كبيرة. فلم ترتد السفن التي كانت تسير في البحر الأحمر ولم تتم خليج العرب عن عشرين سنة، أما الآن فإن الأساطيل الكبيرة تسير إلى الهند، ولي أقصى حدود أثيوبيا، ومن هناك تعود مهجة بقاء البضائع إلى مصر، تم توزيع من مصر إلى سائر البلاد، وهكذا تغني مصر ضرورة مزدوجة على البضائع حين ترده إليها وحين تصدر منها، وتتفن الضريبة بقدر ارتفاع من البضائع. (1) وفي موضوع آخر يذكر استرتوأن أن الفضل في زيادة معلوماتنا عن البلاد الشرقية يرجع إلى تجار الإسكندرية وليضيف أن لهم أكثر من مائة وعشرين سنة تدخل في تجارة الهند الشرقية. (2) أي أن عدد السفن زاد ستة أضعاف. ولكن يجب أن نذكر أنزادة لم تقتصر على عدد السفن نفسه، بل إن حجم السفن ذاتها زاد كثيراً، وأصبحت السفن المستخدمة في البحار الشرقية من أحجام أكبر وقدرة أكثر في سرعة ملاحة. (3)

هذه التجارة الضخمة بين الشرق والغرب مرجع كبير منها بمصر بين موائد البحر الأحمر والإسكندرية، وفي الإسكندرية جمع التجارة من مصر وخارج مصر من كل قطر، وما من شك في أن عدد التجارة الأجانب كان كبيراً ولكن يبدو أن أقوى عنصر بينهم مادة كبار الشهداء الرومان، وخمن تعرف مدى أهمية كبار المولفين الرومان في نهاية المصري البطالي، كما في مثال رايبيروس وعلاقاته بالقسط الباطلي، ويكتننا أن نصو مسبيز

إزداد أهميتهم بعد دخول مصر إلى الإمبراطورية. ومع ذلك يبدو أن هؤلاء

Strabo, 17. 1. 13 (C. 798) (1)
Strabo, 2. 5. 12 (C. 118) (2)
Periplus, 10 and 56; Plinyus, Nat-Hist VI. 82. (3)

219
المؤلفون لم يكونوا خطرًا شديداً على التجارة المصرية، لأن جهود المواليين الرومان كانت موزعة على مراكز تجارية أخرى في البحر الأبيض مصري وسوريا وآسيا الصغرى والغالية، في الوقت الذي احترق تجار مصر وخاصة كبار التجار من الأسكندرية في التجارة الشرق البحرية، كأن أساطيلهم التجارية الكبيرة مكشوفة من الاشتراع في تجارة البحر الأبيض بتصيب وافر.(1)
أما في تجارة البحر الأحمر والهند لم يكن هناك منافسة حقيقية تهدد سيطرة الأسكتلندرية عليها، لأن عرب الجزيرة العربية قصرعوا نشاطهم في تجارة القوافل البرية، ولم يعرف سوى تجار تمرد (Palmyra)، وبعض الرومان، فقط الذين شاركوا في تجارة البحر الأحمر، ومن المستديم أن هؤلاء كونوا خطرًا حقيقيًا طوال العصور الرومانبة لأن تجار تمرد تخصصوا في تجارة القوافل البرية أكثر من التجارة البحرية، من ذلك رى أن تجار الأسكتلندرية احتكروا لأنفسهم تقريبًا التجارة الشرقية، حتى أنه أصبحت الأسكتلندرية الأسكتلندرية في الهند بمثابة رمز للعالم الغربي بأسره بدلًا من روما والرومان.(2) ويبدو أيضًا أن اسم الأسكتلندرية كان أسبق الأفلاط الرومية في الوصول إلى الصين، حتى لقد اقترح أحد الباحثين مؤخرًا أن كلمة لاجين (Li-jien) كانت كلمة صينية مُقرفة عن كلمة الأسكتلندرية وأما تشير أصلاً أسكتلندرية مصر.(3) من المسير أن نعرف على وجه التحديد قيمة هذه التجارة الشرقية ومقدار الفائدة التي عادت على مصر منها، ولكن لحسن الحظ تذكر بعض المصادر المعاصرة معلومات قد تكون لها قيمة في تقريب الصورة إلى عقولنا،

West, Phases of Commercial life, J.R.S., 7 77 8

وأم مصدر هو الكاتب بلينيوس الذي يقول إن قيمة واردات الأمور الإمبراطورية من الهند وسيريس (seres) وببلاد العرب تربوا على مائة مليون ستركس (sesterces)، وضيف بعد ذلك قوله: "هكذا نحن غالبًا من أجل بإيتانا ونسائنا".(1) ولكن نعلم أن نحن من نصف هذه التجارة كان يسلط طريق القوافل إلى الموانئ السورية، أما عن الجزء الآخر الذي كان ينقل عن طريق البحر الأحمر إلى مصر ف يقول إن الهند تأخذ من كل عام مائتي قت بنحو خمسين مليون ستركس (sesterces)، مقابل بضائع تباع لمائتان تبلغ مائة ضعف تمنها الأصلية.(2) وما من شك أن هذه الأرقام بعيدة عن المبالغة ولا يبعد أنها تمثل الحقيقة، خاصة وأن بلينيوس كان في مركز يمكنه من الإطلاع على وثائق الدولة الرسمية. ولكن بهمنا بصفة خاصة قوله إن هذه البضائع الشرقية كانت تباع في النجف بثمانية مائتين تمنها الأصلية. ذلك أن التجارة الشرقية كانت تقوم أسسًا على الأجار في السكالات مثل اللؤلؤ والبراق والتمور والخمور... إلخ، وأن ضرائب باهة كانت تُبيِّن عليها عند دخولها مصرف، وعند خروجها للتصدير مرة ثانية.(3) وبالإضافة إلى هذه الضرائب المزودة تقاضى التجار مبالغ باهتة مقابل قيمتهم بهذا العمل. فالإجابة في التجارة الشرقية كانت شديدة الخروفة، نظراً لانتشار القرصان في تلك الباعة، حتى أن السفن التجارية كانت تستعارة في حراسة سفن مسلحة خير تسليح لمقاومة القرصان.(4) لذلك كانت هذه الرحلات كثيرة التكاليف، ومن الطبيعي أن تكف التجار أسمارهم ليتعوضوا تكاليفهم وخسائرهم وليغدوا رديفًا مناسبًا.

Plinius, Nat. Hist. 12 - 84(1)
Ibid. 6. 101.(2)
Strabo, 17. 1. 13 (C. 798) (3)
Periplus, 53; Plinuis, Nat. Hist. 6. 26(4)
هكذا تمكن كثير من الرأسماليين في الأسكندرية ومصر من مضاعفة رواهم ومنافسة كبار الرأسماليين في روما ذاتها، ويكثّف للدلالة على خطورة هذه الطبقة من الأسكندرىين أن نذكر أن بعضهم تمكن من شق طريقه إلى أرقي المناصب في القصر الإمبراطوري في روما، كما أن واحداً منهم وهو فيرموس (Firmus) استطاع أن يقود ثورة ناجحة في الأسكندرية تأيداً للملكة زينوبيا في القرن الثالث. ويلع إنه تمكن من تسليح جيش بأسره من دخله من تجارة البردي والصبن العربي.

Cf. Juvenal, I. 26 f.; IV 24-5.
Historia Augusta, Firmus, III. 2.
الحياة الثقافية والدينية

رأينا في دراستنالتكون الاجتماعي لمصر في المصريين البطل والرومان أن السكان كانوا خليطاً من شتى الجنسيات والشعوب القديمة: أغلبية مصرية وأقلية ممتازة من الإغريق ثم جاليات متباينة عدد من اليهود والسريين والليبيين والرومان وغيرهم. وقد تسأل سائل عن الوسيلة التي تبناها للتفاهم بين هذه العناصر جميعاً. ما من شك أن اللغة اليونانية كانت اللغة الرسمية للبلاد منذ بداية العصر البطلي. ولكن لغة هذا العصر كانت لغة يونانية متواترة باعتلاها باللهجات والخلفات المحيطة المختلفة. فهذه اللغة كانت لغة الحديث بين الإغريق وسائر الجاليات الأجنبية التي تأثرت تمامًا في هذا العصر، وها كانت تصدر الأوامر الملكية والقوانين العامة. وكانت فوق ذلك لغة الثقافة والفكر، كتب بها الكتب والشعراء.

وقد أثر الرومان هذا الوضع كما هو، وقبضت اللغة اليونانية هي لغة البلاد الرسمية تصدر بها كافة القرارات والقوانين والأوامر، حتى بيانات الإمبراطور وخطاباته التي كانت تكتب أصلاً باللاتينية كانت تترجم إلى اليونانية عند نشرها في الأسكندرية. ولذا فإن عدد الكتاتيب اللاتينية من مصر في العصر الروماني قليل جداً ويكاد يقتصر على شؤون الجيش الروماني. أما الرومان فقد كان على كثير منهم أن يكتب اللغة اليونانية حتى يستطيع أن يتولى الأعمال الإدارية في الحكومة، ولكن أكثرهم في القرى والريف استمر يتحدث في الحياة اليومية باللهجة المصرية التي كان التعبير السكاني لها الخط الإسلامي الذي استخدمت فيه حروف متعددة من الحروف الهيروغليفية والتي لم يكن بها حروف متحركة مما يفيد حرية اللغة وعمها من تقل الافظات الجديدة فظلت حامدة لاتساب التطوير. هذا كان نعم الديموطيقية أمرًا عسيراً حتى على المصريين.}

٢٣٣
أنفسهم. أمام هذه المقابلات خط لصربيون خطوة ثورية لإنشاء لغتهم من هذا الأرق بأن أخذوا الحروف اليونانية لكتابة لغتهم. ولما وجدوا أن الأبجدية اليونانية لا توافق جميع أصوات اللغة المصرية أضافوها إلى سلسلة حروف من الكتابة الديموطيقة. وهكذا ودت اللغة القبطية في القرن الثالث الميلادي، وانطلقت اللغة من عقائها لتنقل ألفاظاً وأفكاراً جديدة، وتخرج بعد ذلك فكرًا وأدباً جديداً. وكان أول وأعظم أعمال اللغة القبطية الجديدة أنها نقلت الألف إلى الصربيين في لغة مصرية وثورة مصرى، ليس بالأجنبي اليوناني أو اللاتيني. وللما هذا من الأسباب التي جعلت السينما تنتشر بين الصربيين جمعًا كثيفة شبهية.

هذه كلمة مختصرة عن اللغة رأينا أن تقدم بها للحديث الآن عن الثقافة والفكر الذي تميزه المصري الروماني في مصر، والذي كانت وسلته في التعبير هي اللغة اليونانية التي كانت دائماً الناشئ خارج مصر أيضاً.

**

رأينا في المصري البطل كيف كانت الأسكتدرية أشهر مركز في العالم في مجال الأب والدراسة، قدماً كثير من العلماء والدارسين إلا أنهم دخلوا إلى هيئة علماء السكسية والمسيحيون أو تعرفوا من معيون هؤلاء العلماء.

وقد تركت مدرسة الأسكتدرية أثرها على مراكز الأدب اليوناني الأخرى حتى في بلاد اليونان نفسها ثم تدأ تأثيرها على العالم اليوناني إلى روما، فظهر هناك أدباء وشعراء لاتينيون متأثرين بآدابهم الأدب الأسكتدرية وبحا كون منهجه كما يمكن بعض أدبائنا الآن تأثير الأدب العربي. ومن الغريب أن هذا التأثر على روما بلغ ذروته في عصر كليوباترا، أى في الفترة التي تم فيها نهائها ضم مصر إلى الإمبراطورية الرومانية، حتى أن من أراد من أدباء
روما أن يخرج على قواعد الأدب الأسكندرى كان يفعل ذلك بقصد الثورة
على سيطرة هذا الأدب على عقول الأدباء الرومان (1).

لم يكن مستغرباً إذن أن يحتضن الرومان مؤسسات الثقافة والعلم في
الأسكندرية بعد الفتح، ففيت المكتبة والموسيون تلبس القشاع والتأييد من
الأباطرة، كما استمر العلماء يتنزلون الامتناعات والأعتيارات المختلفة كالإعفاء
من الضرائب وتناول الطعام في الموسيون دون مقابل.

وقد أن نذكر أن الموسيون كان عبارة أكاذيبية للبحث ولا يست服从
للتدريس، إلا أن بها قاعات يجمع بها العلماء وتباحثون فيها. ونحن نعرف أن
الإمبراطور هادريان الذي كان شديد الحكمة لإضاعة اليونانية، زار الموسيون
وشهد بعض ندوات العلماء، والفلاسفة هناك واشترك في مناقشاتهم. ومناسبة هذه
الزيارة زاد عدد العلماء بعمق كثير من الأساتذة والفلاسفة ومنهم من كان من
الفلاسفة المجهولين الذين لا يقيمون في الأسكندرية، فمنعوا أيضاً بأعمالهم
للموسيون كما قل أن الآن، وينبغي أن الموسيون يشعر في عضوية الموسيون قد بدأ يتخذ
أجاعاً جديدًا وهو حمل العضوية فيه شرقياً بالنسبة لكثير من الشخصيات
البارزة، مثل كبار رجال الإدارة والجيش والأبطال الرائدين.

وكان الموسيون وثيق العلاقة بالمكتبة التي أنشأها البطالمة ورعاها ملوكهم
منذ الملك بطليموس الأول وكانت لها شهرة عالية حتى إنها حاولت جزء
منها بسبب الحريق الذي نشب في أسطول يونيون قصر في الميناء، عبر
أطول لقاء تطوير التمويض اللازم للكليوباترة بعد ذلك بإعدادا 1930.

_________________________
(1) لقد عرف الكاتب هذا الموضوع من قبل في كتابه تاريخ الأسكندرية منذ أقدم
الصور، الذي أصدرته عائلة الأسكندرية عام 1922 ص. 91 - 99. أخبار أخرى
م. إبراهيم نصي في كتابه تاريخ الحضارة المصرية، ص. 167 - 163، 1931.
Also cf. V. Chapot, L'Egypte Romane, pp. 361 ff.
مجلد من مكتبة مدينة بريغانا البارزة في آسيا الصغرى. وقد استمر للمكتبة أمانوياً من العلماء البارزين الذين اهتموا بأمرها طوال العصور الرومانية، ولكننا لا نسمع عن اهتمام الأباطرة والولاة ببنية المكتبة كما كان يفعل البطالسة من قبل. ومع ذلك فقد بقيت المكتبة الكبرى التي كانت ملحقة بعميد السرايبوم شهيرة وكذلك المكتبة الصغرى الملحقة بعميد الفيصرون.

ولم تقتصر الحياة العلمية والثقافية في الأسكندرية في العصر الروماني على اليونان والمكتبة، بل يوجد مدارس وقاعات للدراسة يدرّس بها من ثمان من هؤلاء العلماء وأخرى وكانت هذه المدارس والقاعات تكون ما يمكن أن يسمى جامعة الأسكندرية كا نفهم الآن معنى الجامع، وكان يقصد هذه المدارس كثير من الطلاب من الأسكندرية ومصر عماً ومن خارج مصر أيضًا. ولكن يجب أن نذكر هنا أن الحياة التعليمية في الأسكندرية في العصر الروماني كانت حياة مقدسة إلى أبد الحدود، وذلك لاصطدامها بالأطراف الدينية الجديدة، فأصبح عالم اليونان والرومان والمكتبة ومعاهد تدريسهم يتلون الثقافة والحضارة الكنعانية، بينما نشأت مدارس جديدة: واحدة للدراسة الدينية اليهودية دراسة قاسية بين اليهود، وأخرى لتدريس الدين المسيحي الجديده، كما سبقت بعد قليل.

ولننقل الآن إلى الحديث بما أسهمت به مصر في مجال الثقافة والفكر والعلم في العصر الروماني. وقد استمرت الأسكندرية أيضًا مركز الحركة الثقافية والعلمية في مصر بطبيعة الحال رغم أن كثيرين من نجوا في هذه الفترة جاءوا إليها من داخل البلاد مثل أثيناوس من تكراطيوس وأقلالون Athenaicus من أسيوط.

ولكن نوع الإنتاج الفكري الذي امتاز به الأسكندرية في العصر
الروماوية اختلف عن الطابع الذي تميزته به في العصر البطلمي. فقد أشارت أسكندرية البطالمة بالأدب ودراساته، وكذلك بالبحث العلمي الذي أثر أحيانا على الإنتاج الأدبي. أما أسكندرية العصر الروماني فلم تحافظ على نفوذها الأدبي وبدور أن عهد ووجود القرص الملكي البطلمي في الأسكندرية أفقد الشعراء التشجيع السريكي لبعث إلهامهم. فكان شعر هذه الفترة على حال مجرد كلام مكسور بعيد كل البعد عن مفهوم الشعر الراقي واصطحب هذا التدفق في الصورة العربية فراح الشعراء يظهرون مهاراتهم في نظم قصائد جغرافية في وصف ليبيا مثل كا فل دينس (Den: 8)، وأوفي وصف الواحات كافل سوتيريجوس (Soterichos).

أما في مجال العلم فقد حافظت مصر على حقل مشهور التقدم فيه. وأشهر علماء هذه الفترة غير منازع هو بطليموس الجغراف الذي أظهر كثيرا بين العرب فيما بعد. وهو من أبناء مصر في القرن الثاني الميلادي، ويعتبر قمة في علم الجغرافيا القديمة متميزة على سابقه من أمثال مستزارون، وذلك لأنه لم يكن متكاملا جغرافيا نفس بل رياضيا مجددا إلى جانب كونه فلكيا وعلما طبيعيا. و بهذا القدر العظيم من العلم تصدى بطليموس لمشكلة أعجزة القدماء، وهي دراسة الجغرافيا على أساس رياضي وفلكي، وعمل خريطة العالم ووضع عليها الأماكن كل إقليم بنسبة أبعادها الصحيحة. هذا العمل العظيم أخرجه بطليموس الذي تفرع الجغرافيا فزمة كبيرة في الأفكار الصحيحة، كما أن أخطائه ذاتها كانت لها قيمة، لأنها أصبحت فيما بعد بمثابة نقطة انطلاق لتصحيح معلوماتنا الجغرافية، وأصبح عمله كله خير ميد لقيام علم الجغرافيا الحديث.

ولكن ما يصير أن من أشهر ما تتميز به الأسكندرية في هذا العصر هو المجموعة الفلسفية التي عرفت بها مدرسة الأسكندرية. هذا الاتجاه الفلسفي كان جديدا على الأسكندرية، لأنها لم تشتهر بالدراسات الفلسفية في العصر
البطلة، ولم الملوك حينئذ لم ينعموا دراستها ليرموا أفعالهم من أخطار
انتشار العروفة الفلسفية وظهور مدارسها. ولم يكن الرومان بطيئهم أهل
فسلة، ولكنهم لم يضيقوا بها. وترعرع كثيرون من قادة روما وأباطرةهم من
تشيعوا لبعض المذاهب الفلسافية والأخلاقية التي انتشرت آنذاك مثل الرواية
والأخلاقية. أما في الأسكندرية فقد وجدت ظروف معينة في هذا العمر
ساعدت على بعث التفكير الفلسفي بين المتدينين. ولا تقض بعد ذلك ظروف سويع
البيئة الدينية التي عاصرت قيام نظام الإمبراطورية الرومانية في الجزء الأخير
من القرن الأول م.م. واستمرت في القرنين الثلاثة الأولين اليابادية في هذه
البيئة. ففي هذا العمر واجه الإنسان أخطر موقف ديني عرفه في تاريخه
بأسره. إذ تحت ظروف توحيد العالم في ظل الإمبراطورية ونشاط الاتصال
بين البيئات المختلفة سألت الأديان من بلد إلى بلد، ومن بيئة إلى بيئة ونشأت في
الوقت نفسه دعوات دينية جديدة مثل الفنوسية والمسيحية وكلاهما تؤكدا لإنسان
أن الأديان القديمة كلا هراء وكدب. في مثل هذه المواقف يليج الإنسان
إلى تفكيره الشخصي ليبحث عن الطريق الصحيح. وهذا هو دفع إلى إثارة
التفكير الفلسفي في الأسكندرية في ذلك الوقت، مما يطبع دينه.

وأول وفسوف لمدرسة الأسكندرية هو فيان اليهودي، الذي عاش في
القرن الأول اليابادى، وكان من الطبيبي أن يتصدى لهذا الموقف وفسوف
يهودي لأن اليهود كانوا الفئة الوحيدة التي تدين بالتوحيد حينئذ، وكان
الدين الجديد بدأوه إلى التوحيد قد واجهت الوسومية بتحديات خطيرة، كأن
الفلسفة اليونانية كانت تتعليم الوسومية أحياناً بعض أبياتها. فقام فيانون
بمحاولة تعويض دينه للمثل الجديد مستعيناً بالفلسفة اليونانية على شرح الوسومية،
فهو بدأ بموقف ديني ثم يتطرق منه إلى الدليل الفلاسفي على صدق الدعوة
الدينية.

228
هذا الاجتهاد الجديد كان خطيرا جداً على التفكير الفلسفي فيه بعد وصوله تأثير كبير على التفكير الفلسفي والديني في المصري الإسلامي والمسيحي، حين يتحل الفكرون أنفسهم بإبادة قضايا الدين عن طريق الفلسفة.

أما الفيلسوف الكبير الذي تخرج في الإسكندرية ويعتبر زعماء الفلاسفة الحديثة فهم أفلاطون من أبناء أسيوط في صعيد مصر في القرن الثالث الميلادي وكانت الإرثية قد بدأت تضفر شوكة أمام الاجتهاد السني الجديد. ولهذا نصدا أفلاطون خلال الشككة الدينية عن طريق الفلسفة، مبدئًا هذه الرسالة الفلسفة ودمجها بالفكر الإسلامية.

ولقد حرص أفلاطون على استكشاف ثقافته الفلسفية فاتخذ بحش رومانى كان ذاهباً إلى الشرق كي يحكم الهند وفارس. ولكن بعد الإمبراطور فاتد الحملة عاد مسرعاً إلى أثينا ومنها إلى روما حيث قضى بقية حياته معاصر هناك. وكان ما عرف عنه من عفة ونقاء وسلوك تصورات أكبر على أتباعه ومراعيه من جميع الطبقات.

لم يكن غريباً إذا أن تجمع فلسفه أفلاطون بين الفلسفة اليونانية والفكر الشرقي، فهو يعتبر أساساً على فلسفة أفلاطون والفيتوغرافية الجديدة إلى جانب الفقيض الإسلامي الشرقي. وجعل نظرته تدعو إلى وجودعالين: عالم الحس وعالم المثلجرد. وتتفق علينا أن نتوجه بما كنارنا نحو أي العالمين. وعالم المثلجرد هو الأعلى، ويجب أن نتوجه نحوه كل إنسان عاقل. ويقدر ما تجبر من التعلق بأسباب الدنيا والانطلاق نحو التأمل الفني الذي يقرب من المهد، ويقدر ما نرتفع في هذا العالم المأمل نزداد قرباً من الخير للطلق حتى نتم عودة النفس إلى المبدأ الأول والأ祖先 بالله.


**

279
أما عن الحياة الدينية فقد استمرت عبادة الثالوث الباطني المكون من مرايس وإيزيس وهروبوكراتيس والذي كان من صنع البطالة وظل محتفظاً بمكان الصدارة بين الآلهة في مصر الرومانية، بل لماها تحت في الخارج عن ذى قبل، وأعلن إدخالهما رسمياً إلى روما حين أنشأ الإمبراطور دوميتيان (81-96) معبدها في روما لعبادة سرايس وإيزيس.

وكان ذلك بمثابة إعلان رسمى لقبول الآلهة المصرية في روما بعد أن كانت قد وصلت هناك قبل الفتح بصفة غير رسمية وخاصة آلهة إيزيس التي تمثل الإلهة الزوجة لسرايس والام للهروبوكراتيس. ولقد احتفظت إيزيس في مصر الرومانية بشخصيتها المصرية رغم محاولة تدنيها بدبيكريت وأفرويديت النوبتتين. ولكن شخصيتها المصرية كانت قوية بذاتها خاصة وأنها تكوّن مع هروبوكراتيس صفة أساسية في الفكر الدين الإذبي، وهي فكرة الإلهة الأم. وذلك الشخصية استطاعت الإلهة إيزيس أن تنزو روما قبل أن يفتح أغسطس مصر، وأن تنافس في اتساع إمبراطوريتها روما ذاتها. فقد انتشرت عبادتها كالبرق في سرعة غريبة إلى جميع أرجاء الإمبراطورية الرومانية تمتد حدود الإمبراطورية إلى أقاليم أكثر بعداً شرقًا وغربًا في ركب تجارة الإسكندرية.
وليس أدل على ذلك من بردية مشهورة من الهنود ترجع إلى القرن الثالث الميلادي تذكر الأماكن التي انتشرت فيها عبادة إيزيس في أرجاء المعمورة. هذه الأماكن تشمل معظم أجزاء مصر إذ أن هناك ذكرًا لسبع وستين مدينة في الدنيا فقط، أما خارج مصر فتذكر أسماً خمس وخمسين مدينة سرتية حسب البلاد التي تقع فيها.

ومن دراسة هذه البردية تبين أن سلطان الإلهة إيزيس شمل الهند وبلاد العرب وفارس شرقًا، وسينوب على البحر الأسود شماليًا، وروما، وإيطاليا غرباً.

٣٣٠
أما عن هربورانيوس فقد كان مصري الأصل أيضًا، باعتباره إحدى صور حورس، ولكن سرعان ما تمحافظه صورة أخرى لحورس وآلهة أخرى مصرية وغير مصرية وانتشرت خارج مصر في العالم اليوناني وفي خطوط حبارة الأسكندرية وحذاء ركبة أيزيس التي كان يشترى بها عادة، إذ لم يعرف أن ينفر بهدوئه، باعتبار أنه حورس الصغير يحب أن يغطي في رعاية والده. ومع ذلك فقد كان منشرا ومحبوبا بين الطبقات النفيرة ولكنه عبد مستقل بشخصه في اليوت.

إلى جانب هذا التأثير، حلت في مصر عبادة الأباطرة الرومان على عبادة البتالة، ولكن يجب أن نتذكر هنا أن الأباطرة عبوا على أن أشخاصهم مقدسة وليس بوصفهم آلهة. وكانت العبادة قاصرة على الأباطرة بعد موتهم، فكان لهم كأهالي في الأسكندرية وتقدم تجاهلهم في معابد الآلهة الكبيرة ولم تفردهم معابد خاصة. ولكن بقيت عبادة الأباطرة عبادة رسمية تمارس في المنازل والعام دون أن يكون لها طابع شعبي أو تمييز في اليوت.

إلى جانب هذه العبادات ذات الطابع السياسي والديني معاً استمرت عبادة الآلهة المصرية اليونانية والشرقية القديمة في هذلا العصر أيضًا، بل وازدادت اختلاطها وانغمالها عن ذكره حتى ليمكن أن يقال إن العالم لم يشهد فترة متزوجت فيها الأديان القديمة جيماً كما حدث في ظل الإمبراطورية الرومانية. فإن تعدد الشعوب واختلافات التي شملها الإمبراطورية وسياسة التسامح الديني التي اتبعتها الرومان سمح بجميع الأديان أن تزدهر. كما أن السلام الذي ساد العالم في الفترة الأولى من تاريخ الإمبراطورية والنشاط التجاري الذي انتشر بين أرجاء العالم مكن الأديان المختلفة من أن تنتشر وأن تؤثر بعضها في بعض. وكانت روما والأسكندرية من أهم مراكز التقاء هذه الديانات المتباينة كما
كانت نقطًا لإشعاعها. في هذه البيئة الدينية المتعددة نشأت المسيحية وأقامت كنيستها وطهرت الأديان القديمة.

بداية الحركة المسيحية في مصر:

كان ظهور المسيحية مع مولد الإمبراطورية الرومانية في الجزء الأخير من القرن الأول م.م. من أخر أحداث التاريخ وأكثرها تأثيرًا في سير الأحداث والحياة بكل مظاهرها بعد ذلك. غير أن ظهورها كان خافتاً ضعيفًا أول الأمر بسبب الكثير من التضليل، حتى أن الناس لم يعرف كيف نشأت وكيف انتشرت على وجه التحديد. ولكن من المرجح أنها وصلت إلى مصر منذ عصر ميكر تشا. في البداية، أظهر مؤرخ الكنيسة الأولين، والذي عاش في القرن الرابع الميلادي، أن القديس مقدس نفسه حضراً إلى مصر وأنه بشر الدين الجديد في الأسكندرية في أواسط القرن الأول الميلادي، وروى إحدى أسرار القديس مقدس أن أول آبائه كان إسكافيًا يهودياً.

هذا هو ما ذكره الروايات المسيحية الأولى، ولكن ليس هناك أي دليل مباشر يثبت وجود المسيحية في مصر خلال القرن الأول الميلادي الأول. ومع ذلك، فنحن ندرك عقلًا أنه عدم وجود الدليل لا يثبت شاهداً على عدم وجود المسيحية في مصر في ذلك الوقت. فإن المبادئ والأفكار كانت تنتقل حينئذ بسرعة لا تقل مما تنقل بها الآن. فعبادة إيزيس مثلاً انتشرت في سرعة هائلة مع انتشار التجارة الأسكندرية إلى أرجاء العالم زمن الإمبراطورية الرومانية. فلا يجدر بنا إذن أن ترى المسيحية من فلسطين وسوريا إلى مصري مرسى التجارة أو في موكب الجنود من طريق البحر والبحر وكلاهما أمن منتظم.

(1) عرس السكنات لهذا الموضوع في مقال "حول نشأة المسيحية في مصر" نشر في المجلة 3 عدد أغسطس 1963.

222
أكبر دليل على صدق هذه الدعوة أنه منذ القرن الثاني الميلادي ظهر في مصر نشاط وكتابات مسيحية على جانب كبير من الأهمية. فقد حفظت لنا أوراق البردى نصا من إنجيل القيس بوحا يرجع إلى النصف الأول من القرن الثاني. وكذلك ثور على إنجيل مسيحي جديد غير الأناجيل الأربعة المعروفة، ويرجع تاريخ تدوينه إلى الفترة نفسها أو بعدها بقليل. مثل هذه النصوص المسيحية المبكرة وغيرها لها دلالاتها رغم ندرتها (1)، خاصة حين تقدر الظروف التي تمت فيها هذه الأعمال، فنحن نعرف أن الأباطرة الرومان تفوقوا المسيحية بالمقاومة والاضطهاد الشديد منذ البداية. ورغم ذلك استمر المسيحيون يتنشرون ويعملون في الخفاء سواء في مصر أو في أنحاء الإمبراطورية المختلفة.

وقد كان للظروف الدينية والفكرية التي سادت في الأسكندرية في ذلك الوقت تأثير كبير على المسيحية الناشئة. فسبب توحيد العالم في ظل الإمبراطورية الرومانية وكثرة الانتقال والاتصال بين البعثات المختلفة سرت الأديان والأفكار من بيئة إلى أخرى - كمسير أن ذكرنا؟ فواجهها الإنسان لأول مرة مجتمعة متناقضة وكان من أهمها الأسكندرية. وفي هذه المدينة وجدت مدبرة ملتبسة نامية تأثرت بهذه الظروف الدينية واستجابت لها فاصطحبت نفسها بالعالم والروحيان، ومن أكبر أحلامها فيلون وأفولين - وقد سببت الإشارة إليها. وفي هذه البيئة المختارة ظهرت دعوة دينية جديدة على جانب كبير من الخطر، وهي الفنوسية أو الأدبية (Gnosticism).

إلى الاعتقاد في فكرة إلهية على تمثيل فيها الثلث الدينية الرفيعة دون التقيد بدين معين؛ أي أنها نوع من الفلسفة الدينية. هذه الفلسفة والأيديولوجية كانت النتيجة الطبيعية لتفاوت الأديان في هذه الفترة من ناحية، ولانتشار المدارس الفلسفية من ناحية أخرى فقد أخذت من الأديان جوهرها في الإيمان بفكرة إلهية، وأخذت من مفاوضات فيازن وأفلاطون الجنرال التصوف في الوصول إلى المرة الإلهية، لأنه في عقيدته كان Gefühl الموهوبية في الإلهية، ولكن لا يوجد الوصول إليها من رياضة خاصة وتأمل في الذات الإلهية.

هذه الحركة الفلسفية، رغم أنها كانت منافسة خطيرة للسيحية في فترة البداية القاسية، خلقت بيئة مناسبة لأن تسود السيحية بعد ذلك، إذ شجعت على الاتجاه نحو ترك الديانات القديمة لقصورها، فأدت بذلك للسيحية ساعدة كبيرة. إلا أن الفلسفية من ناحية أخرى كانت أممية سلبية، كما كانت حركة منشقة تستمد على العمل الفردى، وهذا لا يتوفر لها عامل الإثارة والإيجابية الذي يأخذ القوى الدينية في الجاف، ورغم أن الفلسفة هزمت في معركة الصراع الديني إلا أنها تركت في السيحية آثارًا هامة: الأول أنها فرضت على زعامة السيحية في القرن الثالث والثاني ذلك أن بيدن التفكير في أبست عقيدتهم وأن يرجعوا إلى جذور الفكرية السيحية وأن يجدوها لأسس عقيدتهم وأن يرجعوا إلى جذور الفكرية السيحية وأن يجدوها لأن السيحين الأولين بعد السيح مباشرة شناهم الحاكم الدين في انتظار عودة السيح عن التفكير في جوهر الفكرية الدينية الجديدة. أما الآخر الثاني - وتشترك فيه الفلسفة مع الفلسفة - هو قوة الإجماع التصوف والروحاني الذي عرف في السيحية فيها بعد (1).

(1) يوجد عرض قيم لثقب الدينية في مصر قبل السيحية عند ظهرها في كتاب:
H. I. Bell, Cults and Creeds in Greco-Roman Egypt (1953).

234
في وسط هذا المترك العنف بين المذاهب والفلسفات والأديان المختلفة من ناحية، ومقاومة الدولة من ناحية أخرى شنت المسيحية طرفاً وأصبح لها في الأسكندرية مركز رئيس ومدرسة غير رسمية لتدريس تعاليمها (1) وكان الهدف من هذه الدراسة هو محاولة الجامعات الرئية الشهيرة في الأسكندرية القديمة. وقد استطاعت هذه الدراسة منذ وقت مبكر أن تسكتش مجداً وقوة على أيدى أساتذتها الكبار أمثال كليمنس وخليفته في الأستاذية أوريجينيس.

أما كليمنس فكان شخصية إنسانية جذابة ولد في أثينا في أواسط القرن الثاني الميلادي ونشأ ونشأ وعاش الثقافة اليونانية متجراً في الأدب والفلسفة. ثم حضر إلى الأسكندرية، وبعد أن استمر إلى محاضرات في الدراسة المسيحية هناك اعترف الدين الجديد وأصبح أساتذة بالدراسة نفسها بعد ذلك. وقد امتازت دروسه وكتبه بأثر الفلسفة اليونانية وكذلك بأثر غريغوريوس 3. أجمل معتدلاً متسامحاً واسع الأفق بعيداً عن التمسك. وفي سنة 203 ميلادية وهو في ذروة مجدته الدينية والعالم تعرض المسيحيون لاضطهاد شديد سلطانهم الإمبراطور سيفروس، فأغار كليمنس إلى أن هاجر إلى فلسطين وأن يعيش متخفياً حتى يموت في ظروف لا نعرفها.

بقاء بعده أوريجينيس أعظم مفكرين المسيحية في عصره، وقد نشا في الأسكندرية كنيسة أخرى وهو في السنة عشرة وقد يستعد أثناء الاضطهاد سيفروس، وفي فورة الأفعال أراد أن يحقق بالفعل حيلة من الدعوة التي أعفت ملابسه. ولقد كان الاضطهاد شديداً على الدراسة لم يترك أحداً من أفرادها سوى أوريجينيس.

E. R. Hardy, Christian Egypt: Church and People (1952).

(1) عن المسيحية في مصر أخيرًا

٣٣٥
فاضط الأسف ديمتريوس - رئيس السريحيين في مصر آنذاك - أن يعينه في العام التالي وهو في سن الثامنة عشرة رئاساً للمدرسة خليفة للكييمانس. وقلد كان أوريجنيس صاحب دراسة فلسفيّة عميقة وشهدتها التأثير العظيمة إلى جانب دراسة عظيمة باللغة الهيروية والتحري، حتى أنه قام بدراسة مقارنة بين النص العبري والنص اليوناني في الترجمة السريحيّة. عندما احترفت validating النصين واتخذ أوريجنيس شهامة عظيمة بين السريحيين في عصره حتى أنه كان بديع ليل مشاكلهم حيث كانوا يختلقون حول قضية دينية. وقد اكتشف أوريجنيس تدفق مشابهة تتضمن محاورات لأوريجنيس مع بعض قادة المراكز السريحيّة حول الأب والإن والروح القدس (1). ومن الغريب أن أوريجنيس قد نجا من الاضطهاد أثناء توليه الرئاسية رغم أن عددا من تلاميذه لاقوا الموت مستشهدين، علما بأنه كان يلازم الشهداء حتى ساعة الاستشهاد الأخرى.

في وجه غضب الجاهز من الوثنيين، على أي حال بقي أوريجنيس حتى عام 232م. ولكن يبدو أن أتباعه الفلسفي قد أوقعهم في خلاف مع رجال الدين الآخرين وعلى رأسهم الأسقف ديمتريوس. فاضط الأسف ديمتريوس. أوريجنيس إن تترك الأسكردريه ويدعو إلى فلسطين حيث أكمل دراسته للكتاب المقدس. وكان لطيفته تأثير كبير في بلاد الشام، حتى لبكي أن يقال إن له الصبر الكبير في إنشاء المدرسة السريحيّة في أنطاكية. وقد بقي في ذلك البقاع في سنة 253 في مدينة صور في بعض حركات الاضطهاد التي حدثت آنذاك، كما سيأتي فيما بعد.

المسيحية إذن دخلت الأسكردريه وأصبح لها هناك حركة قوية، ومنذ الوقت انتشرت أيضًا إلى أنحاء القطر المصري وكانت الجاليات السريحيّة المحلية

J. Scherer, Entretien d’Origène avec Heraclide et les évêques ses collègues sur le Pére, le Fils, et l’âme, Cairo (1949).
على اتصال مستمر بالحركة المسيحية بالإسكندرية والتي كانت بدورها واسطة الاتصال مع السياحة العالمية في الخارج. هذا الاتصال بين مراكز الحركة المسيحية تكتشف لنا بردية طويلة ترجع إلى عام 362 ميلادية (1)، وهي تحتوي على خطاب كتبه شخص له مكانة فيا بيدرو وفريدون من روما، ويعتبه إلى جامعة السفاحيين إلى منطقة الفيوم وهو يخاطبهم بلفظ «أخوائنا» التي تعتبر تعبيراً مسيحياً جديداً في لغة الخطابات في ذلك الوقت، وطلب إليه أمر يجمع مبلغًا من المال ورسله إلى الإسكندرية حتى يمكن أن يعده في انتظاره حين يصل إلى المدينة، وفبالتالي إشارة إلى البابا «ماكسيموس» الذي كان أسقفًا في الإسكندرية، هذا الخطاب له طرافة، إذ أنه بين نوع من التماس بين البيئات المسيحية الأولى سواء، محتلاً أو على نطاق واسع، ولا غرو فقد كانت الأسرة في الإسكندرية بمتى رأس الحركة في القطر، وهي قامت 救会 in الإسكندرية كانت كلاً من الأقليات، وهذا واضح أيضًا من الخطاب، فتبين الإشارة إلى أسقف الإسكندرية بلقب «بابا» يدل على أنه في ذلك الوقت كان رئيسًا لجميع المسيحيين في مصر، ومن الطرق أن نذكر هنا أن لقب «بابا» أطلق أول مرة على أسقف الإسكندرية هرقلس (232-249) قبل أن يطلق على رأس الكنيسة في روما ذاتها (2).

ولكن رغم هذا النشاط الجم ورغم وجود المدرسة ورئيسي للمسيحيين في الإسكندرية ومصر يدينه الجم بالولاء والطاعة، لم تكن حياة المسيحيين سهلة هيئة. فقد كانت حياتهم حلفات من الخوف وال تعرض لأشك أنواع الإذة.

The Amherst Papyri, I. 3. (1)
Eusebius, Hist. Ecclesiastica. VII. 754. (2)

٢٣٧
الاضطهاد على يد السلطات الرومانية، وقد يعجب القارئ لتمدد الرومان
اضطهاد المسيحيين في حين عرف عن الحكومة الرومانية التسامح الدينى تجاه
الديانات القديمة جيماً. ولكن الرومان نسجوا طالما كانت الأديان لا تكون
خطرًا اجتماعيًا أو سياسيًا، وكانت المسيحية في ذلك خطأً سياسياً لا تقبل
التعامل مع أي عبادة أخرى، ومن العبادات القديمة عبادة الإمبراطور.
فلسفيحية بدعوتها إلى التوحيد كانت تسحب الإمبراطور صفته القدسية وهي من
أعظم مقومات سلطاته وخاصة في إمبراطورية مقيدة التركيز كإمبراطورية
الرومانية. ولذلك تقترب السلطات الرومانية المسيحية بالاضطهاد منذ تاريخ
مكبر في روما، ولكن أول اضطهاد منظم ضد المسيحيين في مصر حدث عام
303 موزم الإمبراطور سيفروس، وقد سبقت الإشارة إليه. والاضطهاد
الثاني الكبير حدث في منتصف القرن الثالث زمن الإمبراطور ديكيوس حين
تمت محاولة منظمة لإبادة المسيحية نهائياً في الإمبراطورية الرومانية، فصدر
قرار يحمى الأفراد أن يستخرجوا من جنفيت هذا الأمر خاصة شهادة نثبت
أنهم يمارسون العبادات الوثنية وأنهم يضحكون للآخرة (1) أمام هذه الحيلة الفاشلة
ترفع ثواب بعض المسيحيين، فشاركوا في التضحيات الوثنية أثناء العذاب.
وقد كان مسلك هؤلاء موضع خلاف كبير بين المسيحيين فيما يتعلق بتورتهم بعد
ذلك. ولكن بعضهم آخر من الرجال والنساء واجه الاعتداء عبد، وتحمل
العذاب الرهيب من ضرب بالعصى وعمل معال مع فوق حمى الشوارع إلى
خارج المدينة. ومن لقي حتفهم في هذا الاضطهاد العالم المسيحي الكبير أوريبين
متأثراً بأثار العذاب في مدينة صور، كما ذكرنا من قبل.

على أي حال، بعد ديكيوس أوقف الإمبراطور جاليديوس اضطهاد المسيحيين

(1)

P. Ox. no. 658.

348
وسمح لهم بحرية العبادة، وهكذا استطاع المسيحيون لأول مرة أن يبنوا كنيسة لهم. وأول ذكر للكنيسة مصرية يوجد في بردية من البهنسا في سنة 300م. أما عن تاريخ المسيحية بعد ذلك فإنه في الفترة التاريخية التالية التي تبدأ بعصر دقلليانوس، وفيها تنتصر المسيحية نهائياً، وتصبح سيدة الدولة والسياسة في المجتمع الجديد بعد أن كانت طريدة في المجتمع القديم.

P. Ox., no. 43, verso.

239.
المَبَابُ الْثَلَاث
مصْرَفِي العَصرُ البِيزِنطِي

(284 – 480 مه)
الدبلوماسيون في صنف الابيزاطين:

دقيديانوس (384-330 م)

انتهى الحروب الأهلية والانقسامات العسكرية المتواجدة التي شكلت معظم سنتي القرن الثالث والثاني تحت الأباطرة الرومانيون منصفة الأواص وتمت انتزاعها واشتت سلطة مركزية في الأفواه، وتحت الإمبراطورية المشهورة القوية في القسطرة الأخيرة في بعض الجوانب، وتحت الفتحات كل الاختلاف في جوانب أخرى، لم ينتموا من حيث أنه جندي في الجيش الروماني من أصل متواضع وتمكن من الوصول إلى منصب رفيع في الجند، ومنه في يومنا هذه توصل إلى السلطة عن طريق الجيش والمؤامرة والجيش الأهلية. ولكنه مختلف عنيهم في أنه كان شخصية قوية في المواجهة في الإدارة والحكم بالرغم من أنه لم يكن قائدًا عسكريًا عظيمًا، وكثيراً ما عيد بقيادة الجيوش إلى غيابه من أتروسه الضباط، وبالرغم من أنه شخصية حافظة إلى أبعد حدود المحافظة خاصة من الناحية الدينية، ولكنها كرس نفسه لحفظه وأخذه من سلطته من الأباطرة وهي وقفت الإمبراطورية الرومانية من الانزلق إلى هاوية التدهور والفوضى التي كانت مسرقة إليها، وفيما بعد هذا العمل لم ينظر إلى أمام بقدر ما نظر إلى الخلف، فلو لم يعتبر نفسه وضع أسس نظام وعهد جديد، وإذا اعتقد أن بهم لعيد

243
الخليج، فإن القواعد الإدارية ونظم الضرائب الجديدة التي تم تطبيقها، تؤثر بشكل كبير على تاريخ مصر في القرن السادس. هذه التغييرات تستدعي 새로운 النظام الإداري والسياسي في الدولة. 

 لنظام ضرائي جديد بدلاً من النظام المتعدد المتخلط الذي كانت متبعة من قبل، ويتخلص النظام الجديد في أبسط صورة في فرض ضرائب مزدوجة على الأفراد والأرض بقدر متساوي في كل أحياء الإمبراطورية. ولكن نظرًا لأن القيمة الديموغرافية للفرد تختلف حسب خصوصيته والدولة التي تعتنيها فقد وضعت قواعد دقيقة لتراعاة ذلك بحيث أن بعضاً من الفاكهة ومزارع الزيتون كانت تقدر عليها ضرية أكثر من أرض الحبوب أو الرواح وعكذا. وقد أمكن تنفيذ هذه السياسة الجديدة عن طريق إجراء إصلاحات للأفراد ومسح للأراضي في فترات متقاربة. (كانت وحدة قياس الأرض في النظام الجديد هي البوقوم)، وهي تعدل نصف فدان أو أقل قليلاً.

ولكن مهمة قديانيوس في الحكم والإصلاح كانت غاية في الصعوبة، إذ كان عليه في الوقت نفسه أن يؤمن حدود الإمبراطورية الموحدة ضد غزوات المفترس من كل جانب، ثم أن يجمع أي مقاومة أو ثورة محلية ضد حكمه أو تشريعاته، ثم أخيرًا أن يخمد الحركة الدينية الجديدة التي تهدف إلى القضاء على جميع المعايير الدينية التي ألقدها الإمبراطورية حكومة شرموًها من قديم، وتقصد بالدين الجديد السيسيح. وقد تمثلت هذه العناصر الثلاثة في مصر في ذلك الوقت، فكانت حدود مصر الجنوبية تعاني من هجمات القبائل المعروفة باسم Blemyes جنوب مصر، وقد عالج قديانيوس هذا الخطر بأن أشرى سلامهم بالمال، ثم أقام قبائل قوية من اليونان على حدود مصر الجنوبية لتكمل إبادة الحدود ضد أى خطر واتنقت تهمه على أن يدوم سنوياً بإعالة مالية مناسبة. ولكن ذلك لم يؤمن مصر، فسرعان ما أظهر خطر آخر أشد في داخل البلاد، إذ استطاع أخطار قيادة الرومان دومتيايونس (Lucius Domitius Domitianus) والذى اشترى في الأسكندرية باسم أخيلوس Achillens، من الثورة ضد الإمبراطور الجديد وأعلن نفسه إمبراطوراً في الأسكندرية. تمثل هذه الثورة

٢٤٥
بالنسبة لدكليانوس خطراً حقاً، نظراً لأنها تهدف إلى إبعاد إمبراطور جديد أولاً، وأنها تتضمن مصر مركزاً لها، وفي ذلك تهديد صريح من إرسال الفتح إلى روما. ويكمن في الدلالات على خطرة هذه الثورة أن دكليانوس حضر بشجمه في الحال إلى الإسكندرية وقع الثورة بعد حصار المدينة مدة تامة أشد تدمير أجزاء كثيرة منها. ويبعد أن الحلقة في المدينة كانت سيدة جداً، حتى أصر الإمبراطور أسر بتوزيع جزء من الفتح والرسول إلى روما بين الأسقفة. ومن المحتال أن أهل الإسكندرية أظهروا سعادتهم بهذه النقطة من الإمبراطور بأن أقاموا له ذلك الع보고 الضخم المعروف باسم غانود بوري، ولا يزال موجوداً بالمدينة.

بعد القضاء على هذه الثورة أمكن تطبيق السياسة والنظام الجديد. في مصر، ومن بين محاولات دكليانوس في إعادة تنظيم وبناء الإمبراطورية على أساس متجانس يبدو أنها الاختلافات والانتقادات، حتى ولو كانت اختلافات في الرأي أو المفهوم، هي القضاء على الحركة المسيحية النامية في ذلك الوقت. فبالرغم من أن المسيحية أساساً دعوة دينية مجرد بسيطة عن السياسة كل البعد، إلا أنها بدأوا بها إلى نبض الآلهة القديمة. حينما كانت تهم ركناً أساسياً من أركان البناء الذي تقوم عليه الإمبراطورية خاصة وأن رفض العبادات القديمة كان مناهياً رفض قديسية شخص الإمبراطور. من أجل ذلك اعتبرت المسيحية في عصرها الأول على أنها حركة مناهضة للنظم الإمبراطوري التوارث. فإذا كان الأباطرة السابقون قد ضارعوا بالسياسيين في المتوقع ألا يبق دكليانوس بسياسته التي تؤمن بوعيد التشكيم ووحدة المذهب في البناء الإمبراطوري مكتوف الأيدي من هذه الشكلة أيضاً، وكافل في مجال إصلاح الإدارة والاقتصاد عن طريق وضع مبادئ ونظم جديدة، فقد حاول إصلاح الحالة الدينية بوضع مبدأ ديني جديد. هذا المبدأ الجديد هو زيادة
الصفحة القديمة لشخص الإمبراطور، وأطلق على نفسه لقب جيوفيوس (Jouius) ومنها تمثل جيوفيوس كBIG العلامة على الأرض. ومع ذلك فإن
يساعر إلى الاضطلاع بل يعثر فترة طويلة من حكم تبلغ عشرين عاما تقريبا. يؤكد مركزه على رأس الدولة، دون أن يتعرض للمسيحيين بأذى كبير، حتى إذا كان عام 298 قام بمحاولة محدودة لتحسين الإدارة والمجلس من المسيحيين، بينما كان يعد حرب الفرس، ولكن في سنة 303 مجد دقلديانوس يبدأ
من الوسائل السلبية في حل مشكلة الانقسام الدنيء في الإمبراطورية، ويبدأ
أقصى أضطلاع عرفه المسيحيون. فصدرت الأوامر الإمبراطورية تقضي بجمع
نص النصيحة الملكة لحراقة وكدسر الكهانة ومنع المسيحيين من الاجتياح
والعبادة. وقد نفذت هذه الأوامر الإمبراطورية بقسوة بالنسبة في كثير من
الأحيان، واستمرت نحوا من عشر سنوات، أي ثماني سنوات بعد اعتزال
دقلديانوس الحكم. ونظرًا لأن حاكم مصر في ذلك الوقت كان من الحزب
النطرون في محاولته كراهيتهم للمسيحيين فقد كان الاضطلاع في مصر أشد;
قوس من بعض الولايات الأخرى، وراح ضعحته أوف كثير من Si الطبقات
والدن (1).

قسطنطين (324 - 337) :
أستمر أضطلاع المسيحيين على أيدي الأباطرة الرومان بعد دقلديانوس،
حتى إذا كان عام 323 جمع قسطنطين في فوق الحُكم وأصبح أول إمبراطور
مسيحي للإمبراطورية الرومانية (2). وكان أول عمل قام به إمبراطور

(1) أظر وصف بوسبيوس عن الاضطلاع في مصر
Eusebius; Hist. Eccles. VIII. 8.
A. H. M. Jones, Constantine and

(2) أظر عن قسطنطين وعصره كتاب
الاعتراف الرسمي بالسيحية، وبذلك بدأت عهداً وتاريخاً جديداً يختلف كل
الاختلاف عن سيرتها السابقة. فمنذ ذلك الوقت، بدأ السيحيون يعمون في
حرية واطمئنان، وكان لذلك نتائجه السببية أيضاً. ففي عصر المخوف والترقب
السابق لم يقو السيحيون على إظهار خلافهم وانقسامهم في الرأي، لأنهم في
ذالك الوقت كانوا في أشد الحاجة إلى ماسكمهم وتناسدهم، وربما أودى أي
انقسام بينهم بالحركة كلها. ولم يكن معنى ذلك أنه لم توجد بين السيحيين
خلافات في الرأي قبل قسطنطين، بل وجدت هذه الخلافات، وقد أشرنا إلى
الخلاف بين أورجئيس والكنيسة في الأسكندرية إلى انسجام رأى الكنيسة
ب شأن الرتدن في عصر الاضطهاد. ولكن الميحيين في ذلك الوقت كانوا
يرون هذه الانتقادات في أضيق نطاق ممكن، دون أن تتوجه إلى خلافات
جماعية. ولكن ما أن أم السيحيون على أنفسهم من الاضطهاد وضمنوا
الدولة إلى جانبهم حتى وجدناهم يظهرون ما كانوا يضرون من التشيع والانقسام
وبهذا من ذلك انسجام حدثاً في مصر. الأول وهو ظهور الدعوة
الأوروسية في الأسكندرية، والثاني هو موقف ملقيوس من الرتدن في
عصر الاضطهاد.
أما عن الدعوة الأوروسية فهي نسبة إلى أريوس (Arius) الذي كان من أصل
ليبي تعلم في أبسطاً وأصبح أحد رجال الكنيسة في الأسكندرية. وبعد أنه
كان على جانب كبير من الطموح وقوة الشخصية وحدة المثل؛ ونظرًا لثقله في
مدرسة أبسطاً إلى المسيحية التي كانت تسود فيها فلسفة أورجئيس الدينية التي
كانت مشهورة باللطفة الأخلاقية، فقد تيقن محاولته على تولم هذه المدرسة وأخذ
يطبقها ويتواصل في الأسكندرية بصورة متطرفة، وسرعان ما صاغ آراء مستقلة
في المعتقد السحيكية تختلف عن المفاهيم السائدة، مما أوهمه في صدام عنيف مع
أسقف كنيسة الأسكندرية في ذلك الوقت المسى إسكندر. وتتلخص عقيدة

٢٤٨
أروبس نأ أنه بدأ بموقف أفلاطوني وهو أن الإله وجود دائم ولا يمكن إدراكه؛ ثم استنتج من ذلك نتيجة منطقية في أن الإله لا يمكن أن يكون إذاً بنفس المعنى، ولذلك بلزم منطقياً أن وجوده كان دائمًا موجود الإله، وبعبارة أخرى أن الإله له بداية، في حين أن الإله «الأب» قد تم دائمًا وأخرى بما أن الإله «الأب» لا يقبل الانقسام فلا بأس أن الإله خلق من الصمود. مثل هذه الآراء صدعت كثيرين من رجال الكنيسة في الأسكندريه الذين كانوا يعتقدون أن الإله مثل الأب دائم دائم وأنهما من طبيعة واحدة؛ وقد تخرج الموقف كثيراً نتيجة لذلك حتى اعتنق الأسقف الأسكندر إلى عقد جميع من الساساوة في مصر وليبيا وأصدروا استنكاراً لموقف أروبس وأعلموا خرمانة وأتباعه من الكنيسة. ولكن خطر دعوة أروبس لم يقتصر على مصر بل انتشر خارجه في فلسطين وليبيا وآسيا الصغرى. ولم يكتسح الأسكندر مكتوف الأيدي بل راح يعمل بشتاق جم بين أساقفة السكاناؤ في الولايات الشرقية يحضهم على مقاومة دعوة أروبس في مناطقهم بكل قوة. في ذلك الوقت حاول قسطنطين أن يتدخل في الأمر ويصالح بين أروبس واسكندر بدون جدوى لوقت عقد جميع دينى على يشترك فيه أساقفة السكاناؤ المختلفة في الشرق والغرب لوضع حد للاستماعات العقلية التي انتشرت في ذلك الوقت، وأرسلت الدعوة للإجماع في نيقيا في آسيا الصغرى في سنة 335.

أما عن السؤال الثاني وهي موقف ميلانيوس من معالجة الكنيسة المرتدين فتناول في أن ميلانيوس كان يدعو إلى آخذ موقف متطرف ملزم من الذين ضموا أمام الاطهاد وارتدوا عن المسيحية، في حين أن الأسقف الأسكندر كان يؤثر موه. د. رسمياً، يبيع الموت بعد التوبة(1). ورغم عدم

Bell, Jews and Christians in Eg, pt, pp. 38 ff.

(1) أخر

269
خطورة موضوع الانتقاس وباقي المصري إلا أن ميلادوس كان ديداً منهباً،
فلم يتزحزح عن آرائه قيد أخلاء، وشجع على تلك كثرة أتباعه، حتى إذا أدرى
الكنيسة المصرية إلى نفيه إلى فلسطين. وقد بلغ به النسيب أن يكون له ولأتباعه
كنيسة خاصة أطلقوا عليها اسم كنيسة الشهداء حتى لا يشاركها المسيحيين
الآخرين كنيستهم الكاثوليكية. ورفع الأمر إلى قسطنطين الذي قرر عرضاً
على مجمع نيقية أيضاً.

وانعقد مجمع نيقية في سنة 325 وشهد الفوضى من جميع أطراف الإمبراطورية،
ورأس الإمبراطور نفسه المجمع وشهد كثيراً من المجمعات وأشرف على
إدارة المناقشات. وبالرغم من أن المجمع تناول كثيراً من مشاكل المسيحية في
ذلك الوقت إلا أن الخلاف بشأن المقدسة الأوروبية كان الشكك الأساسية التي
واجهها المجمع، وذلك شغل بأمر الوصول إلى صياغة للمقدسة المسيحية يمكن
أن تقبلها المسيحيين من الفرق المختلفة. وفي الرحلة الأولى من المناقشة حاول
أتباع مذهب أريوس اقتراح عقيدة ولكنها رفضت بأغلبية ساحقة، وبعد
مناقشة طويلة أمكن الوصول إلى صياغة عقيدة تضمن المبادئ المسيحية
الأساسية التي يقبلها المجمع، ووضعت في أنظمة لا تثير الاختلافات المذهبية.
ولكن بعد أن أغر المجمع هذه الصيغة اقتراح قسطنطين إضافة النظيف واحد
يصف العلاقة بين الأب والأبن بأنهما من طبيعة واحدة (homoousion).

وتضمن إضافة هذا النظيف مجموعة كبرى من الإمبراطور للأثرياء التي
رفعت عقيدة أريوس، لأن قسطنطين كان يحرص في الواقع على كسب ولاء
الأثرياء قبل التفكير في مناصرة مذهبهم الدينى. ولقد تقبل أكثر الحاضرين
بما فيهم أتباع مذهب أريوس، ولم يعترض على هذا القرار سوى أثرياء من
أتباع أريوس الحفلين، فأصدر المجمع في الحال قراره برحيلهما مع أريوس.
ف نفسه من الكنيسة كما أُصدر الإمبراطور أمره بطرد من مصر.

أما فيما يتعلق بقنانة ميليشيوس فقد صدر قرار طابع الرمة والسمى إلى الصلح بين الطرفين، وهكذا أن يحافظ ميليشيوس على لقبه القديم، دون أن يمارس عمله في الكنيسة، ولكن كنيسة لأتباعه من رجال الدين أمر بعودتهم إلى عملهم في الكنيسة بعد قبول الأسقف أسكدار لهم (1).

ولكن رغم الإجماع والسياسة الموحدة التي ظهرت في مجمع نيقية، فإنه لم يضع الخلل النهاي للنشأة كل التأرجحها، فالرومية لم تتعني زعيمها، والإعظام الميليشيوس لم يربى باقتراح ذلك الصلح الساحر.

وقد أدرك الإمبراطور قسطنطين ذلك في الحال قسم إلى استجواب وحدة الكلمة عن طريق إصدار عنٍ عن أريوس، وأمر بإعادته إلى منصبه في الأسكوندرية. ولكن أسكدار أسقف الأسكوندرية رفض إجابة طلب الإمبراطور.

وبذلك بدأ خلاف عنيف بين كنيسة الأسكوندرية والقصر الإمبراطوري في القسطنطينية، وانقسم موقف مصر في هذا الخلاف بالطبع الأديان والسياسى في وقت واحد، وشروط النظر السياسي صانع في أنه بعد اقتراض الإمبراطورية الرومانية بعد قسطنطين إلى شرقية وغربية في القسطنطينية وروما، تتعين العلاقات بين الأسكوندرية وروما، وقد اكتسبت كنيسة الأسكوندرية أهمية عالية لا يشابهها في ذلك سوى كنيسة روما ذاتها.

وكان الشخصية أثنايسوس، الذي خلف أسكدار أسقفًا في سنة 338، تأثير كبير على نمو الكنيسة المصرية في هذه الفترة. فقد منح أثنايسوس من طول

Jones, Constantine, pp. 171-152

(1) هناك عرض تلمّج نيقية في كتاب 251
العمر وقوة الشخصية، وكذا المقت، ما مكنه من البيطرة على الكنيسة المصرية.

وما تجاوز نصف القرن من الزمان،

وفي هذه السنة طويلة واجه الأباطرة في القسطنطينية الواحدة، بعد الآخر.

وتحمل النفي مرة أخرى يعود فيها وشدة مراس جلت منه زعيمًا شعبيًا وليس مجرد أسقف للملكة.

وبدا الخلاف بين أتناسيوس وقسطنطين أول الأمر بسبب مسألة أربوس،

إذ لاقت أتناسيوس موقفًا شديداً بوقف سلالة، ويصبح على رفض أمر الإمبراطور

بإعادة أربوس إلى كنيسة الأسكندرية. وقد تكرر المحاولات بين الإمبراطور

بشكل ديني في مدينة صور سنة 335 لحاكم كنيسة أتناسيوس الذي كتب له تم

كلاً لببس على موقفه من أربوس والإمبراطور، وقامت بعضها ذات طابع سياسي

مثل استخدام القوة في معاملة أتباع ميلينيوس، وتدخل في تمديم إخبار القمع

للصري الذي كان يرسل إلى القسطنطينية كل عام، ثم تأبيده ثورة قامت ضد

الإمبراطور في مصر قادها شخص يدعى فايمينوس سنة 335. وقرر جمع

صور عزل أتناسيوس من منصبه، ويلحق الإمبراطور ذلك بدور نفيه من مصر.

ويذهب أتناسيوس إلى بلاد القالة أي إلى القسم الغربي من الإمبراطورية.

ولكن ما أن يتوافد الإمبراطور قسطنطين في عام 337 حتى يعود أتناسيوس

إلى الأسكندرية، ويقوم عودته أتباع أربوس وميلينيوس أشد القوامة، وتمكن

يتمكن من القضاء على محاوحتهم عن طريق إحضار جماعات من الرهبان زعم أن من

الراهب إلى الأسكندرية، ونجح في تولي مقاليد الكنيسة من جديد. ولكن الأمر

لا يستقيم له طويلًا، فإن الإمبراطور جديد في الشرق، قسطنطين الثاني يضيق

(1) أظهر عرضاً شخصية أتناسيوس في كتاب:

Hardy, Christian Egypt, pp 47–78.

32
لقد وقع إلى أنانسيوس آثم آخر وهو أنه بائع البزغ الذي مفتشه الإمبراطور للكنيسة لترويهم مجاناً بين المحتاجين. ويدعو أن هذا الاسم لم يكن خليلاً من بعض الصدقة، لأن أنانسيوس كتب مرسوماً بأنه وضع بعض البزغ على مستحقه مجاناً وأنه لم يبيع البزغ كله. على أي حال لم ينتظر أنانسيوس إلى أن يلقى البعض عليه بل فر إلى روما حيث كان يثق في مناصرة البزغ وإمبراطور الغرب له. وفلا ينتبقه أولوا الأمر في روما بالترحاب ويساعد إمبراطور الغرب على العودة إلى الإسكندرية، وينجح مساعيه في سنة 426. وبذلك ينتهي فترة تجربة أنانسيوس الثانية ويعود إلى الإسكندرية. ويبدأ أجندتها في تاريخ رياضه للكنيسة الإسكندرية التي تشعر بعشرة أعوام. وفي هذه الأعوام العشرين يعمل أنانسيوس على توطيد مركزه في مصر ومحيطه الأبريسي الذي كان قد استنثر لأمراء في البلاد في فترة نفها. وفي هذه الفترة تم تكريس الكنيسة الشرقية مرة كبيرة وتمتدت حدود مصر فأنشأت كنيسة في إثيوبيا فرعاً من كنيسة الإسكندرية.

وكان المسيحيون في هذه الأثناء منذ عصر الفرسان قد دموها كثيراً من المماليكية، أو جاهزون كأنفسهم. وكان ذلك في زمن السلطة الرومانية والأمراء أحيانا. ومن أشهر ما في هذا الجيل هو قصر الإمبراطور إعادة بناء مباني القديسون وتحويله إلى كنيسة الإسكندرية، وكان ذلك في أثناء هذه السنتين العشرين لثانيسوس، ويدعو أن أسقف الإسكندرية سجل الألف، ولم يغفل حتى يتم بناء القديسون، بل أقام الصلاة فيه قبل إتمام نظراً للاستعمال. ويدعو أن الإمبراطور لم يكن راضياً عن زيادة شؤون ثانيسوس، فاتبعت قرصة إقامة الصلاة في الكنيسة الجديدة دون إذن، فاعتر ذلك تدريجياً من أسقف الإسكندرية على إمتناعات الإمبراطور. وكان إمبراطور روما الذي يعتلى على ثانيسوس

253
قد توفي ذلك الوقت وأصبح قسطنطين إمبراطوراً مفرداً في الإمبراطورية بشمها الشرق الغربي، فقرر التخلص من أنطانيوس وأرسل قواه المسلحة لإسقاط القبض عليه في سنة 356، ولكنه تمكن من الفرار واختفى بما يشبه المجهول. وظل ظهراً متفاوتة يقترب بمثابة نفيه الثالث، ولكن في هذه المرة لم يترك مصر بل اختفى بين الربان الصوريين، متنقل بين الأديرة المختلفة التي كانت متشرئة في ذلك الوقت سواء في الصعيد أو في صحراء مصر الغربية. وقد حاول أنطانيوس أن يعود إلى كيسيته مرة ثانية في عهد الإمبراطور الجديد يوليوس (361-363) ولكنه فشل وأصدر الإمبراطور قراراً بتعيينه في الأسكلندية، فاضطر أنطانيوس إلى أن يخفي نفسه فيها. وفي عام 362 - 364 تولى العرش في القسطنطينية إمبراطور مؤيد ل أنطانيوس، فعنى عنه وأعاده إلى كرسيه في كيسيته الأسكلندية.

ورغم تغيير الإمبراطور في القسطنطينية وتولى فالنس الحاكم في Valens الحكم في الثاني العام (364-378) وكان مواليًا للحركة الأروسطية، إلا أن أنطانيوس تمكن بفضل شعبته الكبيرة بين المصريين عموماً من البقاء في أسقفيته حتى وفاته سنة 370.

بعد وفاة أنطانيوس خلفه أحد زملائه القدامى، ويدعى بطرس، ولكن الإمبراطور فالنس الذي كان متشابكًا للأروسطية أراد أن يفرز فرصة موت أنطانيوس ويعين أسقفًا أروسطياً، لذلك لم يعترف بطرس وعين ليسيوس ، وأقام في أسقفيته الأسكلندية بقوة السلاح حتى أن بطرس بُلد إلى Lucius النور إلى روما.

وتنقل أسقفيه لقيوس آخر محاولة أروسطية للسيطرة على كنيسة مصر، وقد تميزت أيده ببعض الأحداث ذات الأهمية التاريخية. فراح يتنقّل من أتباع
أنابيسوس ويسكن بمهمة خاصة بين رهبان الصحراء الغربية بالقرب من الأسكندرية. ولكن صاحب حركة اضطهاد الرهبان صدر قرارات من الإمبراطور تلقى ضوءًا على الحياة العامة في مصر في هذه الفترة. ذلك أن بعض الأثرياء الذين تقع عليهم مسؤولية تولى الوظائف العامة، انتهروا فورًا اقتحام حركة الرحمة وانضموا إلى صفوفها تلقيكن الحياة في المدينة علها بذلك يتبعون مسؤولية تولى الوظائف العامة التي كانت تكلفهم مبالغ كبيرة دون فائدة تذكر في تلك الأيام. وقد أمر هذا الاتجاه بالنظام الإداري في مصر إياضاً. فأصدر الإمبراطور قراراً يقضي بأنه يجب على الأثرياء ومن الموظفين الذين يهرون للدن بدعوى الانتقاب إلى صفوف الرهبان أن يعودوا ثانية أو أن يسلموا جميع ممتلكاتهم للدولة.

ولكن إجراءات الدولة لم تمنع أفراداً من كل الطبقات أن يتركوا مواطنهم ويلحقوا إلى الأدوار، مما أدى يؤثر على حركة التجنيد للجيش، فأصدر الإمبراطور إلى إصدار أوامر يتجنيد القادرين من الرهبان للخدمة في الجيش الروماني. وفجأ ذهب قوات عسكرية إلى الأدوار في الصحراء الغربية، فاعتقلوا من اعتقالها وناواهم من قانون، كما تفت الدولة عددًا من روؤسائهم، كل ذلك أدى إلى ثورة الأهالي والرهبان على الأسطف الأرموسي، حتى أنه اضطر إلى القرار إلى القسطنطينية؟ في حين يمكن بطرس الذي كان متفقًا في روما من العودة إلى الأسكندرية (في عام 375 أو 376).

بعد ذلك تولى الحكم في القسطنطينية الإمبراطور جديد هو نيكدوسس (378 - 395)، وأراد أن يعالج مشكلة الدينية في الإمبراطورية بطريقة تظهر بساطة تفكيره، وأنه لم يعرف مدى عن هذه الاعتقادات. فبدأ بأن أعلن ضرورة تبني عقيدة مجمع نيقية في كل السكان، ثم أكد ذلك الإعلان بأن عقد
جَمْعًا في القسطنطينية دون أن يشهد مثنون عن السكينية المصرية خطأ فن فيه خطوة جدودة نحو زيادة أهمية عاصمة من الناحية الدينية. فأعلن أن كنيسة القسطنطينية يجب أن يكون لها مكان الشرف التال للكنيسة روما لأن القسطنطينية كانت روما الجديدة. منذ ذلك أن الأسقفية تقدت مركزها ككنيسة بعد روما. ثم أصدر المجتمعي قرارًا آخر يبنى بأن تقتصر كل كنيسة على الإقليم الذي تقع فيه، وهذا يعني أيضًا أن تقتصر كنيسة الأسقفية على مصر بعد أن كان لها نشاط خارجي ملمع. هذه القرارات لم يكن لها دخل مباشر في مصر، ولكنه سيظهر بمثابة قلاب، والسبب في ذلك هو أن الإمبراطور الجديد شغل الكلاسيك جمًا وإدارة الإمبراطورية في أمر القضاء على الوثنية في أرجاء الإمبراطورية. وفي مصر تولى أسقف الأسقفية في ذلك الوقت وهو ثيوفليس مهمة تنفيذ هذه السياسة التي تزدهر بكل قوة وروحية. ولم يكن عبد السرايوم في الأسقفية من أشد معاقل الوثنية القديمة، وكثيرًا ما احتضن في الوثنية. لذلك استعان ثيوفليس بالسلطات العامة في المدينة ومحاجم المبعد ومن فيهما. ندر المبعد والكتيبة الكبيرة التي كانت ملحقة به. وفي أثناء هذه الحقبة فر كثير من رجال العلم والفلسفة الذين كانوا يشرعون على مدار الأسقفية، نظرًا لأنها كانت مركزًا للأفكار الوثنية. وبذلك تحول ثيوفليس إلى اضطهاد خصمه في أراضي من رهبان الصحراء الغربية مستخدمة في ذلك نفوذ الرومان أيضًا.

الاقتراب النهري بين الأسقفية والقسطنطينية:

في سنة 412 توفي ثيوفليس وخلفه الأسقف كيرلس الذي تعتبر أم من تولى أمر الكنيسة المصرية بعد أناسيوس. وبنبل على شخصية كيرلس طابه التطرف سواء في أعماله أو أفكاره، مع ميل إلى العنف. وقد بدأ ذلك واضحًا...
فيها حدث في أواخر من تجديده الاضطهاد اليهود في الإسكندرية بعد أن خمد نحوًا من ثلاثة قرون، وفي هذا الاضطهاد لم يعتمد على جنود الجامية العسكرية، بل اعتمد على المامة في المدينة والرهبان في الصغراء الغربية بالقرب من الإسكندرية. وبلغ من عنف هذه الأحداث أن اضطرب الأمة كل الاضطراب، وأخذ الفuguay يبهوش بيوبه الأروء ومتنكثهم، وعجز الوايل ورجال الجيش عن إخاء هذه الاضطهادات. لأن كيرلس بدأ يقوم بدور سياسي شبيه بدور أنتأسيوس وهو تولى زعامة الشعب المصري ضد الإمبراطور وتمثيله في مصر ومملكة الراف، وأعوانه.

وقد بلغ كيرلس التطرف حتى أنه ضاق بمدارس الفلسفة في الإسكندرية باعتبارها مراكز للفكر الوثني، ومن أبرز شخصيات الحياة الفكرية والأدبية في الإسكندرية في ذلك الوقت القيسوس المشهورة هيباليتا، التي كانت على جانب كبير من الم ולأغلال لما. وكان يدروها الشباب من المسيحيين والوثنيين على السواء، وكانت لها علاقات طويلة مع كثير من عكيلة القوم في الإسكندرية من أعضاء الأداب المختلطة. وقد وجده كيرلس اضطهاده ضد هذه السيدة العالية وهاجها الرهبان وقفها في سنة 415. بعد ذلك تدخل الإمبراطور وأرسل بعثة للتحقيق فكشف كيرلس عن هذه الأعمال.

على أنهم لم يتميز به كيرلس وعصره هو نشأة المراعي الذي بين الفلسطينية والأسكندرية، الذي يسعى إلى فتح الكنيسة المصرية عن الكنيسة الرومانية الشرقية، وبالتالي فما. فذ أن نقول نيوبيوس في سنة 381 حل كنيسة الفلسطينية بمثابة الكنيسة الرسولية، وهي الأولى للإمبراطورية الشرقية. كان معنى هذا أن أصبح أصق الفلسطينية بمثابة المتحد الرسول من وجهة نظر الفقيد الإمبراطوري. وقد حدث في ذلك الوقت أن نشأ خلاف جديد بين المسيحيين حول طبيعة المسيح من الناحتين الإلهية والبشرية. وكان من الطبيعي أن تقرر.

257
الكنيسة الرسمية في القسطنطينية موقعة من هذه الشاكل، وفعالاً أصدر نسطورأسقف القسطنطينية رأيه في الأمر مندوباً بشريعة المسيح إلى جانب ألوهيته.

وفي الحال تمسك السكان المحليون إلى نيقين: فريق تؤيد الدعوة النسطورية أو اللوقانية كما أصبحت تدعى فيما بعد نظراً لأنها تعبر عن رأى الإمبراطور أباه، وفريق يعارضها أشد الغضب، وقد تمثل الفريق المحارب في مصر وسوريا وارمينيا، وكانا يدعوان إلى اعتبار المسيح ذات طبيعة إلهية واحدة ولذا أطلق عليهم اسم أصحاب الطبيعة الواحدة ( monophysites ) وقد أطلق على السيجني في سوريا من أصحاب هذاذهب اسم البيلانية نسبة إلى زعيمهم بعقوب. ولم يكن موقف كل من سوريا ومصر دينياً مجردًا (وكأنها على صلة وثيقة في ذلك الوقت)، بل كانت تكن وراء موقفهما دوافع قومية ورغبة ملحية في ممارسة الإمبراطور وكل ما يصدر عن السلطات الحاكمة، وكانا يجدون في الخلافات الذهبية سبيلًا لإظهار ذلك كله.

ولذلك ما أن أعلن نسطور عقيدته في القسطنطينية حتى راح كيرلس في الأسکندريا يهاجمها وينذها، و يعمل جاهداً على بلوغة الفكر المعارض على أساس من الفقه الديني ليبرع لها في مصر والخارج من مصر. حتى أنه يُبيح في مجع أعوسم سنة ٤٦١ أن يفرض رأيه على الأعضاء ويصدر حكماً ضد نسطور نفسه.

وقد هذا بقى صيغة متميزة بمكانة عالية حتى نهاية حياته سنة ٤٤٤، وخلعه الأسقف ديوسقورس (٤٤٤-٤٥١)، وانتقل الصراع ضد القسطنطينية، إذ تحدث الخلاف مرة ثانية. ذلك أن أسقف القسطنطينية الجديد (فلاكينوس) ببعثة الفكر النسطورية من جديد، ودعا لمثابة إثبات الطبيعة للمسيح. وقد استطاع ديوسقورس أن ينزع لنفسه انتصارًا سريعاً في مجع أعوسم سنة ٤٤٩، ولكن يبدو أن انتصاره تم بأساليب غير

٤٥٨
مشروعة مثل الرشوة والتهديد، حتى أطلق على هذا المجمع اسم "مجمع اللصوص".

وفي العام التالي توفي الإمبراطور ثيودوزيوس الثاني وخلفه ماركياوس الذي قرر إلغاء قرارات مجمع أفسوس الأخير وبدأ يعد أكبر مجمع قديم في خلقه سنة 451. وعن هذا المجمع خرجت عقيدة دينية جديدة تؤكد أن المسيح طبيعتين، غير منفصلتين، ولا متناقضتين، ولا منفصلتين (1).

وقد حوكم ديوستروس أمام هذا المجمع، وصدر الحكم برزمه من منصبه لا بسبب إخراجه من العقيدة التي أقرها المجمع ولكن بسبب سوء سلفه. وبعد ذلك صدر أمر الإمبراطور بنفه إلى جايجرا بآسيا الصغرى (Gangra)، حيث توفي في سنة 454.

ولكن قرارات مؤتمر خلقهودون ونفي ديوستروس لم تنه الخلاف ولم تنجح في إجبار الوحدة الدينية للإمبراطورية؛ وحين حل الإمبراطور تطبيق هذه القرارات بالقوة، أدى الأمر إلى اضطرابات عنيفة راح ضحيتها كثير من الأفراد وخاصة في مصر وسوريا. حيث بقيت دعوة الطبيعة الواحدة قوية، بل أخذت كل من سوريا ومصر تنزعن إلى الانفصال عن القسطلانية وكان تاريخ الكنيسة المصرية بعد ذلك سلسلة من النزاعات بشأن اختيار الأسقف، فإن يتنبئ المصريون لا يعينوه الإمبراطور، ومن يعينه الإمبراطور لا يقبله المصريون. إلى أن تم الاتفاق أخيرا سنة 482 على أن يختار المصريون أسقفهم دون تدخل الإمبراطور حتى لم يكن أن يتخذ هذا التاريخ بداية انفصال.

Hardy, Christian Egypt, p. 112

(1) أطهر من البازسة ومصدرها: "وقد كتب الذكور السيد الباز العربي: مصر البيزنطية من 737 إلى 739."
كنيسة الإسكندرية عن القسطنطينية، رغم أن بعض الأباطرة سيعاولون التدخل
في شؤون الكنيسة المصرية بعد ذلك..

هذه الانتقادات الذهبية — كما برأ من بينا — كانت دوافعها الحقيقية
عاصمة قرية ورغبة في الانفصال، لأن الاختلافات لم يكن جوهرية على النحو
الذي قد يبدو لأول وهلة. فمنذ تحليل هذه الآراء للتمارض كا صاغها زعماً ماه
من أمثال كيرلس وسيفيروس السورى وكا في عقيدة خليفون، تجمد جميع
بتروون ببشرية السيب وألوهتهما، ولكن فريقًا منهم (مثل المصريين
والسوريين) كانوا يرون أن الاندمج كان كاملاً بحيث لا يوجز تصور التميز
بينهما، أما الفريق الآخر (خلافون) فكان يرى ضرورة تصور الطلبين
لإدراك معنى التضحية التي قام بها السيب. فالبدأ البشري في النقديين واجه،
ولكن الاختلاف حول استخدام لفظ «الطلبين» في نص النقدي.

ولكن هذا الاختلاف حول الألفاظ الدينية في ذلك الوقت كانت له
عواقب وخيمة. فقد أقسم الناس في كل مكان إلى فرق ومذاهب كبيرة،
خاصة وأن بعض هذًا المذاهب الكبرى أقسم على نفسه في أحزاب مختلفة كا
لليبيانية في سوريا ومصر. وبذلك فقدت الإمبراطورية وحدها، فإن النفن
ومن الاضطلاع أفقدت الإمبراطورية الكثير من شبابها وأضمرت بالليبيانية
الاقتصادية كل الضرر، كما كان النظام الإداري كما وضعه دقلادنارس من تفتيت
الإدارة وفصل السلطة للدينية عن السلطة العسكرية في الولايات آثار سيئة في
إضعاف الجهاز الإداري. كل ذلك أدى إلى سوء الأخوال عوامل الإمبراطورية
في النصف الثاني من القرن الخامس وبداية القرن السادس مما شجع على توالي
المجات الأجنبية على الحدود.

وفي مصر نشطت القبائل النوبية من جديد، وفي الشرق انتهى الفرس
فرصة سوء الأحوال في الإمبراطورية وأخذوا يتقدمون غرباً حتى هددوا حدود مصر الشرقية. وبدأت الإمبراطورية توشك أن تتصدع بسبب الانقسامات الداخلية والمجاع الخارجية.

جستنيان (527-565)

في هذه الظروف تولى الحكم في القسطلتينية الإمبراطور جستنيان الأول الذي يعتبر آخر الأباطرة العظام في الإمبراطورية الرومانية في عصرها التأخير. فقد كان واسع النظرة، ذا مواهب فذة مكنته من الإصلاح. وكانت في الإصلاح هو إعادة الوحدة في الإمبراطورية عن طريق تحقيق الوحدة الدينية، وإعادة تنظيم الإدارة، وتقوية الجماعة لتأمين الحدود. تم العمل على إزدهار الحياة الاقتصادية وتنشيط الصناعة والتجارة من جديد. وقد تمكن من تحقيق كثير مما سعى إليه من الإصلاح باستثناء الوحدة الدينية. ومن السير حقاً أن توقع له النجاح في تطبيق سياسته الدينية لسببين: السبب الأول يرجع إلى عم الانقسامات الدينية رغم جهود الكبيرة في تعليم عقيدة هفرديون في جميع أنحاء الإمبراطورية. والسبب الثاني هو وجود الانقسامات الدينية داخل أسرة الإمبراطور ذاتها؛ ذلك أن زوجته الإمبراطورة تيودور، التي ابتذلت حياتها راقصة، وأصبحت فيها بعد زوجة جستنيان وإمبراطورة الدولة ومن أمر نساء التاريخ، كانت تدين بالذهب اليموي إلى مذهب الطبيعة الوحدة، فإنها كان الإمبراطور لم يتمكن من تحقيق الوحدة الدينية داخل أسرته فسكت توقعه تحقيقها في الإمبراطورية.

ومع ذلك فقد تدفق النظر في سياسة جستنيان الدينية نجدها أكثر حرضاً

(11) أمِّم دراسة حديثة لمسر جستنيان هي


261
على تحقيق الوحدة السياسية من الوحدة الدينية. فكان يهدف إلى أن يكون رؤساء الكنيسة الأساسية في الإمبراطورية من نفس النسبة الإمبراطوري. وهو الملازم (أي مذهب خليفون) وأن يكون هؤلاء الأساقفة كندوين أو ممثلين دينيين للإمبراطور شخصيا في الولايات، حتى لا يتمكن أسقف محلي من معارضة الإمبراطور كما حدث من قبل. وهو لم يبدأ بعدها إذا كان سائر القساوسة في داخل الولاية يبكون مذهباً ما داموا لا يطالعون إلى رياضة الكنيسة في ولايتيهم. ويوضح تنفيذ هذه السياسة في مصر، إذ لم يترك المصريين حرية اختيار أسقف الأساقفة بل أمر على أن يعين هو الأسقف. ونظراً لقاومة الصينين لهذا الاتجاه، وصعوبة المثور على أسقف مصر يقبل هذا الوضع. وإذا وجد في السير إشادة برسوم التمثيل الدينية دون ثورة الصينيين عليه قبل أن يرسم، فكان الصينيين يختارون من بشاة ويجري له المراسم الدينية في الخارج، ثم يرسله إلى الأساقفة في حراسة قوة عسكرية تفرضه على الكنيسة، فرضاً، وبذلك فقط تمكين الصينيين من إقامة أساقفة مسكونيين في الأساقفة، ولكن ذلك لم يتعدد أشخاص الأساقفة وعدداً من المحيطين بهم، أما سائر الصينيين فقد بقوا على مذهبهم يؤمنون بالطبيعة الواحدة، ولكن دون أن يكون لهم الصدارة التي تتموا بها زمن كيرلس وديوسفورس. وزداد موقف الأساقفة المسلمين صعوبة أنهم حينا حاروا فرض مذهبهم في مصراً، والإمبراطورية تبودرو تحمى المصريين الذين كانت تشاركهم مذهبهم.

أما في المجالات الأخرى كان الصينيين أكثر توفيقاً، فقد أدخل على الإدارة بعض الإصلاحات الأساسية ستجلبت عنها في فصل آخر، ولكن يكفي أن نذكر هنا أنه أعاد توجيد السلاطين الدينية والعسكرية في شخص الولاية، بينما بقي على تقسم مصر إلى عدة ولايات.
مع ذلك فتكون السلطتين الدينية والعسكرية ساعد على استتباب الأمن في البلاد وتأمين الحدود في الوقت نفسه. وفي أعقاب استطاع الصرب أن يبدوا نفوذهم الديني جنوباً فدخلت القبائل النوبية في المسيحية على الذهب النقدي، رغم جهود الأسقف في الأسكندرية أن يكون للمذهب اللصقي السبق. ولكن الإمبراطور السياسي لم يعبي بانتشار أي المذهب في هذه البقاع، ولم يكن يفعل أنها كانت خاضعة لتأثير مسيحي من صعيد مصر من قبل، ولكنها كان سيداً بتحويل هذه القبائل إلى المسيحية، لأنه اعتقد أن ذلك يعني امتداذا للفوز والتأمل في حدود مصر الجنوبية أيضًا.

نهاية مصر البيزنطية وفتح العرب:

ولكن خلفاً جستيكان لم يكونوا في مثل قدرته، ولذلك لم يكتنوا من الاستمرار في الإصلاح، وسرعان ما ظهرت العيوب التي حاول جستيكان جاهداً أن يصلحها، وعادت الفوضى إلى الإدارة والعيش مكً. فتجددت الهجمات الأجنبية على الحدود، وإذا بالنوبيين يعودون تهددهم وتزعم لحدود مصر الجنوبية؛ ولم يكن لدخولهم في المسيحية أي أمر. وفي الوقت نفسه عاد الخلاف المذهب من مصر إلى سابق عهده، من مقاومة الصرب إلى الأفريقيين في الأسكندرية. ولذلك حين أعلن هرقل شعار الثورة ضد الإمبراطور، وجدنا الصرب ينتظرون إلى جانبه، ليس عن رغبة صادقة في مناصرته ولكن كرها في الإمبراطور الحاكم. حتى إذا أصبح هرقل نفسه إمبراطوراً، ضاقت من جديد بأعماله الملكيين، رغم محاولته الوصول إلى سبيل تفاهم مع الأقباط المصريين.

ولكن حدث في ذلك الوقت أنه تحدثت الدولة الفارسية حدود الإمبراطورية الشرقية، وأنها نجحت في التوغل إلى داخل الإمبراطورية ذاتها فاستولت على

٣٦٢
سوريا وفلسطين لمصر في عام 166. ولكن امتداد النفوذ الفارسي على هذا النحو لم يدم سوى عشرة أعوام، تمكن بعدها هرقل من إعادة هذه الولايات إلى حظيرة الإمبراطورية من جديد. ولم يكن استردادها بالأمر السيئ لما عرفته بفترة الاحتلال الفارسي من النزوة والعنف. وعاد هرقل جبهته في التنازل مع الأقتاب الصرب على عقيدة دينية واحدة، على أساس إدخال فكرته جديدة وهي بدعه "الإيادة الواحدة". ولكن الصرب لم يكونوا مستمدين للتقلاب بجمال. ففتم هرقل أسقف الأسكدريدة الملكاني قورش العروف باسم القوقس ليكون حاكماً لمصر أيضًا. وكان القوقس هذا مروفاً بقوته وكرامته لأصحاب الطبيعة الواحدة، ومنع الإمبراطور سلطة مطلقة لتحقيق سياسته في مصر. فأطلق على الصرب حملة من الاضطهاد العنيف مما زاد كراهية الصرب ونفورهم من الحكم الروماني.

وهنا نظهر على مسرح الأحداث العالمية دولة شرقية جديدة هي الدولة العربية، خرجت من قلب الجزيرة العربية تحمل معها دينًا جديداً هو الإسلام. وبعد أن أطمأنت هذه الدولة إلى سيادتها في الجزيرة العربية أولاً، أخذت تتطلع إلى خارج حدودها، فوجدت إمبراطوريتين متنازعتين هما الإمبراطورية الفارسية في الشرق والإمبراطورية الرومانية أو البيزنطية في الغرب. وعند أول محاولة لضبط الدولة العربية الجديدة نفوذها في الخارج انتهت الإمبراطوريان مما. وكان سقوط مصر في يد العرب على يد عمرو بن العاص سنة 640.
الفصل الثاني

معالم النظام اكشرة في مصر البيزنطية

(1) النظام الإداري

قد سبق أن تحدثنا في هذا الباب عن آثار الاضطرابات والانقسامات السياسية والعسكرية التي قطعت أوصال الإمبراطورية الرومانية خلال الجزء الأكبر من القرن الثالث. وكان من نتائج ذلك أن أصبحت الإدارة بفعل شديد بحيث أصبحت عاجزة عن القيام بوظيفتها على نحو مرضي، وليس هناك حاجة إلى إثبات مدى الضرر والخطر الذي تعرّض له إمبراطورية عالمية بدون إدارة قوية. ولعلنا لا نبالغ في شيء إذا قلنا إن أشد ما كانت الإمبراطورية في حاجة إليه هو رجل يصلاح إدارتها، وأن دقلداينوس كان ذلك الرجل، فإذا لم يكن دقلداينوس مهاب عسكري خُلِّد اسمه في تاريخ روما الحرية، فقد كان له من مهاب الإدارة والتنظيم ما مكنه من القيام بإصلاحات في نظام الإدارة والحكم واقتصاد سادت من بعده مدة ثلاثة قرون تقريباً، وأصبح عهد يمثل نقطة تحول في التاريخ القديم بأسره بدخول الإمبراطورية الرومانية في مرحلة التأخرة وأكبر مهد لقيام مصر البيزنطية في الشرق.

وكان سابق أن رأينا في وصف نظامه الوصفي كان مبادئه في الإصلاح تلخص في التبسيط والتوحيد، تسهيل النظام وتوجيهها في وظائف الإمبراطورية المختلفة. وفي سبيل تحقيق ذلك قرر العمل ببدأ الادارية في إدارة الإمبراطورية، حتى يحقق من الإدارة المركزية في العاصمة من أعباء الروتين الإداري، أولاعن
 الطريق إشارة غيره معه في الإدارة، م عن طريق إنشاء وحدة إدارية كبيرة، تمثل حلقة متوازية بين الإدارة المركزية وإدارة الولاية. هذه الحلقة المتوازنة أطلق عليها نظام دوقية (diocese) وقسمت الإمبراطورية إلى أثنا عشر دوقية هي بريطانيا والغالية (وتتطلب شمال فرنسا وأرض الرجل وهولنديا) وفينينسيس (جنوب فرنسا) وأسبانيا (بما فيها البرتغال ومرا كيش) وإيطاليا (ومعها صقلية وسردينيا وكورسيكا) وإفريقيا (الجزائر وتونس وطرابلس) وبارما وموسكا وطرانا (ومثل كل منها غرب ووسط وشرق البلقان) وأسيا ورومانيا (وتتطلب جنوب غرب وشمال شرق آسيا الصغرى) ثم الشرق (وتتطلب كوليكيا وسوريا وفلسطين ومصر وقورنيا) وبذلك قضى نهاية على تنظيم الإمبراطور أغسطس في تقسيم الولايات بين الإمبراطور والسكنائي على هذا الأساس وقفت مصر في دوقية الشرق، ولكن إصلاح دقلياً لم يتوقف عند هذا الحد، بل رأى أن يقسم الولايات الكبيرة إلى ولايات أصغر، وذلك علماً مما بدأ اللامركزية. فقسمت الولايات الكبيرة مثل إيطاليا وأسبانيا والغالية ومصر إلى ثلث أو أربع أو خمس ولايات صغيرة. فقصر التي كانت طوال تاريخها القديم وحدها سياسياً وإدارية واحدة قسمت إلى ثلاث ولايات أساسية (وليام مصر الجرينيتاريا (Agypus Jovia) وألسنا، غرب السلسة بالإسكندرية (وسميت كذلك لأنها كانت الولاية الأولى في مصر ولأن

(1) الدراسات الأساسية لهذا علم مصر الإدارية في العصر البيزنطي هي:

M. Gelzer. Studien Zur byzantinischen Verwaltung Aegyptens (1909);

G. Rouilliard, L'Administration Civile de L'Egype Byzantine (1928);


والدكتور السيد الباز العربي: مصر البيزنطية س 81 – 90 و 177 – 172.
ذكلبانوس اتخذ نفسه لقب جوفيروس (Aegyptus Herculia) وشملت مصر وذك الحرمية، وثمة مصر في إدارتها العديدة في الأزمنة الأخيرة.

وقد تم تجريد هذا التقسيم في عام 297 بعد أن انتشر ذكلبانوس على أن يكون من أصول اتلبية. وقد تم تأسيس هذه الإمبراطورية في الأسكندرية، ثم عدلت أسماء الولايات الثلاثة إلى مصر (Aegyptus) في غرب الدلتا، وأوغسطنيكا Augustamnica لشمال مصر.

وهكذا انتشرت مصر إلى ولايات ثلاثة منفصلة، ومع ذلك فإن الفصل النافذ لم يتم تحقيقه، إذ منح حاكم الأوروبية الأولى وهي مصر (الجودتيرية) الذي كان مقره الأسكندرية سلطاناً رئيسياً من حكام الولايات الأخرى، ففعل ذلك الحاكم الأول لقب Præfectus Aegypti، بينها أطلق على الحاكم الآخرين لقب Praeses، ولكنهم جميعاً كانوا يدعون المشرب على ذكرية الشرق الذي حمل لقب كونت (Comes).

ولكن طرأ على نظام أذك reco التغيير في آخر القرن الرابع، إذ أصبحت مصر تنقل في سنة 382 دوقية مستقلة وألفت بها أذك، وبذلك استمرت وحدتها الإدارية من جديد، وأصبح يحكمها حاكم عام يسمى Præfectus Augustalis. وعقب ذلك فصلت مصر различاً (هتوفانيا) إدارياً، Arcadia (ففي سنة 386).

وبعد ذلك أعيد تقسيم كل من طيبة وأوغسطنيكا ومصر إلى قسمين:

ملاحظة أخرى بشأن تقسيم السلطة في الولاية حسب نظام ذكلبانوس،

267
هي فصل السلطة المدنية عن السلطة العسكرية. فكمام الولايات الثلاثة الجديدة حكام مدنيون ليس لهم سلطان عسكري كما كان الأمر في النظام الذي وضمه الإمبراطور أغسطس قديماً، أما جيش الحالية العسكرية الرومانية في مصر بأسرها فقد وضع له قائد مستقل.

وقد تبع هذا الإصلاح الأساسي تعديل آخر يتعلق بالأقسام الإدارية المحلية في الربيع. ذلك أن تعميم نظام الحكم المحلي في مطلع القرن الثالث على بد سيميون سيفيروس قد استكلل نحوه في عصر دقلدايوس وخلفائه، إذ حولت النومات الإدارية إلى مدن مستقلة، ولم يعد هناك في المدن الجديدة سوى إدارة محلية تحت ملّاح العدل الزدوج القديم، الذي كان يقوم على وجود موظفين يمثلون السلطة المركزية وموظفون يمثلون الحكم المحلي. وгадاً اختفى منصب الاستراتيجوس الذي كان يحكم النوموس طيلة العصور البيزنطية والرومانية.

تم أنجب ذلك بحلل أقسام النوموس القديمة وهي التوبارخيا (Poparchia)، وقسمت النومات إلى عدد من الوحدات الجديدة أطلق عليها اسم باجوس (Praeposities) ولفظ باجوس (Pagus) هو الاستصلاح اللاتيني التقليدي لأقسام الإقليم الزراعي للمدينة (Chora). وقاد هذا استقلل نظام الحكم المحلي تطبيقه في مصر وأصبحت الولايات الثلاثة تنقسم إلى عدد من المدن (Poleis) لكل مدينة أرض زراعية تقيبها (Chora) وقسمت هذه الأراض الزراعية إلى عدد الوحدات للسماة باجوس.

ما من شك في أن الهدف الحقيقي من تدريع نظام الحكم المحلي ليس توطيد الحرية السياسية على أساس الحكم المحلي الحق، ولكن أدرك دقلدايوس أن النظام القديم الزدوج قد ثبت فشله وعجزه، وخاصة بعد أزمات القرن الثالث.
التنافشة التي تركت الحكومة المركزية مسؤولية السلطة. ولذلك سعى في إصلاحه الجديد إلى إقامة عبء الإدارة المحلية باكتماله على كاهلة الأهل المتماثلين في هيئات الحكم المحلي. ولعل هذا أنه في ظل نظام الحكم المحلي الكامل سوف يزداد مجال للحنم و万户ها إقبالا على تحمل المسؤوليات المفتوحة بفكرية التمثيل بالاستقلال.

وفي سبيل صبغ التعديلات الإدارية بصورة جديدة تماما واستجابة تطورات عامة أخرى تمت في القرن الرابع، أدخلت تعديلات في الوظائف الدورية القديمة فأختقت معظمها وحلت محلها وظائف جديدة. فإن ذلك مناصب الكهنة والإشراف على الجناحيات، اختقت وحل محلها الكهنة ورجالها، كما أن منصب أ كجيسيس اختقت تدريجيا. أما المناصب Euthenarches والشرف للمقنين exegetes الأساسية الجديدة فين ثلاثة:

أولا: الشرف على المدينة (Logistes) أو Curater Civitatis، الذي أصبح خلال القرن الرابع أحد موظفي المدينة الناشئين ينتخبهم مجلس المدينة. وأصبح في الواقع بمثابة رئيس للدولة، له سلطات متعددة تشمل بعض اختصاصات الإستراتيجية القديمة والبعض المبتدئين الآخرين أيضا. وأصبح هو ومعانوه الإداريون مسؤولين عن أعمال مختلفة، مثل ميزانية المدينة والإشراف على نفقات المال والتجار، وتقدير الضرائب، والإشراف على الأمن وتموين المدينة.

ثانيا: حاكم المدينة أو العامة (ekdikos) أو defender civitatis or plebis، وكان واجبه الأساسي حماية دافعي الضرائب من جامعي الضريبة. وكان له سلطة اعتقال أي شخص أو وضعه تحت الواقية وتحديد إقامته في المدينة، إذا كان متهما بإضرار شخص آخر.

ثالثا: الموظف المالي الذي توّلى أمور وظيفة بالنسبة للحكومة exactor 269
المركزية وهي جمع الضرائب. ولكن يبدو أن هذا الوظيف كان قاسراً على مدن الريف في مصر، أما في الأسكندرية فقد وجد عامل صالح لفظه "vindex". يبدو أن هذه الوظيفة أنشئت في القرن الخامس فقط.

وبقيت بذلك.

أما عن المجالس التنفخة (boule)، فقد استمرت تحمل مسؤوليات الإدارة، ولكن فقدت كل مهاتر الحكم المحلي. إذ أصبح أعضاء هذه المجالس يكونون

منذ القرن الرابع طبقة وراثية، هي الطبقة الثرية في كل مدينة.

هذا هو نظام الإدارة الذي ساد مصر في القرنين الرابع والخامس والثالث الأول من القرن السادس، حتى أصدر جستيان قانونه الثالث عشر للثمانية سنة 538. وليس هذا مجال دراسة هذا القانون دراسة تفصيلية، وإنما

لاحظ أن جستيان لم يعد يحكم بالنظام المدني، ولا حتى في الظاهر، وإنما سعي إلى تقسيم الإدارة مباشرة بكل أساس. وأهم تمثيل قام به جستيان هو تقسيم

دوقية مصر إلى أقسامها الأربعة القديمة وأضاف إليها ولاية ليبيا. فأصبحت مصر تقسم إلى خمس ولايات. ولكن آخر تمثيل أدخله جستيان على نظام

دوقية مصر هو توحيد السلطة المدني والعسكرية في يد حاكم كل ولاية وله

كان يهدف من وراء هذا التمثيل تقسيم سلطة الحكم على ولايته، ولكن الذي

حدث هو أنه زاد من تقسيم عرى الدولة إدارياً وعسكرياً مما، لأن الإدارة

كانت رغم محاولة كل إصلاح - أضاف من أن تتغلب على ظروف البلاد

الاقتصادية والاجتماعية، فأعضاء المجالس التشريعية كانوا قد أصبحوا مجرد

جامع ضرائب، كما أن تقسيم البلاد زاد من سلطان كبار الملوك الذين سيطروا

على أقاليمهم سيطرة ثابتة في القرن السادس كما بيننا عند الحديث عن نظام

__________________________
Evagrius, Hist. Eccl. III. 42; Justinian, Edict, XIII. 1. 13

٧٧٠
الأراضى. وهذا فإن توحيد السلطة المدنية والعسكرية في أبى الحكام المحليين لم يأت بالنتيجة المرجوة، وكثيراً ما نشأت النافذات الصغيرة بين هؤلاء الحكام علماً بأن قوامهم العسكري لم يكن قادر في معظم الأحيان سوى القيام بأعمال البوليس، أو قد فتح فتحة صغيرة محلية. ولكنها كانت عاجزة كل العجز عن مواجهة أي خطر حقيقي من الخارج، وقد انتهى ذلك تمامًا في القرن السابع، أمام الفتح العربي، فسقطت البلاد دون مقاومة تذكر.

كان من نتاج تقسيم البلاد وضعف الإدارة المركزية أن زاد شأن الكنيسة، حتى ليكن أن يقال أنها كانت العامل الأساسي الباق من وحدة الدولة. ويجلي ازدياد نفوذ الكنيسة في ذلك الوقت من أنها اضطاعت بكثير من أعمال الدولة، وخُرج مثلًا على ذلك سيرة يوحنا بطريك الأسكندرية في مطلع القرن السابع، إذ كانت الكنيسة يتميزون بمغومن الدين وفوق الأزمات الاقتصادية، فتستورد المحم من الخارج وتوزع بين الناس. كما كان لها مستشفيات للعلاج المرضي ويوث لإيواء الفقراء واللاجئين. كل ذلك يثبت اضطراب الإدارة وضعف الحكومة المركزية ضعفًا شديداً جعلها عاجزة عن تحمل أعباها، ولذلك قام بها كل من الكنيسة وكبار الملاك.

271
أولا نظام الأرض:

بالرغم من أن العالم الأساسي لنظام الأرض في مصر البيزنطية واضحة بصورة عامة، إلا أن معلوماتنا عن بعض مراحل تطوره لا زالت قليلة أو غير موجودة. والسبب في ذلك أن مصادرنا عن هذه الفترة قد عرضا بعض التضاريس، فالوثائق البردية تعتبر النسخة الأقل كثيراً من وثائق الفترة السابقة، وإلى جانب قليلها فهي غير متصلة زمنياً، وأكبر مثال على ذلك أنه لا تكاد توجد لدينا وثائق بردية ذات قيمة اقتصادية من القرن الخاص، إلى جانب أوراق البدري وصلت إليها مجموعة كبيرة من قوانين هذا العصر، وهي المعروفة باسم المجموعة القانونية لسيروسوس والمجموعة القانونية لمستاني. وبعض قوانين هاتين المجموعتين تمدنا بالجانب التشريحي من أعمال الدولة فها يتجلد بنظام الأرض، إلا أنها لا تطابن أيضاً الصورة الكاملة ولا تملأ جميع الفجوات التي تركتها الوثائق البردية. وأخيراً يجدنا نوع جديد من المصادر وهو الكتبات الدينية التي تتداول سير آباء الكنيسة الأول والرهبان. ورغم أن الظروف الاقتصادية هي أبعد شيء عن طبيعة هذه الكتبات، إلا أن الدارس لها يجد فيها إشارات متفرقة تلقى ضوءاً على حياة مصر الاقتصادية في ذلك العصر.

(1) عن نظام الأرض في مصر البيزنطية أنظر:

Johnson—West, Byzantine, Egypt, Economic Studies, 19 ff.;
أما عن نظام الأراضي فيمكننا أن نتخذ عام 297 نقطة الانتهاء، حين حضر دقلية وس إلى مصر للقضاء على قتلة أخليوس، وقام بعدد من الإصلاحات والتشريعات كان الغرض الأساسي منها هو توحيد النظام في مصر مع سائر أقطار الإمبراطورية، وفيا يتعلق بالضرائب الزراعية، نعرف أنه فرض ضريبة موحدة في جميع أنحاء البلاد على أساس مساحة الأرض ونوع المحصول (1).، وأنهى جميع الضرائب السابقة التي كانت معقدة أشد التعقيد، فكانت تختلف من مكان إلى مكان، وتختلف أيضًا حسب الأشخاص، فهناك من ملاك الأراضي من تتمتع بإعفاء كامل من الضرائب أو من بعضها، ولكن عدا النظام الضرائي لم نعرف أنه أدخل أي تدخل على نظام الأراضي، فأقسام الأرض الملوثة في مصر الرومانية استمرت بعد دقلية وس خلال الثلاث الأول من القرن الرابع على الأقل، ولكن نلاحظ بعد ذلك في الفترة بين 323-350 أن قسماً رئيسياً من الأقسام السابقة وهو أرض الدولة بأنواعها — Ousiaké، demosia، basiliké — يتغير تماماً من الوثائق المصرية، ولا يعد إلى الظهور ثانية؛ ومن المحتل أنها ألبنت زمن الإمبراطور قسطنطين أو بعده بقليل (2)، والمتبقي للحياة الزراعية في مصر الرومانية لا يجب لهذه الظاهرة الجديدة في القرن الرابع، فقد لا نلاحظ من قبل الموت الملكية الخاصة في الأرض بصورة مضطردة على مدى القرن الثلاثة السابقة ومنتصف القرن الثالث نجد أن أرض الدولة (basiliké) قد بدأت تنتقل إلى أيدي الأفراد (3). وقد استمر هذا الاجتهاد بصورة أقوى في أثناء القرن الرابع، أي


Sammelbuch, IV, 7474, Fayum (254 A.D.); أطر أطر P. Flor. 50, Hermopolis (268 A. D.)

٧٧٣
في الوقت الذي ازداد فيه قطاع الملكية الخاصة عموماً والملكيات الكبيرة التي أبدأت في القرن الثالث بصفة خاصة، حتى ليمكن أن يقال أنه عندما كانت الأرض العامة (basilikē) كانت قد تضاءلت جداً بسبب بيعها للأفراد أو منحها للسكنائي السيسية الجديدة.

فالطابع العام لتطور نظام الأرض في مصر في القرن الرابع يشير إلى زيادة قطاع الملكية الخاصة في الأرض على حساب قطاع الملكية العامة التي تختفي تمامًا في منتصف القرن.

ومن الطريقة أن نوضح هذه الصورة عن طريق الإشارة إلى بعض قوامس الأرض في مصر في القرن الرابع (1). بإحدى وثائق القلمونية البردية من القرن الأول من القرن (2) تبين أن مساحة الأرض العامة (basilikē) في قرية شيازليا (بطن هريت حاسناً) وحدها لم تمتلك لسوء الخط سجلات أخرى لمسح الأرض في هذه القرية، ولذلك ننظر إلى البحث في السجلات التي وصلتنا من أراضٍ أخرى في مصر. فهناك وثيقة من مدينة هرموبوليس (الائمونين) تعود إلى القرن الرابع (3) لا تظهر فيها أرض التاج (basilikē) ولكن تذكر الأرض العامة (demosia) فقط. وفي هذا السجل نلاحظ أن مساحة الأرض الخاصة تبلغ 295 أرورة والأرض العامة 1093 (أي ما يعادل نسبة 3:1).

Jones, Census Records of the later Roman Empire, (1) أثر.
J. R. S., 43 (1953) 48 ff.
P. Princ, 134 (322 A. D. ?) (2)
P. Flor. 71. (3)
وفي وثيقة ثالثة (1)، من المحتمل أنها من المدينة نفسها وحوالي تاريخ الوثيقة السابقة أو بعد بقليل، تؤكد النتيجة ذاتها؛ ويمكن تلخيص المعلومات الأساسية التي تتضمنها في؛

- مساحة الأرض الكبيرة 16439 أورا
- مساحة الأرض الخاصة 25757
- مساحة الأرض العامة 4862
- مساحة أرض الخدائق 444
- مساحة أرض خاصة (أخرى) 43

يتضح من هذه الإحصائية أن مساحة الأرض العامة كانت في إنكسايش مستمر بالنسبة للأرض الخاصة، فهي في هذه الحالة تبلغ 37739 أورا بينما بلغت أرض الملكية الخاصة 655 أورا (أي ما يعادل 4:5 تقريبا).

يتضح من هذا العرض أن الملكية الخاصة زادت كثيراً في أثناء القرن الرابع؛ وما من شك أن الملكية الكبيرة كانت الطابع المميز لهذه الزادة (2). ولأسوء الحظ أنها لا تستطيع تبع هذا التطور في القرن الخامس الذي يكون في مرحلة مظلمة في معارك اتنا عن مصر البيزنطية. ولكن كل الأدلة الموجودة تشير إلى أن الاتجاه الذي لا أخذه في القرن الرابع استمر أيضاً في القرن الخامس. ولإجابات ذلك يجب أن نشير إلى ظاهرة خطيرة صاحبت نمو الملكيات الكبيرة في القرن الرابع ولا وهي ظهور نظام «الخانية».

P. Ryl. IV. 655, Hermopolis (first half of IV cent. (1) A. D. ?)

(أ) أظهر قوام تكون الملكيات الكبيرة في مقالة جونسون لفترة القرن الثالث، وراجع أيضاً Johnson-West, of. cit. 39 ff.
لقد أراد دلفيناوس بِنظام الضرائب الذي فرضه على الإمبراطورية أن يبسط مهمة جمع الضرائب، وكذلك يصعب التحول والمروحة. ولكن هذا النظام الجديد لم يحقق الأهداف منه، لأن الأثرياء من أهل الساكنة والحكام استطاعوا دفع الضرائب أو مالهم في تجنب دفع الضرائب.

وبنظرًا لأن مسؤولية دفع الضرائب في ذلك الوقت كانت مسؤولية جماعية، أي على جمع سكان القرية أو المنطقة، فكان من الممكن إرهاب أو حتى تعذيب صغار الملك حتى يدفعوا الجزء المتعال. وباستمرار هذا الظلم في جمع الضرائب وسوء الأحوال الاقتصادية من جراء الاضطهادات الموالية التي كانت طاعة هذا العمر، وجد صغار الملك أن الأقدام مجبوبة من استملاك أراضيهم. فلجأوا إلى حيلة كبيرة تجنبهم من مواجهة مسؤولية دفع الضرائب وهي أنهم طلبو حماية أحد كبير الملك من أصحاب النفوذ في المنطقة، على أساس أن يتنازل له الملك الصغير عن أراضيه ويتولى السيد الكبير أمر دفع الضرائب للدولة. وهكذا تحول من ملك حر إلى تابع أولا ثم رقيق أرض، يستأجر من سيده الأراضي التي كان يمتلكها.

وبعد حاولت الحكومة جاهدة إيقاف هذا التيار طوال القرن الرابع، ولكن دون جدوى. فإن الكبيرة من المزارعين رأوا في نظام الخمسة المنعدم الوحيد لهم من ظروف لم يقووا عليها، وفي الوقت نفسه كان كبار الملوك سيداء بزيادة رقعة أراضيهم وزيادة أتباعهم. ومن أشهر جهود الحكومة في حملة ضبط نظام الخمسة على الأقل هو القانون الذي صدر سنة 415 ، ويقضي بالاعتراف بأعمال الخمسة التي تم قبل سنة 397 وитель جميع محاولات الخمسة بعد

Bell, in Legacy of Egypt. p. 335-6
Hardy, Large Estates. 22, ff
Code Theodosius, XI. 24, 6.
هذا التاريخ، وسكن استئثة الكنيسة من هذا الحقد التاريخي. وتفشى من هذه القوائم أن قري بأسرها قد أصبحت تحت حماية السادة من كبار الملوك.

وتأتي بعد ذلك فترة القرن الخامس التي لا يعرف عنها شيئاً، ولكن ما أن يرتفع الستار مرة ثانية عن حالة الأرض في القرن السادس، ندرك أن التطور الذي يحدث في القرن الرابع سار إلى مداه الطبيبي، وإذا بال القطاعات الكبيرة هي الطابع المميز للحياة الزراعية في مصر في القرن السادس، وكانت هذه الإقطاعات على نحو يفوق كل ماعرف في مصر من قبل، وإنها أشبه بالقطاعات الكبيرة التي عرفت في أوروبا في العصور الوسطى. فصاحب الإقطاع آن يملك قري ومدن بأسرها، وهو صاحب الأمر والنهائي في إقليمه دون أن يكون لوظفي الإدارة أي سلطة، وكثير من هؤلاء الموظفين من بين أتباعه.

وقد بلغ من سلطان بعض هؤلاء الإقطاعيين أنهم أخذوا الأنسابم جنوناً وشريكة وحرس خاصة، كما كانت لهم محاكم وسجون خاصة بهم، ولهما حق دفع ضرائبهم للخزانة الولائية مباشرة أو في الأسكندرية (وهو المعروف بنظام autopragnia) وليس عن طريق الوظائف جامع الضريبة.

ولكن يجب أن نتصور أن أرض مصر كانت مقسمة إلى عدود من القطاعات الكبيرة فحسب، بل وجدت أيضًا في القرن السادس قري حرة يمتلك أرضاً صنف الملوك ويدفعون ضرائبهم للدولة مباشرة، كما تبث ذلك مجموعة من الوثائق البردية تشير إلى بعض مناطق مصر الوسطى (1). وبناء على هذه القرى الحرة وجدت قرى أخرى وممتلكات كبرى تتبع الكنيسة المختلفة وخاصة كنيسة الأسكندرية، وقد سبقت الإشارة إلى قانون نيو دولسيوس سنة 415.

Hardy, Large Estates.  
P. London, vol. IV.

(1) خبر دراسة لهذا الموضوع من كتاب
(2) هذه المجموعة منشورة في
الذي يؤكد أن الأماكنية حتى عام 397 وما بعده. ويبدو أن الأماكنية كانت كبيرة. فضلاً الأرواح والأنثى التي كانت تأتيها سواء من الحمام أو الأفراد. وليس أدل على ضخامة هذه الممتلكات مما ترويه المصدر عن تروية كنيسة الإسكندرية ونشاط التجاري الكبير الذي كانت تقوم به (1).

الصناعة والتجارة:

يروي أحد الكتاب المسيحيين قصة ثلاثة عبدين من الأسكيتارية بيعًا كف قد كل واحد منهم بصره. فأحدهم كان يعمل صناع زجاج ثم فقد بصراً بسبب النار التي يستخدمها في صنعه؛ والثاني كان يعمل بطلان سفينة وأصابه مرض في عينيه أثناء رحلة بعيدة ولم يتمكن من علاج عينيه.

أما الثالث فإنه كف مكانه وأصيب في بصره، بينما كان يسرق قبرًا (2).

ولا تخلو هذه القصة من دلالة، فهي تعكس لنا صورة من العمل الشائع في البيئة الكبرى. فقد استمرت الإسكندرية في العصر البيزنطي أيضًا أكبر مركز للصناعة والتجارة في مصر، ولكن مع ذلك أن سوء الأحوال العامة وكثر الأضطرابات وتزايد الاضطرابات أثر في قدرة البلاد الإنتاجية وفي نوع المنتج أيضًا. فصناعة الزجاج مثلاً استمرت في الأسكيتارية ولكن ما عثر عليه في الحفر الحديثة في منطقة الدير يدل على تأخر المستوى وما عرف عن الزجاج المصري من قبل، ويؤيد هذه النتيجة أيضًا قدرة ماسين على من الزجاج المصري في الخارج، إذ يبدو أن تأخر الصناعة المصرية من ناحية وقوة المنافسة الخارجية صرف الأسواق الأجنبية عنه (3).


John Moschus: Pratum Spirituale.

Harden, Roman Glass from Karauis, pp. 34 ff. (4)

278
وكذلك صناعة البردي التي اشتهرت بها مصر منذ القدم فقد استمرت، ولكن تأخر مستواها عن ذي قبل، ويمكن أن نذكر هنا أيضاً أنه رواك، صناعة الكتب من رق الجلد (Codex)، الذي كان يسجل عليه الأدب والفكر السمعي الجديد، تأثير على عدم العدالة بنتائج الأنواع الراقية من البردي القديم. ومع ذلك استمرت صناعة البردي وتصديره إلى الخارج بكميات كبيرة كما كان الحال من قبل. وثبت ذلك مجاناً في حسابات كنية روما التي كان لها ممتلكات بالقرب من الأسكندرية. وبين هذه الممتلكات مصانع تنتج أوراق البردي. مما يدل على أن البردي المصري كان لا يزال سلماً عالمية أن ذكر في نقش يحتوي على جزء من قاعدة الأسرار التي أصدرها دقليانوس، ولكن لسوء الحظ أن النص غير موجود.

أما الصناعة المصرية الثالثة التي كانت منتشرة أيضاً وهي نسيج الكتان، فقد وجدت أيضاً في ذلك العمر، وذكر دقليانوس في كتابة أسعاره صناعة الأسكندرية على أنه ضمن أفضل خمس أنواع من الكتان في الإمبراطورية باسره.

أما صناعة المطور والتوابل التي كانت تستورد من الأسواق الشرقية تم تصنيع في مصر وبعد تصديرها فقد استمر أيضاً، نظراً لأن التجارة الشرقية لم.

F. G. Kenyon, Readers and Books in Ancient Greece (1) and Rome, ch. IV.
Liber Pontificalis, ed. Duscheve, I, 34, p. 177. (2)
The text in T. A. P. A., 71 (1940) p. 158 (3)
T. Frank: Rome and Italy of the Empire, pp. 305 ff., (4) sects. 26–7

٢٧٩
تتوقف وإن قابلت بعض الصوائب أحياناً. ويذكر كشف حساب ملكات كريمة روما في مصر، المشتر إليه سابقاً أن كله الأوطان من الزيوت والتوابل والمطمور بأنواعها كانت تصنع في مصانعهم بالقرب من الأسكدريه.

نستطيع من كل هذا أنه رغم سوء الأحوال العامة في مصر في العصر البيزنطي حين نقص بال مصر الرومانية الأولى، فإن الصناعات الأساسية استمرت في مصر وإن كانت قد تأخرت في مستواها من ذي قبل.

أما التجارة الخارجية فلا قصة أخرى فقد رأينا في الفصل السابق مدى النشاط الذي حققه مصر في مجال التجارة العالمية على أيدى مجار مدينة الأسكدريه، الذين تمكنوا من احتكار التجارة الشرقية لأنفسهم إلى حد بعيد، كما كان أسطولهم التجاري في البحر الأبيض يعتبر الأول بين الولايات جميعاً. ورأينا أيضاً مقدار الثروات الضخمة التي أفادها الأسكدريون من وراء هذه التجارة. ويكفي أن نذكر فيروسو، الذي تمكن من دخله من التجارة البردية والصبع العربي، في أسوأ فترة الإمبراطورية الرومانية في القرن الثالث، أن يكون جيداً وأن يطبع إلى منصب الإمبراطور نفسه.

لذلك ليس مبصراً أن يتسك تجار الأسكدريه بهذه التجارة بكل ما أوصوا بها. ويدعو أنهم يجزوا في المجاعة على ما أكرههم على رأس التجارة العالمية في مصر البيزنطي أيضاً. فقد استمر الاتصال مع الصومال وبلاد العرب والهند متسيراً دون اقطاع.

ويدعو أن النشاط الذي أبداه الأثيوبيون كوسطة في التجارة الشرقية لم يؤثر كثيراً على نشاط الأسكدريه في هذا المجال، وثبت إحدى قوامى العزائم من منتصف القرن الرابع والتي تحتوى على قائمة بالمكسور المستحقة 280.
عند مدخل قناة الأسكندرية أن الملاحين الأسكندرية كانوا على اتصال مباشر بالهند (1). وفي النصف الأول من القرن السادس تثبت مرة أخرى رحلات الراهب المصري كوزوس، الذي كان يعمل في التجارة الشرقية من قبل، وفي الفصل الأخير من كتابه بصفة خاصة، أن التجارة المباشرة مع كل من الهند وسينال لم توقف.

أما في البحر الأبيض المتوسط فإن خطوط الملاحة كانت متميزة من الأسكندرية إلى جميع الموانئ الرئيسية (2).

ولكن يجب أن نذكر تغييراً جديداً حدث في خطوط الملاحة، وهو أن الخطيبين الأسكندرية والقسطنطينية أصبحوا بدلاً من خطر روما. والسبب في ذلك التغيير هو تحويل القمح المصري من روما إلى القسطنطينية التي أخذها قسطنطين عاصمته الجديدة في 11 مايو سنة 330 (3). ومع ذلك فيبدو أن العلاقة التجارية بين مصر وروما لم تقلل كثيراً. فقد كان القديس جيروم في سنة 432 يحاطب الرومان بقوله: "وهانا مرة ثانية مع عودة الربيع أغنيكم من سلع الشرق وأرسل خزانة الأسكندرية إلى روما" (4).

أما عن صادرات مصر فهي مروعة: القمح طيحاً، الكمكش والبردي والورائج والعاج والطعور والتوابل، ويبدو أن الزجاج لم يبد يصدر الآن؛ كما

Sammelbuch. 7756 (259 A. D.)


وقد أضاف إليه أن القسطنطينية:

John Moschus, Pratum Spirituale 75—6
Jones, Constantine, 232—8
St. Jerome, Epist. 91.1. 

281
أن تجاررة الورق من البردى تأثرت بالإقبال على استخدام رقوق الجلد، ومع ذلك فقد استمر تصدير الورق.

أما من الطرائد الأساسية فين أن المادن (وخاصة الفضة أو الصفح) والأخضر والخمر والطير والتوابل من أجل صناعتها محلياً وإعادة تصديرها. وفي دراسة حديثة لهذه الطرائد إتبعت أنها كانت تأتي إلى مصر من شرق بقاع العالم من الصين والهند شرقاً إلى أسبانيا وبريطانيا غرباً. وما من شك أين مالي يمكن مصدر من هذه الطرائد كان بائع في الأسكتردية الاستخدام الخاص بواسطة الطبقة الورجوانية المردحة في هذه المدينة، وكذلك كبار الأسر بالريف.

أما الطبقة الورجوانية في الريف فقد اكتسبت كثيراً في هذا العصر، وفقدت قدرتها الشرائية القديمة؛ أما سائر السكان فكان أكبر مهم هو المحافظة على الحياة أو الفرار إلى الدير.

أما من موقع الدولة من هذه التجارة، فيبدو أنها كانت حرة في أبدى الأفراح؛ ببساطة الجزيرة التي كان على مصر إرسالها إلى روما أولاً والفلسطينية بعد ذلك. ويبعد وجود هذه التجارة أربعون جزيرة البحير، الذي أصدره دلفياً لتحديد أسعار السلع، فهو في هذا البيان يحدث عن جمع التجار وطعمهم في أكثر من موضع، ولكن ينشأ بصفة خاصة قوله: إن هذا البحير العالي سيكون بمثابة ضابط بين المشترى والتجار الذين يزرون المناوي والولايات الأجنبية عادة، فحين يعلمون أنه عندما ترفع الأسعار لا يستطيعون أن يتقدموا.

الأسمار للقروة للجود. ففي حساب المسافات ونقاط الشحن وغير ذلك عند البيع، حتى تتضمن عدالة بجانا حين يبيع كل من عدته نفسه بتصدير السلع إلى أماكن أخرى ليبيع أسمار أكثر ارتفاعًا (1).

نقطة أخرى لما طراتها في مجال النشاط للملح مارسها كبار الموالي. وهي القروض المالية في الخارج، فهي وثيقة دعمة من القرن السادس بعد مسرين يتعاقدون على اقتراض مبلغ من المال في القسططنينية، ومقدار الدين هو عشور سوليدوس (Solidi) من الذهب، بقيمة 8%. ورغم أن المقدمة في القسططنينية إلا أنه ينص على أن يرد الدين في الأسكيكرية.

وأطراف هذا المقدم للدينان هي شخصان من قرية أفروديتا (قوم F. Anastasius، أشقر في مصر الوسطى) والدابة، وسمي فالافوسأ ناسسيوس الذي يصف نفسه بأنه مولع ورئيسًا للبنك القديس لأي الإمبراطور في القسططنينية. وتفيدنا البريدية فوق ذلك أن هذا المولع الكبير، في الأسبكدرية حيث يستلم الدينان أن يدفعه المبلغ المفترض (Apotheke) بالإضافة إلى القروة (2).

مثل هذه الوثيقة توضح أيضًا العلاقات المالية الوثيقة التي ربطت الأسكيكرية بالقسططنينية. فسائر أساسيوس موجود بالسكيكرية ليقوم بواجبين: الأول عند المفاقات التجارية والثانية القيام بأعمال البنك الدولية. فالمبلغ الذي سيدفعه الدينان للصيصر في الأسكيكرية لم يكن يرسل إلى القسططنينية، وإنما كان يبقى في الأسكيكرية ليستقل في عقد المفاقات التجارية. وتظهر لنا هذه

Preamble to the Edict, ed. by Elsa Rose Graser, in T. Frank, Rome and Italy of the Empire; also T.A.P.A. (1940) 57 ff.

P. Cairo Maspero II. 67126 (Jan. 7th 541 A.D.) (1)

283
الوثائق أيضًا كفت أن كبار الموردين في القسطنطينية قد حاولوا محل موالي روما في عصر الإمبراطوري الأول، وكان لهم مكانهم ووكلائهم في الأسكندرية كما كان سابقهم من الرومان. كان بعض هؤلاء الأتراك من أهل القسطنطينية من أصحاب الثقافات اليونانية الراقية، وكثيراً ما تمكنوا بالمذاهب الوثنية القديمة. وفي ظروف استضاءة الوثنية القاسية، وحين تضيق بهم الحياة في القسطنطينية، كان في استطاعتهم أن يقرروا إلى مصر وأن يخونوا فيها مستمرين بأموالهم هناك. ويمكننا أن نورد مثالاً على ذلك وهو أجابوس الهليلي، وكان من كبار الموردين في القسطنطينية. وصنعه الكاتب السبئي سوفرانيوس بقوله: «لم يقتصر نشاطه على الأعمال المالية فقط، بل كان متجدداً مشهوداً له باللغة اليونانية، شديدة الولاء باقتتالي التأمل، وكان يجد الدخول ضد الخالق».

وحدث أن أتى القبض عليه في القسطنطينية، ولكنه تمكن عن طريق الرشوة أن يفر من الحبس وأن يذهب إلى الأسكندرية، حيث مرض ومات. ولاحظ الأسكندرية دون سائر أرجاء الإمبراطورية تبعث على الاعتداء بأنه كانت له أعمال وأموال هناك.

مثل هذه الأخبار من ناحية أخرى تبين مدى السمة العالية التي كانت للأسكندرية كسوق عالمية للتجارة والاستثمار؛ وأن الحياة المالية في المدينة كانت من التعقيد والثراء ما يفسر قدرتها على ممارسة تجارتها العالية مدى تون طويلة.

ويمكننا أن نضيف هنا كلمة أخرى عن نشاط الكنيسة في مجال التجارة الخارجية. فكما كان للكنيسة أملاك في الأرض شملت كثيراً من القرى، كذلك عملت الكنيسة على استغلال أموالها في التجارة الخارجية التي كانت مصدر ربح وفير، ويتضح لنا هذا النشاط بصفة خاصة في سيرة القديس يوحنا الذي تولى أمر الكنيسة في مطلع القرن السابع، فسيرة هذا الأسقف الذي كـ

284
الرجم تكشف عن مدى ثراء الكنيسة إلى درجة أنها امتلكت أسطولا تجاريا في البحر الأبيض المتوسط. وقد استخدم هذا الأسطول في استيراد القمح من مصقلة في أثناء مجاورة زلزال بالبلد (1). وفي مناسبة أخرى أرسل إمدادات كبيرة إلى بيت المقدس حين هاجماها الفرس (2). ومناسبة ثالثة نسم أن ثلاث عشرة سفينة من سفن الكنيسة، كل منها حمل بعثرة ألف أردب من القمح أغرقت في عاصفة في بحر الأدرياتيك. وإضافة إلى القمح حملت هذه السفن ملابس وفضة وأشياء أخرى قيمة (3).

وأخيرا نسم أن هذا الأسقف أعار سفينة من سفن الكنيسة لناجح تجارت سفينته، وأن هذا الناجح أبحر بعشرين ألف أردب من القمح إلى بريطانيا، واستبدل قمحه بصيغه إذا توجد في بريطانيا مخازن هذا المعدن - ولكن حدثت بعد ذلك محجزة وهي أن الصيغة تحول إلى فضة أثناء رحلة العودة (4).

John Almsgriver, 13
Ibid., 9 and Suppl. 20.
Ibid., Suppl. 28.
Ibid., 10

(1) (2) (3) (4)

285
تعتبر نشأة الراهبنة المسيحية في مصر البيزنطية من أهم مظاهر الحياة في ذلك العصر، وخير تعبير عن الروح التي سادت؛ كما تعتبر من ناحية أخرى أهم ما ساهمت به مصر في بناء حضارة المصوبي الوسطى المسيحية بوجه عام. ويجب أن نذكر في هذا المجال أن الراهبنة ليست قاصرة على المسيحية أو أن المصريين أسبق الناس إلى ممارستها؛ بل لقد عرفها الإنسان في تطوره الديني في أمم مختلفة قدية. ففي الهند ابتدأها هذا منذ القرن السادس ق.م.، ووضع لها أسس وقواعد. ومن البوذية انتشرت في الأديان الهندية الكبرى ثم انتقلت إلى بلاد أخرى مجاورة مثلشبه والصين وغيرها. وفي منطقة الشرق الأوسط عرفها جماعات من اليهود في فلسطين قبل ظهور المسيحية وانتشارها مثل جماعات الإسبريني (Nazarites) والنامرنيين (Essenes). ومع ذلك، لم تعرف المسيحية نظام الراهبنة إلا في مصر أولا، ومن مصر انتشرت إلى جميع الأرجاء التي انتشرت إليها المسيحية، ومن ثم دخلوها أوروبا منذ بداية القرن الوسطى. ولما كانت كل دراسة للراهبنة المسيحية ونشأتها تنجب إلى مصر فقط للبحث عن أصولها وطبيعتها.

أما عن الراهبنة أو التنك الدينى في مصر قبل المسيحية فيمكن تتبع أصولها في أكثر من مكان، ومن أمثلة ذلك ما كشفت عنه مجموعة كبيرة من أوراق

(1) أنظر عراضا جيداً لحركة الراهبنة اليونانية في:

Heinrich Hackmann, Buddhism, in Religions of the World, ed. by Carl Clemen, pp. 306 ff.
(Translated by Rev. A. K. Dallas, London, 1931)
البردية التي ترجع إلى العمر البطني وتثبت وجود كَنَسَكية (Katoché) حول معد السراييم في مميس. ومن دراسة هذه الوثائق نتبين أن أفراداً من شعبي البلاطات كانوا بناء على اتفاق مع ديني يندروون للإله نسكا وعبادات متوهدين في قدالى، متقتمين عن حياة المجتمع في شتى مظاهره، ونعلم أيضاً أن من هؤلاء الناس (Katochoi) من بقى طوال حياته متنسكاً ومهم من كان تسكلنترة معينة يعود بعدها إلى الحياة الدنيا (1). وقد وجدت حركة كَنَسَكية أخرى بين طبقة الكهنة في هليوبوليس في الفترة التي سبقت المسيحية مباشرة. فكان هؤلاء الكهنة الرهبان يتقتمون عن جميع أعمال العبادة المختلفة من أجل التعب والتأمل، وكان سلوكهم في ذلك هي سبيل الناسك الألوه من الوحدة والتقشف واللباقية في العبادة والصلاة (2). ولكن يجب أن نلاحظ أن حركة الكَنَسَك في هليوبوليس كانت تختلف عن ناسك السراييم في مميس وعن الرهبنة المسيحية، في أن ناسك الإله آمون كانوا من بين الكهنة فقط، أما ناسك سراييم فكانوا من عامة الناس، ومن هنا كانت أهمية هذه الفترة الأخيرة. وأخيراً يمكننا أن نضيف إلى هذه الحركات الكَنَسَكية ما ظهر بين اليهود في الأسكندريّة، وهي التي عرفت بحركة التحبيب أو الشافين (therapeutai) في القرن الأول لليلادي وقد أفرد فياروس الفيلسوف اليهودي الأسكندري لوصف هذه الحركة كُتابًا


خاصةً، وقراءة ما كتبه فيون تبين أن هؤلاء الذئابين كانوا يعيشون في
شكل مستمرة تناطقة بالقرب من الأسكندرية، وإن نظام حياً لم شديد الشبه
بحركات الر وهبة السريعة الأولى، فكانوا رجالاً ونساءً يهجرون المجتمع ومافيه
من روابط اجتماعية، ويمسكون عن شرب الخمر واكل اللحم، وكانوا يقتلون
العباد والتأمل والصلاة. وكانوا يعيشون في مساكن متفرقة وهم دار عامة
للإيجاع والصلاة العامة.

***

يتضح من هذه القدمة أن النسات والرهبنة الدينية كانت لها أصول في البيئة
المصرية قبل المسيحية. ومن الغريب أن الرهبنة المسيحية لم تتأخر عن هذه المحاولات
والتجارب القديمة مباشرة، وإنما أخذت بدايةً من ظاهرة مصرية قد أشر إلى
بديعة كل البدع عن التقاليد الدينية. ذلك أن المصري القديم كان قد أنفق في ظروف
الضيق أن يفر من المدينة أو القرية إلى الصحراء أو إلى أخراج المنتشمات، كان
يفعل ذلك حين يعجز عن دفع ضرائب الدولة المستحقة عليه، فكان يفر من وجه
الحكومة خشية العقاب الشديد الذي يصيبه في هذه الظروف، وكان يطلق على
في العصور البيونى أنachoréتis مثل هذا الشخص لفظ الهارب أو المحاصي والرومى. وهذا هو السبيل الذي سلكه المسيحيون الأولون، فخن تعرضا
لحالات الانطهاء العنيفة في تاريخهم الأول، لم يجد كثيرون منهم بدأ من القرار
من وجه الدولة والانفصال في الصحراء والجبال حفاظًا على دينهم وعقائدهم، وبعد
أطلق على مثل هؤلاء الأفراد لفظ القديم ذاته (انـاـچوـرـتـس) (وإنا نص قديم)

De Vita Contemplativa

(1) بارغم من احتفال بمالكة فيون في ومنه فحركة الشئون، ليس هناك ما يدعو إلى احث
(2) سيحلة وجود حركة الشئون بجوار الأسكوندية.

(O’Leary, Legacy of Egypt, 318)

وقد سفت الإشارة إلى وجود حركات متشابهة في فلسطين أيضًا.
مشهور بين انتشر هذه الظاهرة بين المسلمين الأولين، وهو ساليوس ديوسيوس أسقف الأسكندرية في وصف اضطهاد دبقوس عام 250، إذ يقول: "وهل هناك حاجة إلى ذكر جماعات أو لاتذان الذين ضربوا في الصحراى والجبال وهلكوا من الجوع والملل والصحى والأمراض أو فعل اللصوص والمسبوح الزهاء (1)".

وهم منهم عاد فروي ماحدث ومااحقوا من أهوال، وهم من لم يعد، لأنه هلك أو لأنه آثر حياة المزلة في الصحراء. على أن القائل أن أكثرهم كان يعود إلى موطنهم بعد شمره بالاطشان إلى انتهاء خطر الاضطهاد، لأن الاضطهادات لم تكن مستمرة. ولكن يحتفظ تاريخ السكونة الأول بذكرى شخصية مصرية قديمة، يحمل نقطة البداية في نشأة الرهبنة السيخية في مصر، وهو الأئمة بولا أو بولس من طيبة في أعلى الصعيد الذي خرج أبناء اضطهاد دبقوس إلى الصحراء الشرقية ولكنه لم يعد. فتأثرت حوله أساطير تروى أنه قرر البقاء في الجبال عن أهل المしばらく، وأنه عاش حتى العام الثالث عشر بعد الميلاد، وأنه في هذه الحياة الطويلة قابل كثيراً من الأهوال وحدث ت معجزات (2).

قصة الأئمة بولا قصة أسطورية، هذا أمر لا شك فيه، ومع ذلك يبقى ذات أهمية تاريخية، لدلائلها على أن بعض المسلمين الأولين وجدوا الحياة في قرام ومعظمهم الأصلية غير معتادة، فسلكوا سبيل الاحتفاء والأعزاز في الصحراى، حيث كانت أهوال الطبيعة أخف عليهم من أهوال المذاب والاستهاد على أيدي الإدارة ومثلها.

Eusebuis, Hist. Eccl. VI. 42. 2.

The Paradise of Palladius, II. 18.

(1) أظهر الرسالة في ديوسيوس.

(2) أظهر.
هكذا بدأت حركة الاعترال والتنسك المسيحية الأولى في مصر الرومانية (1)، وكانت في بدايتها على هذا النحو حركة فردية، ولكنها لم تبق على هذا النحو طويلا وسرعان ما انتقلت إلى المرحلة الثانية من حيات الرهبنة أو التنسك الجماعية. وهي في هذه المرحلة تتم كثيرة من أوجه الشبه مع النظام التفسكية التي كانت موجودة في الأديان القديمة السابقة على المسيحية. وصاحب الفضل في إدخال نظام الحياة الجماعية على الرهبنة المسيحية هو القدّس أنطونيوس من مدينة كوما (هرقلودية) في مصر الوسطى. وهو شخصية تاريخية لعب دورًا في أحداث القرن الرابع، مناصراً أناستاسيوس ضد أريوس، وسيرة حياته كأدبها أنسابوس نفسه (Vita Antonii) وأعاد صياغتها القديس جيروم (2)، سيرة واضحة العالم بعيدة عن البلاطات والطابع الأسطوري، مما تتصف به سيرة الأنا بولا السالفة الذكر، وسيرة أنطونيوس تدلنا على أنه مصري صم، أي لا يتكلم غير اللغة القبطية، ولد لأبين مسرين في منتصف القرن الثالث. وله ناحز أنطونيوس العشرين كان قد قضى أبوه وورث عنها ثروت تقدر بثلاثمائة أرورال (3) مابعاد 100 نقدًا تقريباً).

ولكن نظرًا لنشأته المسيحية الأولى، إذ كان أبواه مسيحيين، ولهم الشخصي إلى الحياة الدينية، إذ كان كثير التردد على الكنيسة، بدأ يتجه إلى حياة العمل والبادية في قريته.

(1) عن حركة الرهبنة المسيحية في مصر، مقال د. عزيز سوريال، عن د. رسالة مار مينا عن الرهبنة الفطيرة من 147-182.
O’Leary, in Legacy of Egypt, pp. 317-332;
E. R. Hardy; Christian Egypt, pp. 35-9, 69-76, et ssepe .
O. F. A. Meinardus, Morks and Monasteries of the Egyptian Deserts, 11 ff.
وبدلاً من ذلك نتيجة لأعمال دينية قرر ببعض ما ورث من الأرض ووزعها بين الفقراء، وأبقى من الأرض ما كان كافياً لحياته الصغيرة. ثم استبدلت به الرغبة بعد ذلك في أن يهجر حياة القرية نهائيًا، وعهد بأنها إلى جماعة من المدارى الساسبات اللائي كن يتبعدن في حجر الكنيسة، وعَدُّ ما بقي من الأرض، وقرر هو اتخاذ حياة النسك لنفسه. فعبر نهر النيل إلى الصحراء ووالجبال الشرقية، وأقام في بقايا قلعة مهجورة في موقع يقال له بسيزير نحوًا من عشرين عامًا (بين عامي 485 و500 تقريبًا). وكثيرًا ما تعرّض عليه أوضاعه وحدوده، جاب إليه من الزاد الذي كان يحتاج إليه، فكان يتحدث إليه عن تجاربه في الاعتزاز والنسك، وعن مواقفه مع شياطين الصحراء، وأساليب الإغراء والاستعجال التي تعرض لها وقاومها.

وسرعان ما ذاع صيته، وأقبل عليه المسيحيون من كل صوب من أخذوا أنفسهم بحية النسك، طالبين التفرّد على يديه والتعلم من مهتره. ولهذا نشأت حركة رهبانية جامعية حول القديس أنطونيوس في مصر الوسطى ولكنها لم تصل بعد إلى نظام الربانية الجامعية السكالية، لأن النسك عاشوا متوازئين فقط، ولكن كل واحد منهم أقام منفراً في قلعة أو كهف، والرابطة الوحيدة بينهم هي التفاهم حول زعيمهم أنطونيوس، الذي كان له دور الأستاذ والوجه الروحي، ولم تكن له صفة الرئيس مجال من أحوال.

ولكن بعد عام 300 تقريبًا، إلى حياة الاعتزاز والانقطع الديني فُجِر «بشير» إلى كهف في الجبال الشرقية المشرفة على البحر الأحمر؛ ورغم هنالك حتى آخر حياته، غير أنه كان يتردد على أتباعه عند بشير زورهم ويرشدهم بنصائحه وتوجيهاته.

ويبدو أن القديس أنطونيوس لم يكن من أولئك النسك الذين اقتطعوا

٣٩١
من الدنيا قفوصها ونسام الناس؟ إذ يبدو أن علاقاته بالحياة في مصر استمرت قوية، وكان على علم تمام محقيقة القضية المسيحية في تلك الفترة. كما أن السالحين في مصر، عددًا من نسبهم، كانوا شهداء التلاقي والإيجاب به، وكانوا ينظرون إليه نظرة في كثير من الأسباب والإجلال، وليس أدل على أهمية القديس أنطونيوس من أنه ترك عزته وعاد إلى مصر في موقف من عصبيين تعرضت فيها للسعيه للسعيه لخطر شديد. الموقف الأول حين سلط الإمبراطور مكسيميوس موجة اضطهاد قاسية عام 301، فنزل أنطونيوس إلى الواحي يدور السالحين داخل السجون وخارجها بيت من عزائهم ويقوى من إيمانهم، حتى وصل الأسكندرية ذاتها معرضاً نفسه لشتى الأخطار والموقف الثاني في سنة 338 زمن الإمبراطور قسطنطين، حين تعرضت الكنيسة المصرية للإضطهاد بسبب الخلاف المقاتلين الذي نشأ بين أنتانيسوس وأريوس. وكان أنتانيسوس بطرح الكنيسة في الأسكتردية فذهب إليه أنطونيوس لسانده وتوحيد كلمة السالحين حوله ضد أريوس.

ولم تكن بسيرت هي المنطقة الوحيدة التي نشأت فيها حركة رهبانية جامعية في مصر، فقد عاصرت الرهبنة الأنتونوية، حركات رهبانية أخرى في أماكن متعددة من مصر، في منطقة طيبة في أعلى الصعيد، وفي منطقة مدينة البسنا، Oxyrhynchos (والشيخ عبارة Antinoe)، وليكوس (Latopolis)، وإسبان (Lycis) بالقرب من أسيوط، ومنطقة وادي النطرون في شرق الدلتا. وصول الرهبنة إلى شمال مصر عند وادي النطرون في وقت مبكر من القرن الرابع لما أهيمته لمناهضة هذه المنطقة لمدينة الأسكتردية. إذ كان معنى ذلك أن الرهبنة المسيحية التي نشأت مصرية تمامًا، قد غزت البيئات ذات الصبغة الإغريقية في مصر منذ
وقت مبكر، فقد وجد في أديرة وادى النطرون رهبان من المصريين والإثيوبيين على السواء (إلى جانب بعض الجنسيات الأخرى). ويقول بلاديوس الذي زار هذه المنطقة في نهاية القرن الرابع أن وجد بها أكثر من خمسة آلاف راهب (1).

أما عن نظام الرهبنة في وادى النطرون فهو نظام الرهبنة الأنتوني الذي ساد في أديرة مصر الوسطى والشمالية، من الشمال أسيوط (Lycopolis) وما من شك أن خير مكان لدراسة هذا النظام هو منطقة وادى النطرون، وذلك لتفاصل الكثيرة التي وردها عدد من المصادر في وصف أديرته (كما في التاريخ الوسياسي، في تاريخ التوحيد، 21 - 22).

ومن هذا الوصف نعرف أن الرهبان في وادى النطرون كانوا من طالفين:

«الأول» تتكون من خمسة آلاف راهب يعيشون على جبل نستريا ذاته، كل له نظامه الخاص (politeia) حسب قدرته واستعداده. وكان يسمح لهم أن يقيموا فرادى أو مثنى أو أكثر» وكانوا يجتمعون جمعية للصلاة يوم السبت والأحد، أما في أيام الأسبوع الأخرى فكان كل يعمل في صومعته أو ديره، بحيث أنه إذا وقف الإنسان في الواجهة في تلك المنطقة جميع الزائرين والتنبجاء صاعدة من الصوامع حوله، ففي أن أنه في الفردوس.

أما الفئة الثانية من الرهبان في تلك المنطقة فهم النساك المتزلون الذين يعيشون متوهدين في جوف الصحراء كل في (Anachoretae).

كونه أو قلته، بعيدًا عن زمليه. وهؤلاء، يبلغون السن والجود. ولا يجدون
أو يتصلون برحبان الأدبية إلا يوم السبت والأحد حين يشهدون
صلاة الجامع.

نلاحظ من هذا الوصف أن هذه الرهبنة الأطرونية في مظهرها الديري كما
وجدت في وادي النطرون كانت لا تزال تميز بالطابع الزيتي واستقلال كل
راهب في حياته الخاصة، رغم حياتهم سوياً في أديرة أو صوامع. إذ لم يكن
هناك نظام موحد للحياة يخضع له جميع الرهبان. حقيقة مرسى الشيوخ
نفوذًا على الشباب، ولذلك توجد أديرة ومشخص محض، ليس فيه
أي إمام.

ويجب أن نضيف هنا أن حركة الرهبنة في منطقة وادي النطرون تقترب
باسم أكثر من أثيوس الرهبنة المسيحية في ذلك الوقت ما آخر الذي تزح إلى
هذه الصحراء في عام 365، والقديس مكاريوس الأسكندري وإليه ينسب
الدير، الموجود الآن في وادي النطرون باسم دير أبو مقتل ولا يزال إلى جواره
حتى اليوم أديرة أخرى هي السريان والبرموز ويشوي (1)، ولازالت
خليفة الرهبان فيها تختلف بكثير من طابعها القدري الأول.

وإن تتغير الرهبنة الأطرونية على الرجال فحسب بل شملت النساء أيضًا،
الأديرة لم تكن حياة الامتناع إماً عالياً، بل كان في استطاعته أن يقتن
حياة الرجل والنسك في بيوته أو في جامعات صغيرة من السبيعات المدارية.
ومن أثلة النسك بين النساء مايكن حيائها مع أنها عن طريق الغزل والنسج،
وقد أكتملت شهرة في عصرها بفضل الدور الذي قامت به من إحدى المدارك

O. Meinardus, Morks and Monasteries, pp. 117 ff. (1) أظر

294
لمأتي في مصر قديماً بين قريتين بسبب تقسيم مياه الرى (1). ويبدو أن إقبال الرجال على الرهبة لأسباب مختلفة، سواء بدافع الناطقة الدينية المنفي أو بدافع المروج من تمحو أعياؤ الوظائف العامة أو العمل في الجيش الروماني، قد ترك كثيرًا من النساء بغير أزواجهن، وهو وضع قد يؤدي إلى حالة أخلاقية خطيرة.

ولذلك أدى المسئولون عن الكنيسة إلى تشيع النساء على حياة التبتел المذرى حتى داخل بيوتهم، وراحوا يؤلفون الكتب التي ترشد المذراة إلى كيفية ممارسة هذه الحياة ومن أهم هذه الكتب التي وصلتنا "رسالة التبتل المذرى" التي كتبها في القرن الرابع والنصبها إلى زعم كنيسة مصر الأكبر قديم أنتاسيوس. ويتضمن الكتاب نصائح مبسطة على المسيرة مراواتها في حياتها الخاصة، مثل المواضبة على قراءة الكتب للقدس في المنزل، وأداء الصلاة في موعدها، وأن ترتدي ملبس متكرزًا جيدًا تذهب إلى الكنيسة أو العمل، وأنه يجب عليها أن تتناول عشاء بسيطًا بعد الساعة التاسعة، ومن المرغوب فيه أن تسكع من شرب الخمر، أما إذا كانت تقيم مع عدائي أخريين من لا يراعين هذه القاعدة فخير لها أن تتناول القليل من الخمر حتى تتجنب الظهور بمنظور الكبرياء، ولكن إذا كان زميلها من المتقدمين في السن من يقدسون في الحديث، فيجب أن لا ينتقد هم في هذه البداية وأن تكون هي سيدة حسنة للمن. ثم هناك نصائح عامة أخرى مثل ضرورة مساعدته الفقراء والمحتاجين، وإذا زادا على "رجل فاضل" (أي راهب) فعليها أن تحسن لهما والاستعا إلى نصائدهم (2).

في الوقت ذاته الذي ذاع فيه مذهب أنتاسيوس "أبو الرهبان" في مصر

Palladuis, Hist. Lausiaca, 2, 22, 31; of Hardy, Christian Egypt, p. 69.
Hardy, Christian Egypt, pp. 69–70.

(1) أغلب

290
الوسطى والسفل إلى الأسكلندرية، كان هناك علما آخر من أعلام السبغيحة المصرية
عمل في جد وجود منقثم النظر لتأسيس مذهب رهبان آخر في صعيد مصر
العلي، ذلك هو القديس باخوميوس (1) الذي وُلد في الجزء الأخير من القرن
الثالث في إحدى بلدان إقليم طيبة الفسضدي يقال لما كينوبوسكيون
(Kynoboskion)؛ وقيل إن مكانه الآن يبعد قصر الصياح في مديرية قنا.
وكلما نقرأ عن تاريخه الأول هو أنه خدم في الجيش الروماني تحت
قطساتيين وليفكينيوس، وأنه في هذه الفترة تصرف على جمعية مسيحية لأول
مرة في مدينة لاتوبوليس (إسنا الحالية)؛ وأنه يمجرد تركه الخدمة العسكرية
اعتقل المسيحية وأخذ سبيل الراهب أيضاً؛ وكان أستاذة في ذلك راهب يقال
له بلامون (Palaemon)؛ ولكن باخوميوس من أولئك الرجال الذين
يولدون ليكونوا قادة أو زعماء، وهذا سرعان ما ظهرت معه شخصيته القوية،
فلم حوله جماعة من الناس وأقامهم بضرورة تأسيس نظام جديد للرهبنة
الجماعية، يحقق فكرة الحياة الجماعية بصورة أقوى وعلى نحو من التنظيم أدق
ما هو حادث في الراهبة الأناطورية وبذلك أنشأ ديره الأول في سنة 323 عند
تبنيس (Tabennis) بالقرب من دندرة الحالية، وبذلك بدأ نظام رهبان
جديد يعرف بالرهبة الجماعية الكاملة.

وسرعان ما انتشر النظام الباخوموي الجديد حتى يقول إنه عند وفاة
باخوميوس حوالي سنة 345 كان قد تشمل نظامه أديرة كثيرة في أماكن متفرقة
في الصعيد الأعلى. وكان الطابع المميز لهذه الحركة الدينية هو خضوعها للنظام
عام موحد يعكس النظام الإداري والعسكري إلى حد بعيد، فهناك قانون عام

(1) يوجد عرض واقع لحركة باخوميوس في مقالة الدكتور عزيز سوريال في مجموعة
"الرهبة الفضدية" س 171–177

296
يختتم له الجمع، وهنالك رؤساء يجب أن يطعنهم عامة الرهبان. وكان الرهبان في كل دير ينقسمون إلى بيوت منفصلة، يضم كل بيت بين ثلاثين وأربعين راهباً، عليهم رئيس وصانع وحناجر وهم من الموظفين.

ولم تكن حياة الدير البخويم قاصرة على العبادة والتبنك، وإذا أشبه بمستمرة اقتصادية يكدب كلها أحياناً اكتفاءً ذاتياً، فكانت البيوت منظمة على أساس الصناعات والحرف، فهناك بيت للخيازين، بيت للنجارين، بيت للحدادين، بيت للزراع، وبيت لنفس الكتب وحناجر...

وبالرغم من أن الأكبرية الغالبة من الرهبان الباخويميين كانوا من الأقباط المصريين، إلا أنه سمح للأجانب الأخرى أن تضم إلى هذه الأديرة، وتمكن أفراد لكل عنصر بيت خاص للإِغَرَيق والسريان واللاتين وغيرهم من اقتصاد الكنيسة في سلك الرهبانية الباخويمية. ولعل هذا هو الأصل في منشأ النظام الذي وردته الجامعات في العصور الوسطى، حيث انتشر نظام البيت والأروحة للأجانب المختلفة. فكان في جامعة باريس خمس أمم تشمل الفرنسيين والإنجليز والصينيين، والبرتغال والبرتغال والبرتغال والبرتغال، ثم هناك نظام الأروحة الشهير الذي ساعد في الجامعة الأزهرية إلى عهد قريب مثل أروحة الصعيادة والبذلوبة والفارهة والقاهرة والشراقة والأحباس وغيرهم.

علي أن من أهم مظاهر نظام الدير البخويم هو الجانب التعليمي الذي قضى بوجود تعلم الراهب القراءة والكتابة ومعرفة الكتاب المقدس عن ظهر قلب كشرط أساسي.

أما في جانب التعب والتنسك، فكان النظام البخويمي أقل صرامة، وظهر

(1) أظف مقالة الدكتور عزيز سوريال السالفة الذكر في ١٧٢.
(2) المرجع ذاته في ١٧٠.

٢٩٧
في العنصر الفردي الذي تتميز به الرهبنة المصرية عموماً. فرغم أن هناك وجوهات عامة للطعام، إلا أنه ترك للأفراد حرية الأكل والصيام كيفاً يشاءون ورغم أنه كانت هناك صلاة عامة للجميع، فكانت معظم الواجبات الدينية تم عن طريق البعثة، والفراد أن يصلوا في قوامهم كيفاً شاؤوا 

ويجب أن نذكر أيضًا أن الديرية الباخومية لم تقتصر على الرهبان بل شملت الرهبات في أديرة خاصة بين، ومن المروف أن أنشئ ديرين للراهبات إلى جانب تسمية راهبة الرهبان في أعلى الصعيد أيضًا; وأن جميع هذه الأديرة للرهبان والراهبات كانت تتبع رياضة باخوم الشخصية المباشرة، وأنه كان يقوم بجولات تزويجية عليها ليتأكد من حسن سير العمل فيها جميعًا. 

وقد وجدت حركات ديرية أخرى بعد ذلك، عمل على الربط بين النظامين

---

(1) أتى فكرة الاختيار.
Butler, The Historia Lausiaca of Palladius, 237.
Hardy, Christian Egypt. 71.

298.
الأطلوني والبائوري، ومن أشهرها الأديرة الليبيطية وحركة الأنابا شنودة.
وتسمى الأديرة الليبيطية إلى ميلييروس الذي كان يتخذ موقفاً متشدداً من قضية
المرتدين أثناء اضطهاد دقليوس في مطلع القرن الرابع، ثم أصبح لأتباعه أديرة
وبازم كثر في مصر الوسطى، وتسمى هذه الأديرة بنظام أكثر ديمقراطية
من النظام البائوري (1)، ولكن هذه الحركة لم تدم طويلاً، وخاصة بعدها،
إلى اتفاق بينهم وبين كنيسة الأسكندرية كما سبق أن بينا في فصل سابق.
أما الأنابا شنودة فقد تعلم في أحد الأديرة البائورية، ولكن لم يرده ذلك
النظام، فأعاد لنفسه نظاماً جديداً طبقه في ديرين هما «الدير الأبيض» و«الدير
الأحمر» في منطقة سوهاج.
وقد حاول أن يجعل حياة الديرية أكثر صرامة ودقة من نظام بائوري،
وذلك قرر أن يقصر حق دخول أديرة على الأقباط من المصريين فقط،
ورفض جميع المناصر الأخرى التي كان يسمح لها بالانضمام إلى أديرة بائورية،
ثم إنه وضع بعد ذلك نظاماً دقيقاً للحياة في الدير، لا يتردد في تطبيق المقابل
الشديد على كل من يتهاون في القيام بمهامه أو يسيء السلاك، ولعل الأمر
إلى حد الضرب المبرح.
على أن أهمية شنودة تقتصر على حركته الديرية، وإنما ترجع أيضاً أنه كان
ذا نذور أديب، وقد بقيت الكثير من دروسي وعظاته التي كتبها باللغة القبطية
بليغة منطقة أخوم، وقد ذاع أمر كتاباته بعد ذلك حتى أصبحت اللغة التي
كتب بها لهجة الكنيسة القبطية لمدة قرون كثيرة. (2)

Bell, Jews and Christians, pp. 38 ff.
O’Leary, Legacy of Egypt, 320-1.

(1) أنظر
(2) أنظر
هذا نشأت الرهبنة المسيحية في مصر وأصبح لها نظام وقواعد مطبقة وممارسة
على نطاق واسع جداً منذ القرن الرابع. وسرعان ما انتشرت خارج مصر إلى
اليونان وسوريا والعراق، ثم إلى إيطاليا وأسبانيا وفرنسا حتى وصلت إلى
أيرلندا غرباً في فترة وجيزة جداً.

30
5- أحياء الثقافية

أما عن الحياة الثقافية في العصر البيزنطي فقد أخذت مظهراً وطابعاً جديداً، نتيجة لتغير الظروف العامة في الإمبراطورية بدورها، وتقدم بها سيادة الدين المسيحي الجديد وأخذت ديناً رسمياً للدولة. فقد القرن الرابع الميلادي وإعلان الإمبراطور قسطنطين الدين الرسمي للإمبراطورية، وبدأت المسيحية تشمل الناس وتسيطر على النشاط الفكري والثقافي في الإمبراطورية. وكانت مصر والأسكندرية بصفة خاصة إحدى المراكز الهامة للدين الجديد كما سبق أن بنيا، ولم يكن غيرها أن تسعم مصر والأسكندرية بنصيب وافر في الهيكل الثقافي الدينية الجديدة. وكان محور هذه الحركة هو الكتابة في شرح الدين الجديد، ومجيداً بطله الأول، وحين اقتسم المسعوديون في القرن الرابع إلى مذاهب وفرق، وجدنا أتباع كل مذهب وفرقة يؤمنون ويكتسبون في الدعاية لوجهة نظرة الإسلام الداعية عنها، ومن أشهر هذه الانقسامات ما حدث بين أربووس وأتاسوس، وقد سببت الإشارة إلى طبيعة هذا الخلاف وتطوره وآثاره السياسية، وهم هنا أن نشير في إيجاز إلى ظاهرة التفوق لهذه المركزة الدينية، فقد كان كلا الزعماء من أكثر أهل العصر الثقافة وحدة عقل أربووس ينتمي إلى مدرسة أفلاطونية الصبغة التي كانت متقاربة بتعاليم أوريستيس الشابه أساساً بالفلاسفة الأثيوبيون، ولذا جاءت نظرته إلى الدين نظرات فلسفية وخرج بتقاليه التفوقية تدعو إلى الفصل بين الإله الأب والسيح الإبن، بناء على ألوهة الأب وإنسانية الإبن. وكانت له كتابات ورسائل في إثبات وجهة نظره والدعوة
ولا، ولكن نظراً لانهيار مذهبه أمام كنيسة الإسكندرية وغيرها بزعم القديس أتناسيوس فقد هلكت كتبته واعتبر مذهبه هزيمة وإلقاء، وما وصلنا منها جاء عن طريق كتاباته خصوصاً الذين تصدوا لتفنيدها.

وأشار خصومه جميعاً وأعظمهم من غير شك القديس أنناسيوس، وكان لا شك أن ضعف شيئاً كبيراً عن نسب هذا الرجل القذى وأبوته، ولكن هناك من الدلائل ما يرجح أنه من أصل مصرى. وكما نعرف عن طفولته أنه نشأ بمدينة الإسكندرية واستطاع بعدما لم يصاب من ثقة الدينية أكبر قدومه. وتعرفنا إلى نفسه من البساطة والبعد عن التقيد، مع الحساس الدينى الدافع، وجدنا أسلوبه في الكتابة اليونانية يتصف أيضاً بالبساطة والوضوح مع القوة في التعبير، ومن أشهر الأمثلة على ذلك مجموعة كتبته في بعض الدعوة. ومن كتاباته ذات الأهمية التاريخية أيضاً Apologia de fuga sua ما يتعلق فيه عن مواقفه الدينية وأعماله مثل كما أن كتابه عن حياة القديس أنطون يعتبر من أقدم وأهم الكتابات عن نشأة الرهبانية المسيحية، وغير ذلك كثير، ولن يسعة في هذا الجمل أن نفصل القول.

وبيني هنا أن نذكر شيئاً أيضاً عن الأدب القبطي. وقد سبقت الإشارة إلى نشأة اللغة القبطية بين المصريين في الوقت الذي ذاعت فيه السجودية، واكتشبت. وبالرغم من أن كنيسة الإسكندرية والمسيحيين في المدينة استخدموا اللغة اليونانية، فإن الأقباط المصريين جعلوا اللغة القبطية لغتهم في مراحلهم التاريخية الجديدة.

وسرعان ما دومنا بها الأدب الجديد، مبتدئين بالإنجيل ثم الدعوات.
والأناشيد الدينية، ثم توسعا كثيرا في التأليف بها عن سير آباء الكنيسة الأولى وخاصة سير القديسين المصريين.

وإذنا هنا أن نشير إلى مثل واحد منها وهو سيرة القديس مينا الذي استشهد في الاضطهاد الكبير زمن الإمبراطور دقلداتوس، ودفن رماده (أو هكذا اعتقده القديس) في المنطقة التي تنبس إليه إلى الآن في الصحراء جنوب غرب الأسكندرية. والكتاب 1 يقسم إلى أجزاء ثلاثة: الاستشهاد والمجزات والتجنيد. وثاني من البيان أن مثل هذه الكتابات القليلة، فهي واقع الأمر نوع من الأدب الشعبي الدينية الذي نقلب عليه البساطة لفرطة بساطة في الأسلاك وبساطة في التفكير.

ولا غرار، فروسومها الأساسية هو المجزات أو الأعمال - وكثير منها خرافات التي لا تتضمن لقوتين الطبيلة وقدرات الإنسان اللائنة. ولذلك غلب على هذه الكتابات البيلة التابعة عن العقل الديني الساقط.

وأما من الناسب أن ننتبه مجددا عن الحياة الثقافية بكاملها عن مدارس الأسكندرية وجامعتها. استمرت الأسكندرية في القرن البيزنطي مركزاً للعلم والثقافة يُقصد إليها الدارسين من شرق الأقطار. فقد استمرت المدرسة الواقية بها بشيء عاليا في الفلسفة والرياض، مما أظهر الكنيسة إلى أن تشيء في المدينة مدرسة مسيحية قوية تقاوم المدرسة الواقية وتنافسها، ولتجذب إلى المسيحية الشباب الجديد.

وكتيرما حضر الشباب إلى الأسكندرية لدراسة العلوم الإنسانية. (أي الفلسفة الواقية وأدابها) ثم تحولوا بعد ذلك إلى المسيحية وخاصة في القرنين

J. Drescher, Apa Mena, le Caire, 1946.  

(1)
الرابع والخامس. ومثال ذلك القديس سيفيروس الذي جاء من أنطاكية وكان لإيزال وثنياً، ودرس العلوم في جامعة الأسكندرية، وهكذا المتقي بعده من أعلام العصر مثل زكريا من غزّة، وتوماس الفيلسوف من غزّة وربنوديوس من واردوس، وباراليوس من كاريا (ألياس الصغرى).

ويمم لنا زكريا في كتابه عن سيرة القديس صورة واضحة عن ناسكين كل من الأساتذة والطلابين من المدرسين الوثنية والسيكاجية وما كان يتحدث بينهم من خلاف بشأن قضايا الدين والفلسفة، وذلك مثل ما حدث من خلاف أدى إلى شجار من الجنبيان حين اقتتح باراليوس من كاريا الدين السيخي (١).

أما سيفيروس نفسه، فقد أن أتم دراسة الفلسفة والأدب في الأسكندرية ذهب إلى بيروت حيث أعلن اعتناقه المسيحية ودخل أحد الأديرة راهباً. تم أصبح في عام ٥١٢ مـ. للكنيسة أنطاكية. فقد كانت كل من الأسكندرية وأنطاكية تنتميان مذهب الطبقة الواحدة، وكانت تربطهما روابط قوية؛ حتى أنه حين تعرض أصحاب هذا المذهب لاضطهاد الدولة في سيفيروس من أنطاكية وجب إلى الأسكندرية عام ٥١٨ (٢).

وكان ظاهرة أخرى جديرة باللاحظة وهي أن المنصر المصري ازداد اهتماماً في الدواوين العلمية في الأسكندرية؛ إذ لم يعد علماء الأسكندرية قاصرين على مواطن الأسكندريين أو الإغريق، ومن الأمثلة التي توضح هذا الاتجاه شخصية الفيلسوف هور أوالو الذي كان رئيسيًا للمدرسة الوثنية في الأسكندرية، ولعب تلاميذه دورًا أساسيًا في موضوع باراليوس، وهو يتنسب إلى أسرة من

Vie de Severe, par Zacharie Le Scholiastique (P. O.) pp. 22-3.
E. R. Hardy, Christian Egypt, pp. 123-132
صعید مصر، ويبدأ أنه لم يكن أول من حضر من أسرته إلى الأسكندرية، فهناة التدريس شأن سائر الملني في مصر البيزنطي كانت وراثية، وذكر هو أبوولو في إحدى البرديات في شيء من الفتن أن آباءه من قبل كانوا مدرسين، وأن والده كان أستاذًا في الأسكندرية كما نعرف من مصادر أخرى أن أفرادًا آخرين من أسرته كانوا يشتغلون بالتدريس في الأسكندرية أيضًا. (1)

ومن الشخصيات اللامعة في تاريخ جامعة الأسكندرية الوثنية في مصر البيزنطي الفيلسوفة الجليلة هيباتيا، وكان والدها أستاذًا للرياضة، وهي أستاذة للفلسفة. وبلغ من شهرتها ويجدها أن صدصها الطالب واستمع إليها الوثنيون والمعماريون على السواء، حتى لقيت مصعّها على آلات التمزيق والخربق أثناء بعض الفتن في مطلع القرن الخامس.

ومن أشهر الشخصيات التي تلتلت المرفة على بدى هيباتيا سيسيووس أسقف كنيسة قورينة فبرقة، الذي عاش في السنوات العديدة في نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس حين كانت تغطيت الوثنية بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة. وبالرغم من كونه مسيحيًا ورجل دين له مكانة، فلم يخف إيمابه الشديد بهاياتا - رغم وثنيتها - بمدرسة الفلسفة بالأسكندرية. ويكنى أن تقرأ بعض رسائله التي بقيت لنا لندري مكانة الأسكندرية كمركز للعلم والتعليم في ذلك الوقت، وأنها كانت لا تزال منافسة قوية لأثينا. وقد عُبر سيسيووس في إحدى رسائله عن هذه اللافعة حين زار مدينة أثينا، وكتب إلى أخيه يقول:

إن رحلتي هذه إلى أثينا سترمي من إكبار أولئك الذين يعملون في أثينا ويعودون إليها. إنهم لا يخافون في شيء عنا، فإن بين الإنسان الماديين إنهم لا يعرفون أرسطو وأفلاطون خيراً منها، ومع ذلك فمن يسيرون بيننا كما لو كانوا أنسان آلهة بين دواب....

وفي خطاب آخر يقول:

"... لم يبق لأنثينا شيء رفع سوى أسماء البلاد المشهورة، فاليوم قد تلقى مصر وصانات الحكمة النافعة من هيباتيا، قدماً كانت لأنثينا موطن الحكمة، أما اليوم فتجاري العسل م مصدر نفادها (1)."

هذه الشهرة العظمى التي تتمتع بها جامعة الإسكندرية القديمة كانت تندلها مكتباتها الكبيرة، التي سبق أن تحدثنا عنها وعن ظروف نشأتها. وظلت الإسكندرية تتمتع بهذه المكتبة حتى نهاية القرن الرابع حين شن أسقف كنيسة الإسكندرية ميوفيروس أكبر حملة اضطهاد تعرض لها الروثيون، من أجل القضاء عليهم نهائياً.

وكأن من أكبر أهداف القضاء على مدرسة الإسكندرية الوثنية، ولذلك اتجه إلى تدمير المكتبة وحرقها باعتبارها أكبر مركز للثقافة الوثنية. وتعتبر هذه الحملة أكبر كارثة حلت بمكتبة الإسكندرية، ولما أنه من المحقق مقدار الأذى الذي لحق الكتب. فإن الناتج أن بعض الكتب قد نجا وأتت الإسكندرية استمرت مركزاً للمرة. وتعلم في القرنين الخامس والسادس، حتى الفتح العربي. ولكن يبدو أن المكتبة المشهورة انتهت تاريخها. في

(1) أظر خطاباته رقم 54، 1376، خطاباته إلى هيباتيا: 100، 16، 17، 33، 34، 481، 124، 81.
الاعتقاد ثيوفيلوس، ولا نسمع عن وجودها بعد ذلك، وليس هناك من سبيل إلى ادعاء وجودها وأن العرب قاموا بحرقاها بعد الفتح. بل لعل هناك ما يثبت أن العرب سموا بستمرار التعليم القديم في الأسكندرية إذ حضر يعقوب من إيديسا إلى الأسكندرية في سنة 280 ليتم تعلمهم بها (1).
23. A. C. Johnson: Egypt and The Roman Empire.
34. J. Lesquier: L'Armee romaine d'Egypte d'Auinst à Diocletien, Le Caire, 1918.
34. L. Lout. La fin du monde antique, Paris, 1921.
47. S. Le Roy Wallace: Taxation in Egypt from Augustus to Diocletian, New York, 1938.
الاحترافات

الباب الأول
النظام الامبراطوري

مقدمة ......................................................... 11
الفصل الأول: المصادر التاريخية .................. 15
الفصل الثاني: العوامل التي أدت إلى سقوط الجمهورية .... 33
الفصل الثالث: سقوط الجمهورية ...................... 47
الانفصال الثلاثي الأول ................................. 49
دكتاتورية قيصر ........................................... 63
الفصل الرابع: التمديد لإقامة الامبراطورية .... 69
الفصل الخامس: تأسيس الامبراطورية .............. 77

الباب الثاني
مصر الرومانية

الفصل السادس: التاريخ السياسي لمصر في العصر الروماني .... 107
أ- القرنان الأول والثاني من الامبراطورية الرومانية .. 107

211
الفصل السابع: معالم النظام والحضارة في مصر

الفصل الثامن: الدولة والدين في مصر البيزنطية
الفصل التاسع: معالم النظام والحضارة في مصر البيزنطية

المراجع